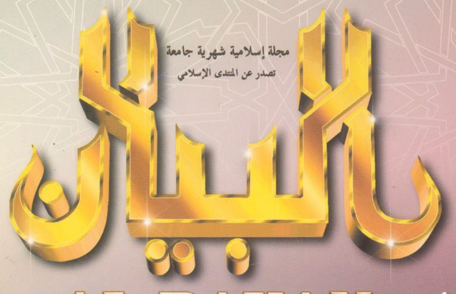


مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

دمعة على حب النبي ﷺ

AL BAYAN

السنة الخامسة عشرة * العدد ١٥٧ * رمضان ١٤٢١هـ * ديسمبر ٢٠٠٠م

حوار مع الشيخ: محمد الراوي

ماينسب إلى السلف.. يؤدي للإحباط

تحت تأثير الإعلام في انتفاضة القدس

للحقيقة وجهان !!



مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

سعر العدد

الأردن ٥٠ قرشاً، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن ٦٠ ريالاً، مصر جنيهان، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ١٠٠ دينار، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5 (STERLING OR EQUIVALENT)

المركز الرئيس:

AL BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place. Parsons Green
London SW6 4HW, U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255

كلمة

نهاية الإحساس

كان
لأحداث انتفاضة
الأقصى أثر في إثارة
مشاعر العداوة والبغضاء
لليهود على كافة المستويات الثقافية،
والانتماءات الفكرية، والمراحل العمرية كذلك،
وهذا أمر إيجابي حين تتحرك مشاعر الإنسانية
والتعاطف في وقت يتطلب إظهار هذه المشاعر ولو
على سبيل المجاراة والمحاكاة، لكن نفراً يحسبون أنفسهم من «بني آدم» قد استبدلوا بإنسانيتهم شيئاً آخر لا ينتمي حتى إلى خلق آخر ولو كان جماداً صلباً!!

وكان نصيب ما يسمى «حركة السلام العربية ـ أو جماعة كوبنهاجن» من ذلك الشيء الكثير؛ ففي مقابلة مع أحدهم اعتبر أن ما قام به الفلسطينيون من مقاومة في المسجد الأقصى نوع من أنواع الفاشية الجديدة!! «إنه قهر للمجتمع المدني وإحراج لقوى السلام في إسرائيل، حتى المظاهرات التي خرجت في الشوارع العربية لم تكن إلا تمهيداً لهذه الفاشية وليست في صالح الشعب الفلسطيني».

ويؤمِّن على هذا الكلام ـ الذي يحتاج إلى تأميم، وتأمين للناس من سفهه ـ كاتب آخر، فيقول: «نحن نعيش حالة الحرب في عقولنا فقط، ونرفض الاستماع إلى أصوات السلام داخل إسرائيل، إن التصور الصحيح أن كل الأطراف مسؤولة عما جرى وعما يحدث الآن، ومن العبث تصور أن إسرائيل وحدها هي المخطئة، لقد رأيت صورة محمد الدُّرة، ولكن رأيت أيضاً صورة الجنود الإسرائيليين الثلاثة وهم يذبحون وتُحرق جثثهم، لماذا تتجاهلون ذلك أيضاً؟!!».

لا يدري المرء وهو يسمع ذلك ماذا يقول!! في الوقت الذي يطالب فيه بعض اليهود حكومة باراك بالكف عن المجازر التي يفعلونها! ألم يستمع أولئك إلى رفض المسؤولين في حركة السلام الإسرائيلية تنظيم أية مظاهرات تأييداً لعملية السلام، وذلك لشعورهم بالإحباط؛ لأن باراك قد قدم تنازلات لم تحدث من قبل وخاصة في شأن القدس، وأن الفلسطينيين غير مستعدين لذلك.. فرحمة الله على بني الإنسان.. ولا عزاء للإحساس.

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	—	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٤٤٤١٠٤٤	٤٣٢٧١٦٧
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٣٥٠٥٢٦	٥٠٠٠١٥
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بورتسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/ الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بنين	كوتونو	٠٣ـ٤١٩٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

المراسلات والإعلانات

الدول العربية:

السعودية: مكتب مجلة البيان ـ ص.ب ٢٦٩٧٠ـ الرياض : ١١٤٩٦ـ هاتف ٤٦٤١٢٢٢ ـ فاكس ٤٦٤١٤٤٦ .

قطر: الدوحة، ص.ب: ١٦٤٦٤ ، هاتف: ٤٤٤١٠٤٤ ، فاكس: ٤٣٢٧١٦٧ .

البحرين: المحرّق مكتب دار البيان، ص.ب ٥٠١٦٣ ـ هاتف ٣٣٥٣٠٠ ـ فاكس ٣٣٦٣٠٠

البريد الإلكتروني: bayan@naseej.com.sa

أوروبا وأمريكا:

AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060 Fax : 071 - 736 4255

■ الاشتراكات ■

بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهاً استرلينياً
أوروبا	٢٠ جنيهاً استرلينياً
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهاً استرلينياً
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهاً استرلينياً
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهاً استرلينياً

الحسابات

■ **السعودية**: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة ـ شارع الأربعين ـ حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠/٧ .

ـ مصرف فيصل الإسلامي ـ حساب رقم: ٠٠٢ـ ٤٥١٤ـ ٤٢ـ ١٠٩ .

ـ الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ـ حساب رقم ٦٣٤٩٢٤ .

■ **الإمارات**: بنك دبي الإسلامي ـ (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤ .

■ **قطر**: مصرف قطر الإسلامي ـ حساب رقم: ٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات حساب مجلة البيان: بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ٢٤٢٠٧٠٠٧١ .

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452

الموزعون

■ **السعودية**: مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف: ٤٦٤٦٦٨٨ ـ فاكس: ٤٦٤٢٩١٩ .

ـ الشركة الوطنية للتوزيع ـ هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠ .

■ **المغرب**: سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩ .

■ **اليمن**: مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧ .

■ **السودان**: شركة النحوي للتجارة والتوزيع ، الخرطوم: ص.ب ١٠٣٧١ ـ هاتف: ٧٧٤٣٣٦ـ ٧٧١٥٤٧ .

■ **مصر**: القاهرة ـ ش الجلاء ـ مؤسسة الأهرام ـ قسم الاشتراكات ، هاتف وفاكس : ٥٧٤٧٠٢٣ .

■ **الأردن**: الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف: ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس: ٦٣٥١٥٢ .

■ **الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان**: شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨ .

■ **قطر**: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف: ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس: ٦٦٢٤٥٠ .

■ **الكويت**: شركة الخليج لتوزيع الصحف والمطبوعات: ص.ب: ٤٢٠٥٧ الشرفح ٧٠٦٥١ ـ هاتف: ٤٨١٦٨٨٥ ـ فاكس: ٤٨٣٦٦٨ .

■ **البحرين**: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ـ ٥٣٤٥٦١ ، فاكس ٥٣١٢٨١ .

الافتتاحية

أمة حية.. أمة ولادة

يرى بعض الباحثين في التاريخ الإسلامي أن انفصال السلطة عن الأمة في الدول الإسلامية المتعاقبة لم يكن سيئاً من جميع جوانبه؛ إذ إن التقلبات والاهتزازات التي كانت تصيب أنظمة الدولة نتيجة فقدان السمة المؤسساتية فيها لم يكن يطول الأمة المسلمة التي كان لها آلياتها الخاصة ومؤسساتها المستقلة والمتنامية، كنظم القضاء والتعليم والأوقاف والجهاد في سبيل الله والحسبة، ولذلك «فإن حضارة أمم الإسلام ظلت حية نشطة معظم الوقت تقريباً»(١).

ومنذ دخول الأمة في نفق الغثائية وانقضاض القوى المتربصة بها عليها يحرص أقطاب هذه القوى على قياس «درجة الحياة» في الأمة المسلمة من حين إلى آخر، وذلك بالقيام بعمليات «جس نبض» مدروسة ومخطط لها بعناية لشعوب هذه الأمة، وبناءاً على طبيعة «رد الفعل المعاكس» الصادر من هذه الشعوب يعرفون الواقع الحقيقي ـ وليس المفترض ـ الذي تعيشه هذه الشعوب، من جهة وعيها وتصوراتها وأفكارها وعواطفها وإرادتها، ومن ثم: يضعون خطواتهم القادمة بناءاً على تصور واقعي وليس متخيلاً لما وصلت إليه هذه الشعوب، ومن هنا ندرك الأهمية القصوى للدور الحيوي الذي تلعبه هذه الشعوب ـ أفراداً ومجموعات ـ في معركة الصراع الذي تعيشه أمتنا مع أعدائها.

ولعل من عمليات جس النبض هذه ما قام به مؤخراً مجرم الحرب الصهيوني (شارون)، عندما قام بزيارة اقتحامية منظمة ومعد لها سلفاً للمسجد الأقصى المبارك، ظاناً ـ هو ومن وراءه ـ أن الصمت البادي من الشعوب الإسلامية المغلوبة على أمرها صمت أبدي، وفي أقصى الحالات لن يكون صراخ هذه الشعوب إلا أنيناً يدل ـ إن خرج ـ على احتضار الفريسة، وهذا ما صرح به شارون نفسه عندما قال: (إنه كان يتوقع ردود أفعال، ولكنه لم يتصور أن تكون ردود الأفعال بهذه القوة)!

نعم.. جاءت ردود الأفعال قوية على غير المتوقع من الشانئين، بل من كثير من المتفائلين والمتعاطفين، جاءت تمزق شهادة الوفاة التي كان يُعِدُّها أعداء هذه الأمة لها، لتكتب من جديد شهادة بالدم أن هذه الأمة ـ بحمد الله ـ حية لا تموت، وأن حبل اتصالها التاريخي غير منقطع؛ لأنها ـ ببساطة ـ أمة الشهادة على الناس، ولأن حضورها مستمر حتى قيام الساعة.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

لم تكن قوة رد الفعل وحدها ما يلفت النظر، بل حملت التحركات الشعبية المتوالية عدة دلالات رمزية لا تُغفَل ولا يستهان بها، من ذلك:

● ارتباط هذه التحركات في مجملها بالرموز الإسلامية، سواء أكانت مساجد، أو شخصيات إسلامية التوجه ذات مكانة علمية أو دعوية عند الناس، أو في صورة تبني الشعارات الإسلامية الواضحة، وفي ذلك دلالة على أن روح هذه الأمة وشخصيتها المستقلة المتميزة مرتبطة بإسلامها.

وهذا يؤكد واجب العلماء والدعاة في ريادة الأمة وتوجيه مسيرتها، فَهُم قلبها النابض، ودمها المتدفق.

● انتشار هذه التحركات من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه، بل تعديها إلى الأقليات الإسلامية التي

(١) د. حسين مؤنس، (الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، ص ١٧٧

تعيش في الغرب، ولا يقل عنها دلالة انتشارها بين فلسطينيي (٤٨)، ليؤكد جميع هؤلاء للعالم أن هويتهم الحقيقية هي الإسلام، وليؤكدوا أيضاً إخفاق مشروع الدولة القومية المعاصرة في القضاء على شعور الوحدة والانتماء الإسلامي.

● وإذا كانت هذه التحركات ارتبطت برموز إسلامية، إلا أن المتحركين الفعليين لم يكونوا جميعاً أصحاب توجه إسلامي عقائدي، بل كانوا - في الغالب - أصحاب عاطفة إسلامية متأججة، بل لقد خرجت صيحات (الجهاد) أحياناً من شخصيات وتجمعات محسوبة عادة على الاتجاه المعاكس للتيار الإسلامي، ولكنها - هنا - اقتربت جداً من شعاراته وإن اختلفت معه في منطلقاته، وقد يكون دافعها إلى هذا الاقتراب: إما العاطفة، وإما التقاء المصالح، وإما الانتهازية وركوب الموجة؛ وفي ذلك كله دلالة على يقظة الحس العام؛ وإن كان يحمل في طياته خطورة الارتكاز على هذا الحس وحده، ولكن ينبغي النظر في كيفية توظيفه واستثماره.

● تعددت مظاهر هذه التحركات كل حسب موقعه وإمكاناته واستطاعته: من مواجهات بطولية يومية للشعب المسلم الفلسطيني مع العدو في الداخل، وبذله لدمه رخيصاً في سبيل المقدسات الإسلامية، إلى مظاهرات مليونية أو آلافية في بعض البلدان، إلى مقاطعة أو محاصرة للرموز الغربية والأمريكية بما يشبه عمليات تأميم شعبية، إلى تبرعات بالملايين للشعب المسلم الفلسطيني في الداخل مع التمييز الواعي للجهة التي ستصلها هذه التبرعات، إلى تحركات فردية ذات دلالة عظيمة، كالذي قام به الطفل المصري أحمد شعراوي بصورة عفوية عندما ترك أهله وسافر وحده إلى الحدود المصرية الفلسطينية رغبة منه في مشاركة أطفال فلسطين في انتفاضتهم.

ولكن هذه المظاهر على اختلافها أعطت دلالات قريبة من أهمها - بخلاف إظهار التعاطف والتآلف والوحدة -:

حق الشعوب الإسلامية في المقاومة وقدرتها على ذلك، وأن هذه الأحداث الأخيرة رجعت بعقارب الزمن ثلاثين عاماً على الأقل في اتجاه يقظة الأمة، وتقدمت بتلك العقارب أعواماً عديدة باتجاه وعي الأمة.

إن هذه الأحداث كما أنها تضيء بارقة أمل إلا أنها أيضاً تلقي بمزيد من المسؤولية على عاتق من يريدون قيادة الأمة نحو فلاحها، ومن هذه المسؤولية:

البحث في كيفية توقع عمليات جس النبض والاستعداد لها والتعامل معها، وكيفية الاستفادة من المظاهر السابق ذكرها، وأيضاً: كيفية سد النقص ومعالجة الأخطاء التي قد تعتريها، وصولاً إلى ترشيدها.

فهناك تحديات كبيرة أمام هؤلاء؛ ومنها:

● ربط الشعوب الإسلامية بمنابع العزة والتمكين: كتاب الله - تعالى - وسنة نبيه ﷺ، وتربيتها على الجدية والعطاء، وإحياء روح الغيرة على الشعائر والمقدسات الإسلامية.

● إدراك تنوع ميادين المعركة ووسائلها، والتي ليس من أقلها: الإعلام، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع.

● البحث عن وسيلة تجنبنا تحول حركة الشعوب إلى مظاهر سلبية قد تؤثر عليها وعلى قضيتها.

● البحث في استنباط أساليب فعالة للمقاومة والضغط الشعبي، ووجود آليات شعبية متاحة يستطيع كل فرد من خلالها تقديم العون لقضيته.

● كيفية اتساق هذه الأعمال والجهود في منظومة واحدة تخدم القضية.

● كيفية القضاء على الإحباط والفتور وانقطاع النَّفَس مع إعطاء هذه الأعمال طاقة متجددة منتظمة ومستمرة (النفَس الطويل).

● كيفية إخراج هذه التحركات بصورة مدروسة ومقصودة، وعدم الاكتفاء بانتظار أن تكون رد فعل على استفزازات الآخرين، أو مجرد تحركات عفوية أو فوضوية.

● كيفية نشر الوعي بهذه الأمور بين الأفراد ليستطيعوا توجيه مشاعرهم وجهودهم وتوحيدها.

إننا في النهاية نذكِّر بأن هذه الأمة أمة حية، كما أنها أمة ولاَّدة، فيها من الطاقات والإمكانات ما لا يستهان به إن أُحْسِنَ إخراجه وتوظيفه.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].



دمعة على حب النبي ﷺ

نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ

(١ـ٢)

عبدالله الخضيري

قلِّب عينيك في الملكوت ترَ الجمال بديعاً، وافتح قلبك لأسرار هذا الجمال ترَ الحياة ربيعاً، وخض في معترك الحياة تكن لك الحياة جميعاً، واجمعْ لي قلبك أجمعْ لك عقلي، وامنحني يدك فإني لأرجو أن أمنح لك حياةً هادئة سعيدة بإذن الله، وافتح صدرك أملؤه دفئاً ومحبةً وصدقاً. كن معي لأكون لك وكما تحب.

وأعطني دمعةً تحيي بها قلبك، وتسلّي بها نفسك، فدموعنا مداد للفكر، وعبراتنا ثباتٌ على المبدأ، وبكاؤنا دوامٌ على النهج والمنهج، قلوبنا أهديناها بالحب إلى غير محب ففقدنا أعزَّ ما نملك، وإذا بنا نتحسس أماكنها وقد تَوَهَّمنا وجودها، إننا بحاجة إلى أن نحب ولكن لا نغلو، ونهوى ولكن لا نفرط، ونعشق ولكن بتعفف.

إن القلب هو الكنز الذي لا يقرؤه إلا من يملكه، وإن راحة الضمير أنوارٌ تتلألأ في الغَلَس، وينابيع متفجرة في الصحارى، وكنوز داخل البيوت المهجورة، كم من الوقت ضاع لأجل الحب وفي دوّامته؟ وكم من العقول ذهبت لأجل الحب وفي دائرته؟ ونغرق يومنا في أبجديات الحب!! فمحب يعيش بين الذكرى والنسيان، ومحب يتيه بين الوصل والحرمان، حبٌّ يُسعد في الاسم، ويُشقي في الرسم، جمالٌ في الصورة، وغموضٌ في الحقيقة، الحب تاجٌ لكنه من حديد، وكنزٌ لكنه من تراب، ومعدنٌ لكنه من سراب، وأي حبٍ يُدّعى فإنه ناقصٌ إذ العلاقات بين الآدميين بنيت على المصالح ـ في الغالب ـ وإن تنوعت صور الجمال أو تجمّلت الصور. وإن لكل فؤادٍ نزعةَ حبٍّ عذريةً تفيضُ بعذبِ الهوى ونميره، ولو اطّلع الناس على قلوب القساة لوجدوا فيها أنهاراً متدفقة من الحب والرحمة، ولكنها تصب في أرض قيعان.

وإني أحمل راية بيضاء لبيض القلوب أن تتوجه بالحب إلى أصدق الحب وأبقاه، وأبقى البر وأوفاه إلى....

أشواقنا نحو الحجاز تطلّعت
كحنين مغترب إلى الأوطانِ
إن الطيور وإن قصصتَ جناحها
تسمو بهمّتها إلى الطيرانِ

لن أقول: «كانت الحياة قبل البعثة ظلاماً»؛ إذ لا يجهل ذلك أحد، ولن أقول: «كان الظلم، ولم يكن غيره»؛ إذ لا أحد يشكُّ في ذلك، ولن أقول: «كان الحق للقوة»، و«كانت الحياة للرجل لا للمرأة»؛ إذ الناس أجمعوا على ذلك، ولكني أقول: مع البعثة وُلدت الحياة، وارتوى الناس بعد الظمأ:

لمّا أطلَّ محمّدٌ زكت الرُّبى
واخضرَّ في البستان كل هشيم

وكان من المبشرات بميلاد الحياة ما صادف المولد النبوي من إهلاك أصحاب الفيل؛ فإنه بشرى بإهلاك الطاغوت والطغاة، وولادةٌ لفجر العدالة والحياة، كما أن في إهلاكهم اجتماعاً لكلمة قريش وتوحدها، ولذا أنزل الله - تعالى - بعد سورة الفيل سورة قريش، بياناً لسبب من أسباب إهلاك أصحاب الفيل وهو أنه لتآلف قريش، ومن بعد ذلك كلّه ذكّر قريشاً بنعمتين عظيمتين أُولاهما: أن أطعمهم من جوع، وتمثّل ذلك في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وثانيهما: أن آمنهم من خوف، وهنا كلمة «خوف» جاءت نكرة دالة على العموم، فيدخل في ذلك كلُّ خوفٍ ألمَّ بهم فأمنوا منه، كما في قصة أصحاب الفيل وأبرهة الأشرم، أو خوفٍ يحدث لهم بعد ذلك ظاهراً كبعثة محمد ﷺ، وإنما هو رحمةٌ وأمنٌ وأمان لهم ظاهراً وباطناً، حينما يظهره الله - تعالى - كما أهلك الله أصحاب الفيل لكي تتعلق القلوب بربِّ البيت الذي أهلك البغاة، وكيف يكون شكرهم له.

وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عالٍ من الأطم

ومما كان ممهِّداً ومقدِّماً لدعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ ما روى البخاري - رحمه الله - في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ فَقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهم، وقُتلت سرواتهم، وجُرِّحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام»[1].

ثم ولي ذلك اجتماع النفوس على نصر المظلوم، وردِّ الفضول على أهلها، وبه سمي الحلف، وفيه انتصار للعدالة، وإنْ كان ذلك على نطاق ضيق لكن: «لا شك أن العدل قيمةٌ مطلقةٌ وليست نسبيةً، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين؛ فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية»[2].

وقد قال النبي ﷺ عن ذلك الحلف: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه»[3]، وسمّاه: المطيبين؛ لأن العشائر التي عقدت حلف المطيبين هي التي عقدت حلف الفضول، وإنما كان حلف المطيبين قبل ميلاد محمد ﷺ بعد وفاة جده قصي[4].

هذا على العموم وفي الظاهر. أما ما كان ممهداً

---

(1) البخاري، ح/ ٣٧٧٧.

(2) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، (١/١١٢).

(3) أخرجه أحمد برقم ١٦٥٥، وصححه أحمد شاكر، كما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني فيه برقم ٤٤١ / ٥٦٧، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٩٠٠.

(4) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، (١/١١٢)، وانظر تعليق أحمد شاكر على الحديث كما في المسند (٣/١٢٠) مكتبة ابن تيمية.

له ﷺ في ذاته فإن الخلوة والتعبد من أهم سمات العظماء(1)، فإنه بعد ذلك ممتلئٌ بما فرّغ نفسه له؛ فقد قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء»(2).

ومما كان مطمئناً له ﷺ قبل نزول الوحي الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح(3).

ومع بشريته ﷺ وإعلانه بإعلان القرآن لذلك، إلا أنه ذكر من المعجزات والآيات ما كان آية على علو منزلته، ورفيع قدره؛ فقد حدَّث ﷺ: أن حجراً كان يُسلم عليه قبل النبوة(4). فلله ما أعظم هذا القائد، وما أصدقه؛ فما عرفت مكة أميناً كأمانته ﷺ، فلما أظهره الله بالحق الذي معه لم يكن عندهم ظاهراً كذلك:

لقبتموه أمين القوم في صغر
وما الأمين على قولٍ بمتَّهم

ولعلي أقف عند هذا الحد وأدخل فيما أردت من موضوع الحب لرسول ﷺ؛ فإن الحب أسمى العلاقات، ولعله أرقها، وإنما يبعث على كتابة مثل هذا الموضوع قول الرسول الكريم ﷺ: «أنت مع من أحببت»(5)، وأي سعادة تقارب تلك السعادة في الحب؟ وأي نجاح في النهاية يوازي ذلك الحب؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنما ينفع العبدَ الحبُّ لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين؛ لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبته، وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم»(6).

وإذا تعلق قلب العبد بالله أحب كل ما يقرب إلى الله ويزيده، ويبقى أنه أشد حباً لله، فلا حب يوازي ذلك الحب، وإنما يحب بحب الله وله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم إذا كنت تحبهم لله؛ فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه؛ فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله»(7).

وإن مما دعاني إلى كتابة هذه الأحرف ما أراه من تخلي القريب الأدنى عن سيرة المصطفى ﷺ وسنته، وتحليهم بما يؤسف له من رموز الفكر والأدب في جميع أحاديثهم، وإن هذا نكس ونقص في الفطرة والتعليم، وإلا فقد قال - تعالى -: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. [البقرة: 61].

(1) فائدة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (10/426): «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاووس: (نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه)، وإما في غير بيته».

(2، 3) البخاري، ح/ 3، ومسلم، ح/ 160.

(4) مسلم، ح/ 2277.

(5) البخاري، ح/ 6167، مسلم، ح/ 2639.

(6) الفتاوى (10/610).

(7) الفتاوى (10/608).



وما أراه من هجوم البعيد على سنة الكريم ﷺ وسيرته، مما تبثه وسائل الإعلام المختلفة، تصريحاً وتلميحاً، ظاهراً وباطناً، والله المستعان.

«وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها؛ لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس»[1].

وحسبي إن أنا خضت في هذا الموضوع أن أنال محبة القوم، وحسبي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم:

أسيرُ خلف ركاب النُّجْبِ ذا عرج
مؤملاً كشف ما لاقيت من عوج
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا
فكم لربِّ الورى في ذاك من فرج
وإن بقيت بظهر الأرض منقطعاً
فما على عرج في ذاك من حرج

واسمح لي أن انتقل وإياك إلى جيل تعيش معهم الأمن والسكينة بعد أن ذقت من الدنيا خوفاً وهلعاً، ودعني أستل من قلبك خيطاً أبيض نلتمس به الصلة بيننا وبينهم، وأعرني دمعة تخفف بها الهوة بيننا وبين رسول الله ﷺ وتوقيره. قال صاحب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: «ذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني؟ فقال: «ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أوثق منه»[2]. وقال عنه مالك: «وحجّ حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ، بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه»[3].

وقال مصعب بن عبد الله: «كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون»، وذكر مالك عن محمد ابن المنكدر ـ وكان سيد القراء ـ: «لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه»[4]، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد ـ وكان كثير الدعابة والتبسم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. وكان الحسن ـ رحمه الله ـ إذا ذكر حديث حنين الجذع وبكائه[5] يقول: «يا معشر المسلمين! الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه»[6].

وكان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر ابن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع:

نزف البكاء دموع عينك فاستعر
عيناً لغيرك دمعها مدرارُ

(١) مجموعة العبقريات، لعباس العقاد، ص: ١٠.
(٢) سير اعلام النبلاء، (٦/٢٤).
(٣) المصدر السابق، (٦/١٧).
(٤) حلية الأولياء، (٣/١٤٧)، وسير اعلام النبلاء، (٥/٣٥٤ ـ ٣٥٥).
(٥) البخاري، ح/٣٥٨٤.
(٦) سير اعلام النبلاء، (٤/٥٧٠)، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ص ٥٧٢، مكتبة ابن تيمية.

ولقد رأيت الزهري - وكان لَمِنْ أهنأ الناس وأقربهم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه)[1].

وقال عمرو بن ميمون: «اختلفت إلى ابن مسعود سنة فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدَّث يوماً فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، ثم علاه كربٌ، حتى رأيت العرق يتحدَّر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق ذا، أو ما دون ذا، ثم انتفخت أوداجه، وتربَّد وجهه وتغرغرت عيناه»[2].

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يشبه برسول الله ﷺ، فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقَّاه وقبَّل بين عينيه، وأقطعه المِرغاب، لشبهه صورة رسول الله ﷺ[3].

وإني سائل بعد تلك الصور المتحدثة: أين نحن من سيرتهم؟ وأين حالنا من حالهم؟ وما أثر الحب عندنا؟ وما أثره عندهم؟ بل وما صدق ما ندَّعي؟ وما صدق ما لم يدَّعوه؟ وأين حقيقة ما ندَّعي؟ وما دلائل المحبة عندهم؟

لقد قام في قلوبهم ما قصرت هممنا عن أن تقوم بأقله، وأحيوا في شعورهم ما ماتت مشاعرنا دونه، وتعلقت أبصارهم فيما وراء الطرف، في حين لم تتجاوز أبصارنا أطرافنا، ألا رجل لم تقعد به همته ولم يتأخر به عمله؟! ألا صادق يترجم المحبة قولاً وعملاً وغيرة؟! ألا فارس لا يرجع إلا بإحدى الحسنيين؟!

أيها المُحبُّون: لقد تباعد بنا الزمن، واستنسرت الفتن، واشتغل الأكثرون بالحطام من المهن، غاب عنا الحب وإن ادعيناه، ونسينا الواجبات فكانت من أحاديث الذكريات، نتحدث عن السنة النبوية والهدي النبوي لكن لا ترى جاداً في الاتباع، ولا صادقاً في الكلام - إلا قليلاً -:

وكل يدَّعي وصلاً بليلى
وليلى لا تقر لهم بذاكا

ولمزيد من التوضيح فلنعرض أنفسنا على السنة المطهرة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولنعرض بعض المظاهر التي أحسبُ أنها كافية في إيضاح الجفاء الذي اتصف به بعضنا مع رسول الله ﷺ وسنته، لعل الله أن يزيد المهتدي هدى، وأن يبدل الجافي إلفاً، والبعيد قرباً، والغالي قصداً.

ويأتي في أول تلك المظاهر البعد عن السنة باطناً؛ وذلك بتحول العبادات إلى عادات ونسيان احتساب الأجر من الله، أو ترك متابعة الرسول ﷺ وتعظيمه، والمحبة القلبية الخالصة له، ونسيان السنن وعدم تعلمها، أو البحث عنها، وعدم توقير السنة، والاستخفاف بها باطناً.

ومن ذلك أيضاً البعد عن السنة ظاهراً؛ وذلك بترك العمل بالسنن الظاهرة الواجب منها والمندوب، وعلى سبيل المثال سنن الاعتقاد ومجانبة البدعة وأهلها بل وهجرهم، أو السنن المؤكدة مثل: سنن الأكل، واللباس، أو الرواتب، أو الوتر، أو ركعتي الضحى، وسنن المناسك في الحج والعمرة، والسنن المتعلقة بالصوم في الزمان والمكان. فصارت السنة عند بعض الناس كالفضلة - والله المستعان -.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض ٥٩٨ بتصرف وإحالة.

(٢) المصدر السابق، (٢/٥٩٩).

(٣) المصدر السابق، (٢/٦١٠).

ولعمر الله لا يستقيم قلب العبد حقيقة حتى يعظم السنة ويحتاط لها، ويعمل بها. هذا وقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» كما في الصحيحين[1]، وكان كلامه هذا ﷺ في أمر الزواج وأكل اللحم ونحوهما.

وقد قال أُبَيُّ بن كعب - رضي الله عنه -: «عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله، إلا تحاتَّت عنه خطاياه، كما يتحاتُّ الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإنَّ اقتصاداً في سبيلٍ وسنة خير من اجتهاد فيما [هو] خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم»[2].

ومما يلاحظ من الجفاء رد بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة بأدنى حجة من الحجج، كمخالفة العقل أو عدم تمشيها مع الواقع، أو عدم إمكان العمل بها، أو المكابرة في قبول الأحاديث، وتأويل النصوص وحرفها لأجل ذلك، أو رد الأحاديث الصحيحة باعتبار أنها آحاد - وأغلب أحكام الشريعة إنما جاءت من طريق الآحاد - أو دعوى العمل بالقرآن وحده، وترك ما سوى ذلك، وقد قال ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري؛ ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[3].

وإن زعموا ما زعموا من وجوب وحدة المسلمين على القرآن وحده، فإن الله - تعالى - أوجب في القرآن الأخذ عن الرسول ﷺ كل ما أتى به جملة وتفصيلاً فقال - تعالى -: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقد ذكر الله طاعة الرسول ﷺ في القرآن في ثلاث وثلاثين موضعاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[4].

قال الحميدي: «كنا عند الشافعي - رحمه الله - فأتاه رجل، فسأله في مسألة؟ فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! ترى على وسطي زناراً؟! أقول لك: قضى فيها رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟!»[5]. وقال مالك: أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله؟!»[6].

ويقول - رحمه الله: «سنَّ رسول الله ﷺ، وولاة الأمر بعده سنناً الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله - عز وجل - واستكمالٌ لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى»[7].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن الأدب معه ألا يُستشكَل قوله، بل تُستشكَل الآراء لقوله، ولا يُعارَض نصه بقياس، بل تُهدَر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يُحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن

(١) البخاري، ح/ ٥٠٦٣، ومسلم، ح/ ١٤٠١.

(٢) أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص: ١٦.

(٣) الترمذي، ح/ ٢٨٠٠، وأبو داود، ح/ ٤٦٠٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، ح/٣٨٤٩.

(٤) أبو داود، ح/ ٤٦٠٤، صححه الألباني في صحيح أبي داود، ح/٣٨٤٨.

(٥) سير أعلام النبلاء، (١٠/ ٣٤)، وحلية الأولياء، (٩/ ١٠٦).

(٦) سير أعلام النبلاء، (٨/ ٩٩)، وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي، ص ٥.

(٧) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٠٧.

الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد. فكان هذا من قلة الأدب معه ﷺ، بل هو عين الجرأة»[1].

دعوا كل قول عند قول محمد
فما آمنٌ في دينه كمخاطر

وفي عصر الإعلام يتجلى الجفاء في العدول عن سيرته ﷺ وسنته وواقعه وأعماله إلى رموز آخرين من عظماء الشرق والغرب - كما يسمون - سواء كانوا في القيادة والسياسة، أو في الفكر والفلسفة، أو في الأدب والأخلاق؛ والأدهى من ذلك مقارنة أقوال هؤلاء ومقاربتها لأقوال النبي ﷺ وأحواله، وعرضها للعموم والعامة؛ وتلك مصيبة تهوِّن على العوام التجني على سيرة المصطفى ﷺ وسنته، وتثير الشكوك في أقواله وأعماله التشريعية ﷺ والتي هي محض وحي: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]. لكن بعض الأذهان لا تتعلق إلا بالواقع المشاهد، واللحظة المعاصرة، فينبهرون بأولئك، وينسون العظمة التي عاشها النبي ﷺ للأحياء وللأموات، للحاضر وللمستقبل، بل للحياة وللموت.

أتطلبون من المختار معجزة
يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياهُ

وقد سمى الله الكفر قبل الإيمان موتاً، والإيمان حياة، قال - تعالى -: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾. [الأنعام: ١٢٢].

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من العدم

وأعماله ﷺ ما زالت وستظل قائمة بأعيانها متحدثة بعنوانها عن عظيم وعظمة وحياة، ولا تحتاج إلى دليل وبيان:

وليس يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

ويلحق في ذلك تقديم أقوالهم على أقواله ﷺ، وأحوالهم على أحواله، وأعمالهم على أعماله، ويا للأسف! من يقوم بمثل تلك الأعمال؟ إنهم رجال الفن وفئة من أهل الصحافة وبعض ساسة الإعلام والتعليم ممن تسوَّدوا بغير سيادة، وقادوا بغير قيادة!!

وفي مجالسنا ومنتدياتنا يلاحظ المتأمل منا جفاءً روحانياً يتضح في نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ وكأنها حديث عابر، أو سيرة شاعر، أو قصة سائر، فلا أدب في الكلام، ولا توقير للحديث، ولا استشعار لهيبة الجلال النبوي، ولا ذوق للأدب النوراني القدسي، فلا مبالاة، ولا اهتمام، ولا توقير، ولا احترام، وقد قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]. هذا أيها الناس هو الأدب الرباني؛ فأين الأدب الإنساني قبل الأدب الإسلامي؟

كما نهى الله قوماً كانوا ينادونه باسمه: (يا محمد) كما ذكره كثير من المفسرين، فيسلب المنادي الشرف الذي تميز به رسول الله ﷺ وهو النبوة والرسالة، وهذا ليس على إطلاقه لكنه أدب فتأمله.

«كان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت، فلا يتحدث أحد، ولا يُبرى قلم، ولا يبتسم أحد، ولا يقوم أحد قائماً، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة؛ فإذا رأى أحداً منهم تبسم أو تحدث لبس نعله وخرج»[2]. ولعله بذلك

(١) مدارج السالكين: (٢/٤٠٦).

(٢) سير اعلام النبلاء، (٩/٢٠١).

يتأول الآيات الثلاث في أول سورة الحجرات؛ كما تأولها حماد بن زيد بهذا المعنى[1].

«وكان مالك ـ رحمه الله ـ أشد تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ، فكان إذا جلس للفقه جلس كيف كان، وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمّم وقعد على منصته بخشوع وخضوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلى فراغه تعظيماً للحديث»[2].

ولذا حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على تعليم الناس تعظيم النبي ﷺ ميتاً كتعظيمه حياً، وذلك من تمام وفائه للنبي ﷺ. روى البخاري ـ رحمه الله ـ عن السائب بن يزيد قال: «كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما، قال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ!!»[3].

ويلحق بالجفاء، جفاء القلوب والأعمال، تجاه من خدموا السنة، ويتمثل ذلك في هجر أهل السنة والأثر العاملين بها، أو اغتيابهم ولمزهم والاستهزاء بهم واستنقاص أقدارهم، وانتقادهم وعيبهم على التزامهم بالسنن ظاهراً وباطناً.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

وتصور حالة الغربة والغرباء تجد قلتهم في هذا الزمن وغيره، وقد سبقنا إلى تصويرها ابن القيم حين قال:

وأي اغتراب فوق غربتنا التي
لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم
ولكننا سبي العدو؛ فهل تُرى
نعود إلى أوطاننا ونسلم

وبه وصف أهل السنة والأثر يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[4].

وعيرني الواشون أني أحبها
وتلك شكاةٌ ظاهر عنك عارها

وهذا أحد السلف وهو الجنيد بن محمد يقول: «الطرق إلى الله ـ تعالى ـ كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته؛ فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]»[5].

أما من لم يدرك السنة والعمل بها فلا همّ له إلا الكلام والملام.

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

وفي الحقيقة أن من تكلم فيهم فلا يضر إلا نفسه:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها
فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

ولعل هذا أيضاً مما ينشر السنن بين الناس:

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت؛ أتاح لها لسان حسود

---

(١) سير أعلام النبلاء، (٧/٤٦٠).

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي، (١/١٩٦)، والشفاء لعياض، (٢/٦٠١).

(٣) البخاري، ح/٤٧٠.

(٤) البخاري، ح/٣٦٤١، ومسلم، ح/١٠٣٧.

(٥) أبو نعيم في الحلية، (١٠/٢٥٧)، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص ١٩.



سنابل الخير

فيصل بن علي البعداني **(٢-٢)**

albadani@hotmail.com

في العدد الماضي بيَّن الكاتب أن المال مال الله، وأن الصدقة شُرعت لغرضين جليلين: أحدهما: سد خَلَّة المسلمين وحاجتهم، والثاني: معونة الإسلام وتأييده. ثم تحدث بعد ذلك عن بعض فضائل الصدقة وآثارها، من علو شأنها ورفعة منزلة صاحبها، ووقايتها للمتصدق من البلايا والكروب، وعظم أجرها ومضاعفة ثوابها، وإطفائها الخطايا وتكفيرها الذنوب، ومباركتها المال وزيادتها الرزق، وأنها وقاية من العذاب وسبيل لدخول الجنة.... وغير ذلك من الفضائل، واليوم يتابع ذكر فضائلها وآثارها. - البيان -

١١ - أن الجزاء عليها من جنس العمل:

من أنفق شيئاً لله عوضه الله من جنس نفقته ما هو خير له، فيُحسن إليه من نوع ما أحسن، ويُعطيه من مثل ما أعطى، جزاءاً وفاقاً، وقد دلت على ذلك أحاديث وآثار عديدة، منها: أن رجلاً جاء بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال له النبي ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[١]، وقوله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله له بكل عضو منها عضواً من النار حتى فَرْجه بفَرْجه»[٢]، وقوله ﷺ: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[٣] والستر هنا شامل لمعايب العبد وعورته[٤]، وقول أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: «أيُّمَا مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُري كساه الله من خضر الجنة، وأيُّمَا مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيُّمَا مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»[٥].

---

(١) مسلم: ٢/١٥٠٥ رقم: ١٨٩٢.

(٢) البخاري، فتح: ١١/٦٠٧ رقم: ٦٧١٥.

(٣) مسلم: ٣/٢٠٠٢ رقم: ٢٥٩٠.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٨/٢١٥.

(٥) سنن أبي داود: ٢/١٣٠ رقم: ١٦٨٢ مرفوعاً، وقد جعله ابن حجر الهيتمي في الزواجر: ١/٣١٨ - ٣٢٠ غير نازل عن رتبة الحسن، وضعف رفعه غير واحد، وهو الظاهر، وقال أبو حاتم كما في علل الحديث لولده: ٢/١٧١ رقم: ٢٠٠٧ (الصحيح موقوف، والحفاظ لا يرفعونه) وقال الترمذي في جامعه: ٤/٦٣٣ رقم: ٢٤٤٩ عن وقفه: (وهذا أصح عندنا وأشبه)، وانظر تعليق الأرناؤوط على المسند ١٧/١٦٧، ضعيف الجامع، للألباني: ٣٣٠ رقم: ٢٢٤٩، ولا يخفى أن مثله إذا ثبت موقوفاً فمرده إلى السماع لا الرأي.

ولا يقتصر الأمر على المجازاة على الصدقة بمثلها؛ بل الأمر يتجاوز ذلك إلى حال المتصدق عليه؛ إذ بمقدار إدخالها للسرور عليه، وإزالتها لشدائده، وتفريجها لمضايقه، وإصلاحها لحاله، ومعونتها له وسترها عليه؛ ينال المتصدق أجره من الله من جنس ذلك، يدل على ذلك قوله ﷺ: «من نفَّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا نفس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن يَسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1]، وقوله ﷺ: «من يلق أخاه المسلم بما يحب ليَسُرَّه بذلك، سرَّه الله يوم القيامة»[2].

وقد أخبر النبي ﷺ بوقوع ذلك فقال ﷺ: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»[3].

وقال ﷺ: «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط [4]، وكان يداين الناس فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما تعسر، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، قال: فلما هلك، قال الله: هل عملتَ خيراً قط؟ قال: لا؛ إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته ليتقاضى قلت له: خذ ما تيسر واترك ما تعسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، قال الله ـ تعالى ـ: قد تجاوزت عنك»[5].

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «أُتيَ اللهُ بعبد من عباده آتاه الله مالاً فقال له: ماذا عملتَ في الدنيا؟ قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] قال: ما عملتُ من شيء يا ربِّ إلا أنك آتيتني مالاً فكنت أبايع الناس، وكان من خُلُقي أن أيسر على الموسر وأُنظِر المعسر، قال الله ـ تعالى ـ: أنا أحق بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي». قال عقبة بن عامر الجهني وأبو مسعود الأنصاري: هكذا سمعنا من في رسول الله ﷺ[6].

فيا من يرى ضخامة ذنبه وعظم تقصيره في حق ربه اشترِ نفسك وأكثر صدقتك فداءاً لنفسك، وتفريجاً لكربتك، وإزالة لشدتك في قبرك وبين يدي ربك؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل «ومن بطَّأ به عملُه لم يسرع به نَسبُه»[7].

١٢ ـ إظلالها لصاحبها في المحشر:

في المحشر حر شديد يفوق الوصف؛ إذ يمكث العباد فيه مدة طويلة مقدارها خمسون ألف سنة لا يأكلون ولا يشربون، والشمس دانية من رؤوسهم ليس بينهم وبينها إلا مقدار ميل، فترتوي الأرض من عرقهم ويذهب فيها سبعين ذراعاً، ثم يرتفع فوقها؛ فيكون الناس في العرق على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يكون العرق إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيْه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً[8].

وهناك آخرون من ذوي الأعمال الجليلة والرتب الرفيعة لا يعانون من شيء من ذلك، ومن هؤلاء المتصدقون الذين أفادت النصوص بأنهم يكونون في المحشر في ظل صدقاتهم تحميهم من شدة الحر، وتدفع عنهم وهج الشمس[9]، ومنها قوله ﷺ: «كل امرئ في

---

(١) مسلم: ٣/٢٠٧٤ رقم: ٢٦٩٩.

(٢) المعجم الصغير، للطبراني: ٢/٢٨٨ رقم: ١١٧٨ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/١٩٣ (وإسناده حسن).

(٣) البخاري، فتح: ٤/٣٦١ رقم: ٢٠٧٨.

(٤) أي سوى الإسلام بما له من أركان لا يقوم بدونها كما أبان ذلك أبو حاتم. انظر: صحيح ابن حبان: ١١/٤٢٢.

(٥) المستدرك، للحاكم: ٢/٢٨ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، صحيح ابن حبان: ١١/٤٢٢ رقم: ٥٠٤٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/٤١٧ رقم: ٢٠٧٧.

(٦) المستدرك، للحاكم: ٢/٣٠٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/٨٥ رقم: ١٢٥. قوله: «من فِي رسول الله ﷺ»: أي: من فمه.

(٧) مسلم: ٣/٢٠٧٤ رقم: ٢٦٩٩.

(٨) انظر: مسلم: ٣/١٩٦ رقم: ٢٦٨٣، ٢٦٨٤.

(٩) انظر: فيض القدير، للمناوي: ٢/٣٦٣، سبل السلام، للصنعاني: ٢/١٤١.

ظل صدقته حتى يُفصل بين الناس»[1].

ولا يتوقف الأمر على ذلك، بل إن العبد متى فرَّج عن غريمه أو عفا عنه، ومتى أسرَّ بصدقته وأخفاها كان ذلك مؤهلاً له للاستظلال في ذلك الموقف العظيم تحت العرش، لقوله ﷺ: «من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة»[2]، وقوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله - تعالى - في ظله يوم لا ظل إلا ظله - وذكر منهم -: ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[3].

وقد أدرك السلف هذا الأمر واستوعبوه، فاعتنوا بالصدقة والإنفاق في مرضاة الله - تعالى - أيما عناية؛ ومواقفهم في ذلك أكثر من أن تحصر، ومن ذلك أن الفاروق عمر - رضي الله عنه - أرسل بأربعمائة دينار مع غلام إلى أبي عبيدة، وقال للغلام: تَلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه. ثم قال: تعاليْ يا جارية! اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان. حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، ووجده قد أعد مثلها لمعاذ، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل ثم تَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع. فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله ورحمه، تعاليْ يا جارية! اذهبي إلى فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا. فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: نحن والله مساكين فأعطنا. فلم يبق في الخرقة إلا ديناران فدفع بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فَسُرَّ بذلك، وقال: إنهم إخوةٌ بعضهم من بعض»[4].

وهذا مرثد المزني الفقيه الثبت كان لا يخطئه يوم لا يتصدق فيه بشيء، ولا يخرج إلى المسجد إلا وفي كُمِّه صدقة: إما فلوس، وإما خبز، وإما قمح حتى ربما شوهد ومعه في كُمِّه بصل، فيقال له: إن هذا ينتن ثيابك. فيقول: إني لم أجد في البيت شيئاً أتصدق به غيره، إنه حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ظل المؤمن يوم القيامة صدقته»[5].

وهذا شبيب بن شيبة يقول: «كنا بطريق مكة وبين أيدينا سفرة لنا نتغدى في يوم قائظ، فوقف علينا أعرابي ومعه جارية له زنجية، فقال: يا قوم! أفيكم أحد يقرأ كلام الله حتى يكتب لي كتاباً؟ قال: قلنا: أَصِبْ من غدائنا حتى نكتب لك ما تريد. قال: إني صائم. فعجبنا من صومه في تلك البرية، فلما فرغنا من غدائنا دعونا به، فقلنا: ما تريد؟ فقال: أيها الرجل! إن الدنيا قد كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، فإني أردت أن أعتق جاريتي هذه لوجه الله وليوم العقبة، أتدري ما يوم العقبة، قوله - عز وجل -: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١١، ١٢]، فاكتب ما أقول لك ولا تزيدن حرفاً: هذه فلانة خادم فلان قد أعتقها لوجه الله وليوم العقبة. قال شبيب: فأتيت بغداد فحدثت بهذا الحديث المهدي، فقال: مائة نسمة تُعتق على عُهدة الأعرابي»[6].

١٣ - توفيتها نقص الزكاة الواجبة:

أوجب الله الزكاة وجعلها أهم أركان الإسلام العملية بعد الصلاة، فقال - سبحانه -: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، كما عد عدم إخراجها من خصال المشركين فقال - تعالى -: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]،

(١) المسند، لأحمد: ٢٨/٥٦٨ رقم: ١٧٣٣٣، وصححه ابن خزيمة: ٤/٩٤ رقم: ٢٤٣١، وابن حبان: ٨/١٠٤ رقم: ٣٣١٠، والحاكم: ١/٤١٦.

(٢) المسند، لأحمد: ٥/٣٠٠، سنن الدارمي: ٢/٣٤٠ رقم: ٢٥٨٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/١١١٩ رقم: ٦٥٧٦.

(٣) البخاري، ٣/٣٤٤ رقم: ١٤٢٣.

(٤) الزهد، لابن المبارك: ١٧٨ رقم: ٥١١، المعجم الكبير، للطبراني: ٢٠ / ٣٣: ٤٦.

(٥) صحيح ابن خزيمة: ٤/٩٥.

(٦) شعب الإيمان للبيهقي: ٤/٦٩ رقم: ٤٣٤٤.

ورتب الوعيد الشديد على البخل بها وعدم إخراجها فقال: - عز وجل -: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]، وقال ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك «ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»[١].

ولا يتوقف الأمر على ذلك؛ إذ قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «ما مانع الزكاة بمسلم»[٢]، وذهب بعض أهل العلم - وإن كان خلاف الراجح - إلى كفر من لا يخرج الزكاة بخلاً بها أخذاً من قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١] وحيث رتب الله - تعالى - فيها ثبوت أخوة الدين على هذه الأوصاف مجتمعة؛ فإذا لم تجتمع انتفت الأخوة الدينية، وهي التي لا تنتفي بحال إلا بانتفاء الإيمان وخروج العبد من الإسلام[٣].

ونظراً لكون الزكاة بهذه المنزلة والأهمية، والعبد عرضة للتقصير في أدائها أو السهو في إخراجها أو الخطأ في حسابها فقد شرع الله - رحمة بخلقه وإحساناً إليهم - صدقة التطوع لتكون توفية لنقصها، وجبراناً لخللها، وإكمالاً للعجز الحاصل فيها؛ ويشير إلى ذلك حديث تميم الداري - رضي الله عنه - مرفوعاً قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة؛ فإن كان أكملها كتبت له كاملة، وإن كان لم يكملها قال الله - تبارك وتعالى - لملائكته: هل تجدون لعبدي تطوعاً تكملوا به ما ضيع من فريضته؟ ثم الزكاة مثل ذلك، ثم سائر الأعمال على حسب ذلك»[٤]، والذي يدل على أنه يُنظر في زكاة العبد فإن كملت كتبت له تامة، وإن ضيع شيئاً منها نظر هل له من الصدقة ما يتم به نقص الفرض، فإن لم يكن له منها ما يتم به نقص الفرض كان معرضاً للعقاب الشديد الذي أوضحته النصوص، وذلك إن لم يتغمده الله بعفو منه وتجاوز[٥].

١٤ - أنها كنز لصاحبها يوم القيامة:

توزن الأعمال يوم القيامة فيكون العبد أحوج ما يكون إلى عمل صالح يثقل به ميزانه ليكون ذلك سبب سعادته وفلاحه كما قال - تعالى -: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣] والصدقة من الأعمال الجليلة التي أخبر ﷺ بأن العبد يدخرها لغده، ويكتنزها لنفسه، ويجدها عند ربه إذا قدم إليه ووقف بين يديه وافرة محفوظة، يشهد لذلك قوله - تعالى -: ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله - سبحانه -: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

والنصوص النبوية الدالة على أن الصدقة ذخر لصاحبها وكنز له كثيرة منها: قوله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي!! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت

---

(١) البخاري، فتح: ٣/٣١٥ رقم: ١٤٠٣.

(٢) المصنف، لابن أبي شيبة: ٢/٣٥٣.

(٣) الفروع، لابن مفلح: ١/٢٩٦، الشرح الممتع، لابن عثيمين: ٦/٨، والذي بين - حفظه الله - أن هذا القول له وجه جيد في الاستدلال بهذه الآية، ثم أوضح بأنها مخصوصة فقال: (لكن دل حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الثابت في صحيح مسلم (١/٦٨٢ رقم: ٩٨٧) على أن الزكاة ليس حكمها حكم الصلاة - أي في الخروج من الإسلام بتركها تهاوناً وكسلاً - حيث ذكر النبي ﷺ مانع زكاة الذهب والفضة، وذكر عقوبته، ثم قال: « ثم يرى سبيله إلى الجنة وإما إلى النار» ولو كان كافراً لم يكن له سبيل إلى الجنة).

(٤) سنن أبي داود: ١/٥٤١ رقم: ٨٦٦، المستدرك، للحاكم: ١/٢٦٢ - ٢٦٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/٥٠٣ رقم: ٢٥٧٤.

(٥) انظر: شرح الموطأ، للزرقاني: ١/٥٠١، فيض القدير، للمناوي: ٣/٩٥، سبل السلام، للصنعاني: ٢/١٤١.

فافنيت، أو لبست فابليت، أو تصدقت فأمضيت؟!»[1]، وفي رواية: «إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»[2].

بل إنه ﷺ جعل الصدقة هي مال العبد الحقيقي فقال ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ قالوا: يا رسول الله! ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: اعلموا ما تقولون، قالوا: ما نعلم إلا ذاك يا رسول الله! قال: ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله. قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخّر»[3].

وقد حرص النبي ﷺ على غرس هذا الأمر وتقريره في نفوس صحابته؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ أمر أن تذبح شاة فيقسمها بين الجيران، قال: فذبحتها فقسمتها بين الجيران، ورفعت الذراع إلى النبي ﷺ وكان أحب الشاء إليه الذراع، فلما جاء النبي ﷺ قالت عائشة: ما بقي عندنا منها إلا الذراع. قال: كلها بقي إلا الذراع»[4].

وقد استوعب أصحاب رسول الله ﷺ ذلك، فزهدوا بالدنيا وأكثروا من الصدقة؛ فها هو ﷺ يأمر أصحابه يوماً أن يتصدقوا: يقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي؛ فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. وأتى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيتَ لأهلك؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله. قلتُ: لا أسابقك إلى شيء أبداً»[5].

وها هو عثمان ـ رضي الله عنه ـ: «يجهز جيش العسرة ويشتري بئر رومة وأرضاً بجوار المسجد ليوسع به من صلب ماله»[6]، وها هو طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ: «يتصدق يوماً بمائة ألف درهم، وأخرى بأربعمائة ألف، وباع أرضاً له بسبعمائة ألف، فبات أرقاً من مخافة المال حتى أصبح ففرقه»[7]، ومعاذ ـ رضي الله عنه ـ: «كان يعطي حتى ادّان ديناً أغلق ماله»[8].

وها هو عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ يسمع رسول الله ﷺ يحث على الصدقة، فيقول: «يا رسول الله! عندي أربعة آلاف: ألفان أقرضهما ربي، وألفان لعيالي»[9] ثم تصدق بعد ذلك بأربعين ألف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله»[10].

وها هو سعيد بن عامر الجمحي ـ رضي الله عنه ـ «بعث إليه عمر بألف دينار، وقال: استعن بها على أمرك. فقالت امرأته: الحمد الله الذي أغنانا عن خدمتك. فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟! ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها. قالت: نعم. فدعا رجلاً من أهل بيته يثق به فصررها صرراً ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان، وإلى يتيم آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مبتلى آل فلان. فبقيت منه ذهيبة فقال: أنفقي هذه. ثم عاد إلى عمله، فقالت: ألا تشتري لنا

(١) مسلم: ٦ /٢٢٧٣ رقم: ٢٩٥٨.
(٢) مسلم: ٦ / ٢٢٧٣ رقم: ٢٩٥٩.
(٣) البخاري، فتح: ١١/ ٢٦٥ رقم: ٦٤٤٢، صحيح ابن حبان: ٨/ ١٢٢ رقم: ٣٣٣ واللفظ له.
(٤) مختصر زوائد مسند البزار، لابن حجر: ١/ ٣٩٠، وحسنه الحافظ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ١٠٩ وقال: (رواه البزار، ورجاله ثقات).
(٥) سنن أبي داود: ٢/ ٣١٢ رقم: ١٦٧٨، وجامع الترمذي: ٥/ ٦١٤ رقم: ٣٦٧٥، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ١/ ٣١٥ رقم: ١٤٧٢.
(٦) جامع الترمذي: ٥/ ٦٢٧ رقم: ٣٧٠٣، وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٢٠٩ رقم: ٢٩٢١.
(٧) الحلية، لأبي نعيم: ١/ ٨٨.
(٨) الحلية، لأبي نعيم: ١/ ٢٣١.
(٩) مختصر زوائد البزار، لابن حجر: ٢/ ٨٥ رقم: ١٤٦٩.
(١٠) الحلية، لأبي نعيم: ١/ ٩٩.





خادماً؟! وما فعل ذلك المال؟ قال: سياتيك أحوج ما تكونين»[1].

وأخبارهم ـ رضي الله عنهم ـ في الزهد بالدنيا والادخار للآخرة أكثر من أن تحصى.

فكن كيِّساً يا عبد الله! وآثر آخرتك؛ فإنها أعظم من الأولى، وما عند الله خير وأبقى لك.

١٥ ـ جريان أجر الباقي منها بعد الموت:

حياة العبد دار امتحانه وموضع سعيه، وبموته ينقطع عمله ويتوقف كسبه؛ فلا ينقص من حسناته ولا يزاد إلا بأعمال محددة جلاها الشارع وأوضحتها النصوص[2]، ومن أجلِّ الأعمال التي تزيد الحسنات وأبرزها الصدقة الباقية بعد موت العبد سواء ما كان منها في سبيل نصرة الدين أو في تخفيف معاناة المعوزين أو غير ذلك من أبواب البر، والأدلة على ذلك عديدة منها: قوله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: ـ وذكر منها ـ صدقة جارية»[3]، وقوله ﷺ: «أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت ـ وذكر منهم ـ ورجل تصدق بصدقة فاجرها له ما جرت»[4].

وقد وردت أحاديث تُعدد أنواعاً من هذه الصدقة الجارية [5]، ومنها: قوله ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ـ وذكر من ذلك ـ: ومصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه بعد موته»[6]، وقوله ﷺ: «سبعة يجري للعبد أجرهن بعد موته وهو في قبره ـ وذكر منها ـ: أو كرى نهراً[7] أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورَّث مصحفاً»[8].

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه من آثار العبد وبقايا عمله التي أخبر ـ سبحانه ـ أنه يكتبها له؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ومعناه: أن الله يكتب أعمال العباد التي باشروها في حياتهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فيجزيهم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[9]، يقول سيد قطب: «كل ما قدمت أيديهم من عمل، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار، كلها

---

(١) الحلية، لأبي نعيم: ١/٢٤٦.

(٢) جمع السيوطي الأعمال التي تجري للعبد بعد الموت في قوله (كما في الديباج: ٤/٣٢٨):

إذا مات ابنُ آدمَ ليس يَجري ... عليه من فِعالٍ غيرُ عشرِ
علومٌ بثها، ودعاءُ نجلٍ ... وغرسُ نخلٍ والصدقاتُ تجري
وراثةُ مصحف، ورباطُ ثغرٍ ... وحفرُ البئر أو إجراءُ نهرِ
وبَيْتٌ للغريبِ بناه يأوي ... إليه، أو بناءُ محلِ ذكرِ

ثم أضاف:

وتعليمُ القرآن كريمٍ ... فخذه من أحاديثَ بحصرِ

(٣) مسلم: ٢/١٢٥٥ رقم: ١٦٣١.

(٤) المسند، لأحمد: ٥/٢٦١، المعجم الكبير، للطبراني: ٨/٢٠٥ رقم: ٧٨٣١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/٢١٢ رقم: ٨٧٧.

(٥) انظر: الترغيب والترهيب، للمنذري: ١/٩٧، فيض القدير، للمناوي: ٤/٨٤.

(٦) سنن ابن ماجه: ١/٨٨ رقم: ٢٤٢، وذكر في الزوائد تحسين ابن المنذر له، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/٤٤٣ رقم: ٢٢٣١.

(٧) أي حفره وأخرج طينه. انظر: لسان العرب: ٥/٣٨٦٧.

(٨) كشف الأستار، للهيثمي: ١/١٤٩، جامع المسانيد والسنن، لابن كثير: ٢٣/١٩٩ رقم: ٢٦٥٩، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/٦٧٤ رقم: ٣٦٠٢.

(٩) انظر: معالم التنزيل، للبغوي: ٧/٩، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦/٥٦٥.

تكتب وتحصى، فلا يند منها شيء ولا ينسى»[1]، ولأبي السعود كلام أجلى يقول فيه: «﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ التي أبقوها من الحسنات كعلم علّموه، أو كتاب ألّفوه، أو حبيس وقّفوه، أو بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر، ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان، وترتيب مبادئ الشر والفساد فيما بين العباد، وغير ذلك من فنون الشر التي أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين»[2].

فلو لم يكن في الصدقة من فضل إلا هذا لكان فيه كفاية لمن عقل وأراد النجاة. فيا من إذا مات انقطع عمله، وفاته أمله، وحق ندمه، وتوالى همه، احرص على ما ينفعك، وأكثر صدقتك التي يجري أجرها لك بعد موتك؛ فإن ذلك قرض منك لك مدخر عند ربك[3].

١٦ - مشروعية إهداء ثوابها للميت:

أوجب الله البر بالوالدين، وحث على صلة الأقربين، والإحسان إلى الآخرين. وإن من أعظم البر بعد البر، والصلة بعد الصلة، وأرفع الإحسان بعد الإحسان نفع من كان يُبَر في حياته ويوصل ويحسن إليه، إذا أُدخل في قبره، وتوقف كسبه، وبدأت آخرته، والسعي في إيصال الثواب إليه وهو أحوج ما يكون إلى ذلك بفعل بعض الطاعات والقُرَب التي أفاد الشارع بوصول ثوابها إلى الميت [4]، ويأتي في طليعة تلك الأعمال: الصدقة عليه، والتي أجمع العلماء على نفعها له ولحوق ثوابها به للنصوص الصحيحة الواردة في ذلك[5]، ومنها: حديث عائشة - رضي الله عنها -: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أمي افتُلِتَتْ نفسُها[6] ولم توص، وأظنها لو تكلَّمتْ تصدَّقَتْ. أفلها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال: نعم» [7].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ فقال: نعم»[8].

وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أن سعد ابن عبادة - رضي الله عنه - توفيت أمه وهو غائب عنها فقال: يا رسول الله! إن أمي توفيت وأنا غائب عنها؛ أينفعها شيء تصدقتُ به عنها؟ قال: نعم! قال: فإني أُشهدك أن حائطي المِخْرَاف[9] صدقة عليها»[10].

وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة، وأن عَمْراً سأل النبي ﷺ عن ذلك. فقال: أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصُمتَ وتصدَّقتَ عنه نفعه ذلك»[11]، قال

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٥/٢٩٦٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود: ٧/١٦١.

(٣) انظر: فيض القدير، للمناوي: ٢/١٦.

(٤) اختلف الناس في جواز إهداء ثواب القُرَب إلى الميت، على أقوال: فمنع المعتزلة من ذلك مطلقاً، وأجاز قوم ذلك مطلقاً، وفصل آخرون فأجازوا ذلك في بعض الأعمال دون بعض على خلاف، والراجح: جواز إهداء ثواب الطاعات التي دلت النصوص الصحيحة على وصول ثوابها إلى الميت كالصدقة عنه والدعاء له والحج عنه، أما ما لم يثبت فيه دليل صحيح فهو باق على المنع؛ لأن الأصل في العبادات التوقف.
انظر: المغني، لابن قدامة: ٣/٥١٩ - ٥٢٣ ، نيل الأوطار، للشوكاني: ٤/١٤٢ - ١٤٣ ، فتاوى اللجنة الدائمة: ٩/٤٣.

(٥) انظر حكاية الإجماع في: شرح مسلم للنووي: ٧/١٢٥، المغني، لابن قدامة: ٣/٥١٩، شرح الموطأ، للزرقاني: ٤/٧٢.

(٦) أي: ماتت فجأة، وانظر: فتح الباري: ٣/٣٠٠.

(٧) صحيح البخاري، فتح: ٣/٢٩٩ رقم: ١٣٨٨، مسلم: ١/٦٩٦ رقم: ١٠٠٤.

(٨) المسند، لأحمد: ١٤/٤٣٦ رقم: ٨٨٤١، مسلم: ٢/١٢٥٤ رقم: ١٦٣٠.

(٩) المخراف: البستان والمكان المثمر، انظر: فتح الباري: ٥/٤٥٤.

(١٠) المسند، لأحمد: ٥/٢٠١ رقم: ٣٠٨٠، البخاري، فتح: ٥/٤٥٣ رقم: ٢٧٥٩.

(١١) المسند، لأحمد: ١١/٣٠٧ رقم: ٦٧٠٤، السنن الكبرى، للبيهقي: ٦/٢٧٩ وحسن إسناده الأرناؤوط.

الشوكاني في شرحه له: «فأخبره أن موت أبيه على الكفر مانع من وصول نفع ذلك إليه، وأنه لو أقر بالتوحيد لأجزأ ذلك عنه ولحقه ثوابه»[1].

وليس ذلك مقصوراً على صدقة الولد عن والديه[2]، بل إنَّ تصدُّق الصاحب ينفع الميت؛ كما يدل عليه حديث واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فأتاه نفر من بني سليم، فقالوا: يا رسول الله! إن صاحباً لنا قد أوجب[3]، فقال رسول الله ﷺ: «أعتقوا عنه رقبة يعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار»[4].

وحين علم أصحاب رسول الله ﷺ بهذه الميزة العظيمة للصدقة ـ وهم من هم براً وفضلاً وإحساناً ـ بادروا إلى التصدق عن أمواتهم، ومن ذلك: أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ تصدق عن والدته بعتق عشر رقاب[5]، وأعتقت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن أخ لها مات في منامه تلاداً من تلاده[6].

فيا صاحب الخلق الجميل، ويا من لا تنسى بر من برك، ومعروف من أحسن إليك! رد برهم ببر أعظم، وفضلهم بفضل أجلَّ، وهم في دار الحسرة أشد ما يكونون اضطراراً إلى تفضلك ومعروفك؛ فإن الأيام دول وكما تدين تدان، فكما تبر والديك وتحسن إلى ذويك وأهل الفضل عليك يبرك أولادك ويحسن إليك ذووك ومن تفضلت عليهم في دنياك.

١٧ ـ سترها عيوب العبد واستجلابها محبة الناس وحمدهم ودعاءهم له:

الصدقة والبر وصنائع الخير حارسة لعرض صاحبها، غافرة لزلته، ساترة لعيوبه، متجاوزة عن هفواته، وفي المقابل فلؤم العبد وشحه من دواعي هتك عرضه، وتتبع زلاته، وكشف عيوبه، وإظهار هفواته، قال الشاعر:

ويُظهرُ عيبَ المرءِ في الناس بخلُه
ويَستُرُه عنهم جميعاً سخاؤه

تَغطَّ بأثوابِ السخاءِ فإنني
أرى كلَّ عيبٍ والسخاءُ غطاؤه

وهي من أسباب القُرْب من العباد ونيل مودتهم ودعائهم وتعظيمهم، والحصول على شكرهم وثنائهم؛ فصاحبها محمود الأثر في الدنيا يحبه البعيد والداني، ويألفه المتسخط والراضي؛ لأن صاحبها بعمله ذلك يرتهن الشكر، ويسلف المعروف ليربح المحبة والدعاء والحمد.

ولا يقتصر نيل المتصدق للمحبة والشكر والدعاء من المتصدَّق عليهم فقط، بل إنه ليود المتصدق ويحمده ويدعو له من لا ينال الصدقة ولا تقدم إليه، قال أبو الفتح البستي:

أحْسِن إلى الناسِ تَستعبدْ قلوبَهمُ
فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

مَن جادَ بالمال مالَ الناسُ قاطبةً
إليه، والمالُ للإنسانِ فتَّانُ

أحْسِن إذا كان إمكانٌ ومقدرةٌ
فلن يدومَ على الإنسانِ إمكانُ

وعلى الضد من ذلك فالبخيل ليس له خليل، وهو بشحه يستجلب السخط، ويستدعي الذم والبغض؛ فاللائق بالعاقل إذا أمكنه الله ـ تعالى ـ من حطام هذه الدنيا، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدم من الأعمال الصالحة، أن

---

(١) نيل الأوطار، للشوكاني: ٤/١٤١.

(٢) كما ذهب إلى ذلك جماعة من أهل العلم منهم: الشوكاني في نيل الأوطار: ٤/١٤٢، وانظر: الفتح: ٥/٣٩٠.

(٣) أي: استحق النار بالقتل إن لم يتغمده الله برحمة منه. انظر: سنن أبي داود: ٤/٢٧١ رقم: ٣٩٦٤.

(٤) المستدرك، للحاكم: ٢/٢١٢، صحيح ابن حبان: ١٠/١٤٥ رقم: ٤٣٠٧، وقال الأرناؤوط: (إسناده صحيح).

(٥) المصنف، لعبد الرزاق: ٩/٦٠ رقم: ١٦٣٤٢.

(٦) السنن الكبرى للبيهقي: ٦/٢٧٩، وقال: (تلاداً من تلاده، يعني: مماليك قدماء، والتلاد كل مال قَدُم).

يكثر من الصدقات، وأعمال البر، وصنائع المعروف، مبتغياً بذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا؛ إذ السخاء محبة ومحمدة، وسبب لنيل الدعوة بالخير، والبخل مذمة، ومبغضة، وسبب لنيل الدعوة بالشر، ولا خير في مال بدون وجود إحسان، كما لا خير في النطق بدون فعال. قال الشاعر:

الجودُ مكرمةٌ، والبخلُ مبغضةٌ
لا يستوي البخلُ عندَ اللهِ والجودُ (١)

فيا من تريد المرتبة العالية في الآخرة، والمنزلة الجليلة في الدنيا الزم الصدقة والجود، وأكثر من الإحسان وأعمال البر، وتجنب الشح؛ فإنك قادم على ربك وحالك كما وصف الشاعر:

وما تزودَ مما كان يَجمَعه
إلا حنوطاً - غداةَ البين - معْ خِرَقِ
وغيرَ نفحةِ أعوادٍ تُشدُّ به
وقلَّ ذلك من زاد لمنطلقِ (٢)

١٨ - أنها طريق للظفر بمحبة الله ورحمته ورضاه:

في الصدقة إحسان ورحمة، وتفضل وشفقة، ولذا كانت من وسائل نيل محبة رب العالمين، والحصول على رحمته، والظفر برضوانه؛ لأنه - سبحانه - يحب المحسنين ويرحم الراحمين، وقد دلت نصوص القرآن والسنة على ذلك، فمما دل منها على أن التصدق والإنفاق في مرضاة الله من دواعي حبه - عز وجل - للعبد قوله - تعالى -: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال السعدي: «وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان بالمال»(٣).

كما أتت أحاديث عديدة تبين أن الله يحب المتصدقين وذوي البر والإحسان وصانعي المعروف، منها قوله ﷺ: «أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله» (٤)، وقوله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم»(٥)، ومنها: حديث أبي ذر - رضي الله عنه - مرفوعاً: «ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله، أما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه، فتخلف رجل أعقابهم، فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه ...»(٦).

كما جاءت أحاديث تبين أن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء بخلقه، المشفقين على عباده - وهي صفة المتصدق - ومنها: قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»(٧)، وقوله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل»(٨).

ومن النصوص الدالة على أن الصدقة دافعة لغضب الله وسخطه، جالبة لرضوانه قوله ﷺ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»(٩)، وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الذي تضمن قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وفيه قول الملك للأعمى لما بذل المال محتسباً الثواب من الله وأمسكه صاحباه شحاً به وبخلاً: «أمسك مالك؛ فإنما

---

(١) انظر: روضة العقلاء، لابن حبان: ١٩٣، الصدقات، للضبيعي: ١٢.

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان: ١٩٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ٧٢.

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن مرسلاً كما في كشف الخفاء، للعجلوني: ١/٥٤ رقم: ١٢٨، وهو حسن لغيره، انظر: صحيح الجامع، للألباني: ١/٩٦ رقم: ١٧٢.

(٥) قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا: ٤٠ رقم: ٣٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/٩٧ رقم: ١٧٦.

(٦) المستدرك، للحاكم: ١/٤١٦ وقال: (صحيح على شرطهما)، صحيح ابن خزيمة: ٤/١٠٤ رقم: ٢٤٥٦، صحيح ابن حبان: ٨/١٣٦ رقم: ٣٣٤٩ وصححه الأرناؤوط.

(٧) المسند، لأحمد: ١١/٣٣ رقم: ٦٤٩٤ وقال المحقق: (صحيح لغيره)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/٦٦١ رقم: ٣٥٢٢.

(٨) البخاري، فتح: ١٣/٣٧٠ رقم: ٧٣٧٦، مسلم: ٢/١٨٠٩ رقم: ٢٣١٩ واللفظ له.

(٩) المعجم الصغير، للطبراني: ٢/٢٠٥ رقم: ١٠٣٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/٧٠٢ رقم: ٣٧٥٩.

ابتليتم؛ فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[1].

فيا طامعاً في محبة الله ورضوانه، ويا راجياً رحمته وإحسانه.. عليك بالصدقة؛ فإنها نِعْمَ الوسيلة لتحقيق غايتك والوصول إلى بغيتك.

١٩ ـ أن فيها انتصاراً للعبد على شيطانه:

حذر الله عباده من الشيطان، وأوضح لهم عداوته لهم، وتوعده إياهم بإغوائهم وتزيين الباطل لهم، وعمله ـ بما يستطيع ـ على إضلالهم وزجِّهم في دوامة الشهوات والشبهات، لكي يكونوا له طائعين، ولخطواته متبعين، وعن الخير متخاذلين، وعن رضوان ربهم متباعدين فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال ـ سبحانه ـ حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقال ـ عز وجل ـ فيه: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وفي باب الصدقة فإن الشياطين تتكالب على العبد، داعية له إلى البخل، حاثة له على الشح، ناهية له عن الجود والبذل، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فإن هو تصدق فقد غلبهم وانتصر عليهم، يدل لذلك قوله ﷺ: «ما يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنه لَحْيَيْ[2] سبعين شيطاناً»[3]، يقول المناوي معللاً ذلك: «لأن الصدقة على وجهها إنما يُقصد بها ابتغاء مرضاة الله، والشياطين بصدد منع الإنسان من نيل هذه الدرجة العظيمة، فلا يزالون يدأبون في صده عن ذلك، والنفس لهم على الإنسان ظهيرة؛ لأن المال شقيق الروح فإذا بذله في سبيل الله فإنما يكون برغمهم جميعاً، ولهذا كان ذلك أقوى دليلاً على استقامته وصدق نيته ونصوح طويته»[4].

فهل بعد هذه الرتبة من رتبة، والفضل من فضل؟ فيا من يريد إرضاء ربه، والانتصار على أعدائه، وجعل شياطينه تعيش حسرة وندامة، عليك بالصدقة والإنفاق في طاعة ربك ومرضاته!

٢٠ ـ سعة صدر صاحبها وانشراحه:

الصدقة ونفع الخلق والإحسان إليهم من أسباب انشراح الصدر وسعة البال وتحصيل السعادة؛ ومردُّ ذلك إلى شعور المتصدق بطاعة الله ـ تعالى ـ وامتثال أمره، والتحرر من عبودية المال وتقديسه، والقيام بمساعدة الآخرين، وإدخال السرور عليهم، والسير في طريق أهل الجود والإحسان، والتعرض لنفحات الرب ورحمته وإحسانه.

وعلى الضد من ذلك يكون حال البخيل؛ فإن هو همَّ يوماً بالصدقة ضاق صدره، وانقبضت يده، خوفاً من نقص المال الذي صَيَّر جمعه غايته، يقول ابن القيم: «فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً، وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم هماً وغماً»[5]، ويقول ابن عثيمين: «فالإنسان إذا بذل الشيء ـ ولا سيما المال ـ يجد في نفسه انشراحاً، وهذا شيء مجرب،... لكن لا يستفيد منه إلا الذي يعطي بسخاء وطيب نفس،

(١) مسلم: ٣/٢٢٧٦ رقم: ٢٩٦٤.

(٢) هما عظما الحنك اللذان عليهما الأسنان. انظر: تاج العروس للزبيدي: ٢٠/١٤٥.

(٣) المسند، لأحمد: ٥/٣٥٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/١٠٩(رجاله ثقات)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/١٠١٢ رقم: ٥٨١٤.

(٤) فيض القدير، للمناوي: ٥/٥٠٤.

(٥) زاد المعاد، لابن القيم: ٢/٢٥ ـ ٢٦.

ويخرج المال من قلبه قبل أن يخرجه من يده، أما من أخرج المال من يده، لكنه في قرارة قلبه فلن ينتفع بهذا المال»[1] لأنه قد يخرجه خجلاً من الناس أو مجاراة لهم بدون استحضار نية.

وقد ضرب النبي ﷺ لانشراح صدر المتصدق وانفساح قلبه، وضيق صدر البخيل وانحصار قلبه مثلاً[2]، فقال: «مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما، فكلما همَّ المتصدق بصدقته اتسعت عليه حتى تعفي أثره، وكلما همَّ البخيل بالصدقة انقبضت كل حلقة إلى صاحبتها وتقلصت عليه وانضمت يداه إلى ترقوته، فيجتهد أن يوسعها فلا تتسع»[3]، قال الخطابي في شرحه: «هذا مثل ضربه رسول الله ﷺ للجواد المنفق، والبخيل الممسك، وشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعاً يستجنُّ بها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يلبس إنما يقع على موضع الصدر والثديين إلى أن يسلك لابسها يديه في كميها، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمر سافلاً، فجعل ﷺ مثل المنفق مثل من لبس درعاً سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه، وجعل البخيل كرجل كانت يداه مغلولتين إلى عنقه، ناتئتين دون صدره، فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينهما وبين أن تمر سفلاً على البدن، واجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته، فكانت ثقلاً ووبالاً عليه من غير وقاية وتحصين لبدنه، وحقيقة المعنى: أن الجواد إذا همَّ بالنفقة اتسع لذلك صدره، وطاوعته يداه فامتدتا بالعطاء والبذل، وأن البخيل يضيق صدره، وتنقبض يده عن الإنفاق في المعروف والصدقة»[4].

والأمر - كما هو متضح - مرتبط بالممارسة؛ فيا من تريد شرح الصدر وسعة البال والولوج من بوابة السعادة جَرِّب تَجِدْ.

٢١ - نفعها المتعدي:

لا يقتصر نفع الصدقة على صاحبها بل يتجاوزه إلى غيره من الأفراد، ويتخطى الأفراد إلى المجتمعات، في كثير من جوانب الحياة، ولعل من أبرز منافعها المتعدية ما يلي:

- إسهامها في علاج مشكلة الفقر؛ إذ تدفع حاجة المعوزين فتسد جوعهم، وتستر عوراتهم، وتقضي ديونهم وحاجاتهم، وتفرج كربهم، وتنفس مضايقهم، وتحسن معايشهم، وتدخل السرور على قلوبهم... إلى آخر ذلك من الأعمال التي حث الشارع عليها، ورغبت النصوص والآثار فيها، ومن ذلك قوله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله - عز وجل - سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً»[5]، وقوله ﷺ: «يا عائشة! استتري من النار ولو بشق تمرة؛ فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»[6]، وقول علي - رضي الله عنه -: «من آتاه الله منكم مالاً فليصل به القرابة، وليحسن فيه الضيافة، وليفك به العاني الأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين، وليصبر فيه على النائبة؛ فإن بهذه الخصال ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة»[7].

- ما فيها من إشاعة التكافل الاجتماعي، وعميق الأخوة، ونشر المودة، وبث الرحمة بين أفراد المجتمع

---

(١) الشرح الممتع، لابن عثيمين: ٦ / ١٠ - ١١.
(٢) انظر: زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٢٦.
(٣) البخاري، فتح: ٦ / ١١٦ رقم: ٢٩١٧ واللفظ له، مسلم: ١/ ٧٠٨ رقم: ١٠٢١.
(٤) أعلام الحديث، للخطابي: ١/ ٧٦٩ - ٧٧٠ وانظر: فتح الباري، لابن حجر: ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠، فيض القدير، للمناوي: ٥/ ٥٠٦.
(٥) قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا: ٤٠ رقم: ٣٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٩٧ رقم: ١٧٦.
(٦) المسند، لأحمد: ٦/ ٧٩، وحسنه المنذري والألباني. انظر: صحيح الترغيب والترهيب: ١/ ٣٦٢.
(٧) روضة العقلاء، لابن حبان: ١٩٤.

المسلم؛ بحيث تجعله كأسرة واحدة متراصة يرحم فيه القوي الضعيف، ويحسن فيه القادر إلى العاجز، والغنى إلى الفقير؛ فتنكسر بذلك سَوْرة الحسد، وتخف حدة الحقد التي قد توجد لدى بعض المعوزين؛ لأنهم يرون مساعدة إخوانهم الأغنياء لهم، ويشعرون بوقوفهم إلى جانبهم في أوقات الأزمات والمحن فيألفونهم ويحبونهم[1].

● من دوافع الجريمة الرئيسة شدة الفقر؛ لأنه يحمل المرء تحت ضغط الحاجة على فعل المعايب وارتكاب المحظور، بل قد يؤدي ببعضهم إلى التسخط والاعتراض على الله ـ تعالى ـ وعدم الرضاء بقضائه، ولذا صح من جهة المعنى حديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[2].

والصدقة وأعمال البر تقلل من أثر هذا الدافع جداً، فتسهم بذلك في إصلاح المجتمع ووقاية أفراده من التورط في اقتراف الجريمة ـ وبخاصة المالي منها ـ لأن الفقير حين يأتيه ما يسد حاجته، ويفك كربته يرى أن الغني الذي أعطاه من ماله محسناً إليه فلا يعتدي على شيء من ممتلكاته، فينتشر بذلك الأمن ويعم الاطمئنان.

وفي المقابل فإن إمساك المال والشح به بوابة المهالك كما جاء في الحديث: «واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[3]، وفي رواية: «أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[4] قال المناوي معللاً ذلك: «وإنما كان الشح سبب ما ذكر؛ لأن في بذل المال والمواساة تحابباً وتواصلاً، وفي الإمساك تهاجر وتقاطع، وذلك يجر إلى تشاجر وتغادر من سفك الدماء واستباحة المحارم»[5].

ولا يقتصر أثر الصدقة على ذلك؛ إذ إنها تصلح أخلاق الفرد، وتمنعه من الوقوع فيما لا يحمد؛ لأن العبد متى اشتد فقره، وكثر دَيْنُه: حدث فكذب، ووعد فأخلف[6]، وحين تأتيه الصدقة تكون حجاباً بينه وبين الوقوع في ذلك.

● ما فيها من نصر الحق وتقويته؛ إذ لها تأثير ظاهر في نشر الدين وقيام الكثير من المناشط الدعوية والعلمية، والأعمال التي يقارع بها الشر، ويذاد بها عن حياض الدين، والواقع خير شاهد؛ إذ يجد المتأمل أن جل العمل الدعوي والخيري في أرجاء الأرض يقوم على الصدقة وصنائع المعروف؛ بحيث لو توقفت لكان ذلك سبباً في حرمان الأمة بل والبشرية من كثير من صنوف الخير.

وبهذا تتجلى أهمية الدور الذي يقوم به المتصدقون في الدعوة إلى الله، وإشاعة الخير ودحض الشر، بل إن لأصحاب الأموال ـ كما يظهر ـ أجر الأعمال التي تقوم على صدقاتهم من غير أن ينقص ذلك من أجر مباشريها والقائمين عليها شيئاً.

---

(١) انظر: الشرح الممتع، لابن عثيمين: ٦/١١ ـ ١٢ ، الصدقات، للضبيعي: ١٤.

(٢) جزء من حديث ضعيف رواه البيهقي في الشعب: ٦/٢٦٧ رقم: ٦٦١٢، انظر: ضعيف الجامع، للألباني: ٦٠٥ رقم: ٤١٤٨.

(٣) مسلم: ٣/١٩٩٦ رقم: ٢٥٧٨.

(٤) تفسير النسائي: ٢/٤٠٩ رقم: ٦٠٣، وصححه المحقق.

(٥) فيض القدير، للمناوي: ١/١٣٥.

(٦) انظر: البخاري، فتح: ٥/٧٤ رقم: ٢٣٢٧.

بعض ما ينسب إلى السلف يؤدي للإحباط!!

سليمان بن سعد بن خضير

يزخر ملف السلف[1] بأخبار قولية وعملية في غاية الجمال، وبالغ التأثير، ولقد ملأ طيب ذكرهم المشارق والمغارب؛ إذ أوتوا مواهب فذة، وفتوحات ربانية مدهشة، وقد نمت فيهم فضائل وربت، وعاشوا متقلبين في العلم والعبادة والجهاد وطلب العيش بإقبال على الله بين زهد ومراقبة وجد. كان يجري عليهم ما يجري على غيرهم: من مرض وضعف وفقر، فلا ينزعون مما هم فيه.. تسابقوا (في الله) مخلصين دائبين، فرادى وزرافات؛ للمحافظة على صرح الإسلام سامقَ البناء، وطيدَ الدعامة، مكينَ الأساس، مشرقَ المعالم. كانوا أبرَّ الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً[2].

وقد نُقل لنا شيء من أخبارهم في كتب التراجم والسير العامة وفي أثناء كتب الرقائق، والشيء الذي لا ينكر أن لمنقول أقوالهم وأفعالهم أثراً عجيباً في تصحيح الفهم، وتهذيب السلوك، ورِقَّة القلب، وإشعال العزائم، وإذكاء الهمم، وقدح المواهب كل ذلك بلا أمر أو نهي.

وقد دأب الدعاة على أن يجعلوا لذكر أخبار السلف من أقوالهم وأفعالهم نصيباً من دعوتهم وتأصيلهم: في الكتابة والخطابة والحوار وبخاصة في مواسم الطاعات التي تتطلب ـ عادة ـ قدراً من الإعداد للتذكير والموعظة!! وربما أفضى بهم ذلك إلى ذكر نماذج مثالية تبهر المستهدَفين من القراء والمستمعين، وتوقفهم على البون الشاسع بينهم وبين السلف، وتقنعهم بضرورة الجد في أخذ الدين! وربما دفعتنا ـ وإياهم ـ الحماسة لذكر أخبار ليست على المنهج الشرعي الصحيح مما مسته يد التصوف أو غلب عليها عدم الاتزان في أعمال القلوب كالخوف والمحبة والرجاء.

غير أن لهذه الأخبار المثالية والغريبة ـ ولو كان لها حظ من الشرعية ـ آثاراً سلبية في المدعوين من حيث نظن أنها ستعمل فيهم أبلغ مما هو دونها من الأخبار؛ فعندما نورد قصة من يقوم الليل كله كالحسن بن صالح[3]، أو من يختم القرآن في ليلة كعثمان بن عفان رضي الله عنه[4]، أو من تتعرض

---

(١) الأصل في إطلاق السلف أنه خاص بالقرون الثلاثة المفضلة، ولكني توسعت في هذه المقالة في مفهوم هذا المصطلح ليشمل قروناً بعدهم ممن اتبعهم بإحسان.

(٢) «كانوا أبر الأمة قلوباً...»، من قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في وصف الصحابة، رواه عنه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: (٢/٩٤٧) برقم: ١٨١٠، وأوله: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ؛ فقد كانوا أبر...»، وانظر رسالة الحافظ ابن رجب: فضل علم السلف على علم الخلف.

(٣) حلية الأولياء: (٧/٣٢٨).

(٤) انظر نحوه مع تقسيم وتفصيل في لطائف المعارف: (٣١٨، ٣١٩).



له امرأة لإغرائه فيقف ويعظها، وما هي إلا أن سمعت كلامه حتى تحولت إلى عابدة متنسكة، كما يروى عن الربيع بن خثيم[1] رحمه الله، أو من يواصل الصيام من الجمعة إلى الجمعة كعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما[2]، أو لا يشعر بمن حوله إذا دخل في الصلاة كمسلم بن يسار رحمهما الله[3]، أو من يُغشى عليه لسماع آيٍ من القرآن كحال علي بن الفضيل رحمهما الله[4]، أو يضحك لموت ابنه رضىً بقضاء الله كما فعل الفضيل بن عياض رحمه الله[5]، أو يحضر مجالس وعظه وتذكيره الألوف من الناس كما يذكر في ترجمة ابن الجوزي[6]، ونحوها من الأخبار.

عندما نورد هذه الأخبار ـ وهي بهذه الدرجة من المثالية ـ على قوم يعدُّون المحافظة على الصلاة ضرباً من الإنجاز؛ فمن السذاجة أن نتصور أنها ستنقلهم ١٨٠ درجة إيجابية أو قريباً منها، بل إن هذه الأخبار وأمثالها ـ مع ما لبعضها من صحة في الرواية وموافقة للشرع ـ قد تورث الإحباط واليأس في نفوس بعض المدعوين؛ لأن فيهم من يشعر أننا قدمناها على أنها هي الأنموذج الذي نتطلع إليه، والغايات التي نصبو إليها؛ والغايات إذا لم تكن قريبة المنال فستكون مستصعبة التنفيذ؛ و (إذا أردت أن تطاع فائمر بما يستطاع)، كما أنها ـ بحكم الإيغال في الغرابة ـ تشغل المخاطبين بالتفكير في صحتها وإمكان وقوعها بدلاً من أن يشتغلوا بالتفكر فيها هي والتطلع لحال أهلها، وربما جرّهم ذلك إلى الدخول في نقاشات مع الدعاة في مدى صحة تلك الأخبار تنقلهم عن الموضوع الأساس! ويزداد الأمر سوءاً إذا كان ناقل تلك الأخبار من مبتدئي الدعاة.

لذا فإنه ينبغي ألاَّ تشاع في العامة ومن قاربهم على أنها أخبار طبيعية متكررة أو غايات نهدف إليها، وذلك لأمور منها:

١ - ما تقدم من الإشارة إلى الآثار النفسية التي تعود بالسلب على المخاطبين، والشرع الحنيف يراعي هذه المفسدة: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما أنت بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[7]، وبوَّب البخاري في كتاب العلم: باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألاَّ يفهموا[8].

قال ابن القيم في نحو ما نحن بصدده: «فلا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم؛ إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقي السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم، ولو برز لهم هديهم وحالهم أنكروه، فهؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم...»[9].

وكان الحسن البصري يخص بعض طلبته بالحديث في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن التي قد تلتبس على غيرهم ولا تدركها فهومهم، فكان لا يتكلم فيها إلا في منزله معهم[10].

---

(١) حلية الأولياء: (٢/١١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء: (٣/٣٧٠).
(٣) طبقات ابن سعد: (٧/١٨٦)، حلية الأولياء: (٢/٢٩٠).
(٤) حلية الأولياء: (٨/٢٩٧)، سير أعلام النبلاء: (٨/٤٤٢).
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (١٠/٤٧).
(٦) سير أعلام النبلاء: (٢١/٣٧٠).
(٧) رواه مسلم في صحيحه، انظر شرح النووي عليه: (١/٧٦)، ونحوه عن عروة بن الزبير في سير أعلام النبلاء: (٤/٤٣٧).
(٨) فتح الباري: (١/٢٧٢)، وساق البخاري أحاديث تناسب هذا المقام تركتها اختصاراً. وانظر: سير أعلام النبلاء: (٢/٥٩٧)، (١٠/٦٠٣، ٦٠٤) وهو مهم.
(٩) مدارج السالكين: (١/١٥٩)، ومفهوم عبارته: فلا بد من مخاطبة أهل الزمان بمستوى فهمهم وإدراكهم.
(١٠) ذكره ابن الأعرابي في طبقات النساك وعنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: (٤/٥٧٩).

٢ - أن هناك فرقاً بين أسلوب ما روي من أحاديث عن النبي ﷺ في الاجتهاد في الطاعة، وبين ما روي عن غيره، فغيره جاءت عنده محددة متكلفة: (يصلي ١٠٠٠ ركعة)، (يصلي الفجر بوضوء العشاء)، أما هو - عليه الصلاة والسلام - فهناك أحاديث تتناسب مع فهوم الناس ومنها أنه «كان يصلي من الليل حتى تتفطر قدماه»[١]؛ فهذا وصف قد ينطبق على كثيرين ولو لم يبلغوا صلاة النبي ﷺ؛ فالمبتدئ تتفطر قدماه في عُشر صلاة النبي ﷺ، والجَلْدُ يحتمل ما لا يحتمل مَنْ دونه وهكذا. كما أنه ﷺ كان يقوم ويرقد[٢]، وربما يعجز عن القيام ليلة لعارض من سفر أو مرض فيستعيض من الضحى[٣]، وما أثر عنه أنه ﷺ صلى الفجر بوضوء العشاء!!

هذا ونعتقد أن ما ورد عنه ﷺ قد جاءنا متكاملاً لم يطغَ منه جانب على جانب، ولم يعارض حال حالاً؛ بل جاء في تناسق جميل، وتوازن تام؛ فأين ما روي عن غيره مما روي عنه ﷺ؟! وما روي عنه ﷺ محدداً بمقدار كثير نحو: «أنه صلى مرة فقرأ في ركعة بالبقرة والنساء وآل عمران»[٤] وأمثالها فإنما هي في مواسم عبادية خاصة كرمضان، وقد قالت أمّنا عائشة - رضي الله عنها -: «ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح»[٥].

٣ - أن بعض الأخبار التي تروى عن بعضهم إنما صدرت في حال[٦] عارضة، ولا يمكن - والأمر كذلك - أن توصف حياتهم كلها بأنها كانت على هذه الحال، ولا يمكن أن يطالب الناس بأن يكونوا على حال لم يكن المذكور بها على الدوام! كمن يغلب عليه الخوف فيبدر منه قول أو فعل، كما كان ابن عمر - رضي الله عنه - إذا شرب ماءً بارداً بكى وذكر أمنية أهل النار[٧]؛ فلم يكن ذلك مطرداً في كل مرة يشرب الماء؛ إذ لو كان كذلك لتلفت نفسه ولتنغص عيشه، ونحوه قول حنظلة لأبي بكر: نافق حنظلة!.. الحديث وفيه قال النبي ﷺ: «لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم...»[٨] قال الحافظ ابن رجب في أحوال الناس بعد سماع الذكر ما ملخصه: قسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر: من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ وخشوا - لكمال معرفتهم، وشدة خوفهم - أن يكون نفاقاً؛ فإن

---

(١) الحديث رواه البخاري في التفسير، سورة الفتح: ح (٤٥٥٧)، وانظر البخاري في التهجد: ح (١٠٧٨)، ومسلم في صفات المنافقين: باب إكثار الأعمال، ح (٢٨١٩).

(٢) الحديث رواه البخاري في أول النكاح: (١٩٤٩/٥)،.ح (٤٧٧٦)، ومسلم في النكاح: باب استحباب النكاح، ح (١٤٠١).

(٣) الحديث رواه مسلم في المسافرين: باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٢٧/٦ نووي).

(٤) أصل الحديث رواه مسلم في المسافرين: باب استحباب تطويل القراءة (٦١/٦ نووي). وورد بتقييده برمضان في المسند: (٤٠٠/٥) وسنن النسائي: (٢٢٤/٢).

(٥) جزء من حديث رواه مسلم في المسافرين: باب صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض (٢٧/٦نووي) تقدم طرف منه قريباً.

(٦) انظر مجموع الفتاوى: (١٠/٥ فما بعدها)، ومدارج السالكين: (١٥٤/١ - ١٦٠) فهو مهم، والتعريفات للجرجاني: (١١٠، ٢٨٩)، كشف المحجوب للهجويري: (٦١٥، ٤٠٩) الرسالة للقشيري: (٣٢).

(٧) لطائف المعارف: (٥٥٧).

(٨) رواه مسلم في التوبة: باب فضل دوام الذكر (٢٧٥٠)، والترمذي في القيامة: باب (٥٩)، ح (٢٥١٤).

استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جداً، ولا يقدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحياناً، وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك، بل يلوم نفسه عليه ويحزنه ذلك من نفسه[1].

٤ - أن من هذه الأخبار المثالية ما دُوِّن لغرابته؛ فإن النفوس تحفل بالغريب من الأحداث والأحاديث، وبحكم الغرابة برزت في حياة المترجَم له، وإذا كانت غريبة على أهل ذلك الوقت الذي ذكرت فيه ودونت - وهم من هم - فكيف بمن بعدهم بزمن ومراحل؟!

٥ - كما أن هناك أخباراً لا يُسَلَّم بمشروعيتها، وهي مما حدث بعد الصدر الأول أفضل القرون، نحو التأثر بالقرآن لدرجة الإغماء والصعق - وهي مما قد يعذر صاحبها فيها؛ لما تقدم من غلبة بعض الأحوال - لكن لا يمكن (بحال) أن تقدم على أنها النموذج الشرعي المرغوب أو الممدوح. قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيمن يحصل لهم آثار من سماع القرآن كالاضطراب والإغماء: «أما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك؛ فإن السبب إذا لم يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً، لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله، فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين... ولو أثر فيهم آثاراً محمودة لم يجذبهم عن حد العقل لكانوا - كمن أخرجهم إلى حد الغلبة - محمودين أيضاً ومعذورين»[2].

وقال في موضع آخر: «وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله وعظمته وجماله أموراً عظيمة تصادف قلوباً رقيقة فتحدث غشياً وإغماءاً، ومنها ما يوجب الموت، ومنها ما يخل العقل، وإن كان الكاملون منهم لا يعتريهم هذا كما لا يعتري الناقصين عنهم، لكن يعتريهم عند قوة الوارد على قلوبهم، وضعف المحل المورود عليه؛ فمن اغتر بما يقولونه أو يفعلونه في تلك الحال كان ضالاً مضلاً»[3].

كما أن بعضاً من تلك الأخبار فيه تبتل ورهبانية ظاهرين. قال الذهبي: «كل من لم يزمَّ نفسه[*] في تعبده وأوراده بالسنة النبوية يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلماً للأمة أفضل الأعمال، وآمراً بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي. فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضول مغرور»[4].

وقال: «الطريقة المثلى هي المحمدية، وهو الأخذ من الطيبات وتناول الشهوات المباحة من غير

---

(١) انظر لطائف المعارف: (٤٨ - ٥١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٥٩٠) وأول كلامه كان عن السماع المشروع؛ حيث يقول - رحمه الله -: «وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية... وله آثار في الجسد محمودة: من خشوع القلب ودموع العين واقشعرار الجلد، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن، وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثني عليهم في القرآن، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة: الاضطراب والاختلاج والإغماء (أو الموت والهيام) فأنكر بعض السلف ذلك؛ إما لبدعتهم وإما لحبهم. وأما جمهور الأئمة والسلف...». وانظر مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٤٨ - ٣٥٣، ٣٧٨ - ٣٨٦) ففي الموضعين توسع مفيد للغاية.

(٣) مجموع الفتاوى: (١١/ ٧٥) وكان أشار في معرض حديثه - رحمه الله - إلى ما قد يقع في كلام بعض الشيوخ من معانٍ لا تجوز قد تصل للكفر صدرت عن بعضهم (في حال استيلاء حال عليه الحقه - تلك الساعة - بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول، ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول، ويكفِّر من يقوله). وقال: «وما يخرج من القول في حال غيبة عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة، ولا حكم له...» انظر: مجموع الفتاوى: (١١/ ٧٤، ٧٥)، ومدارج السالكين: (١/ ١٧٧، ١٧٨).

(*) يزم نفسه: يربطها ويعلقها.

(٤) سير أعلام النبلاء: (٣/ ٨٥، ٨٦).

إسراف... فلم يشرع لنا الرهبانية، ولا التمزق والوصال، بل ولا صوم الدهر، ودين الإسلام يسر وحنيفية سمحة»[1].

٦ - أن بعضاً من تلك الأخبار مبالغات صريحة حمل عليها عواطف بشرية كالحب وربما الغلو، فلا ينبغي ـ والحالة هذه ـ أن نسير في ركاب محب أصاب أو أخطأ، ونقدمه للناس على أنه أنموذج واقعي. وكان للذهبي ـ رحمه الله ـ تعليقات لطيفة على بعض ما ينقل من تلك الأخبار القولية أو الفعلية أذكر نماذج منها:

ذكر الذهبي قول من قال: «عندنا بخراسان يظنون أن أحمد لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة!»، وقول: «نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة!». فقال ـ أي الذهبي ـ: «هذا غلو لا ينبغي، لكن الباعث له حب ولي الله في الله»[2].

وحين ساق قول محمد بن مصعب العابد: «لَسَوْطٌ ضربه أحمد بن حنبل في الله؛ أكبر من أيام بشر بن الحارث»، علق الذهبي عليه بقوله: «بِشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال، إنما الله يعلم ذلك»[3]، وعد من المبالغة في الرأي قول يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو جمعت أمة لوسعهم عقله»[4]!!، وأنكر ما روي من أن عدد من يحضر مجالس الوعظ التي يعقدها ابن الجوزي مئة ألف، فقال: «لا ريب أن هذا ما وقع، ولو وقع لما قدر أن يُسمعهم ولا المكان يسعهم»[5].

٧ - أن بعضاً منها يحتمل أن يكون خطأ في الرواية، وسَبْق قلم، نحو ما ذكره ابن النجار في تاريخه أن عدد من أقرأهم أبو منصور الخياط من العميان بلغ سبعين ألفاً! قال الذهبي: «هذا مستحيل؛ والظاهر أنه أراد أن يكتب: نفساً. فسبقه القلم فخط ألفاً، ومن لقن القرآن لسبعين ضريراً فقد عمل خيراً كثيراً»[6].

وربما كان الخبر غير صحيح روايةً مع ما له من الشهرة نحو ما جاء في ترجمة (ربيعة الرأي) شيخ الإمام مالك، وهو أن أمه كانت تقوم على تربيته وتعليمه وتنفق عليه مما خلفه عندها زوجها فرّوخ، وكان ثلاثين ألفاً... إلخ الخبر[7]، قال الحافظ الذهبي: «حكاية معجبة، ولكنها مكذوبة!!» ثم ساق أوجه ردها بالنظر في المتن[8]، وطعن في إسنادها العلامة عبد الرحمن المعلمي، وانتهى إلى الحكم باختلاقها[9]، قلت: وهي قصة مشهورة، تحمل معاني تربوية رائدة، ولكن....!!

فهذه ملاحظات مما يرد على بعض تلك الأخبار (المثالية)، كما يرد على غيرها، لكن المصلحة من إشاعتها ـ مضافاً إليها تلك الملاحظات أو بعضها ـ مرجوحة، وما أردت استقصاء الاحتمالات ولا تتبع القصص، ولكن حسبي أن أنبه إلى مثال جديد من أمثلة مراعاة المصلحة والمفسدة، وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأن العبرة بالسنة المحمدية والحنفية السمحة، وغيرها يقاس بها، والحمد لله رب العالمين.

(١) سير أعلام النبلاء: (١٢/٨٩، ٩٠) وتتمة كلامه نافع ـ رحمه الله ـ.

(٢) سير أعلام النبلاء: (١١/٢١١).

(٣) سير أعلام النبلاء: (١١/٢٠١).

(٤) سير أعلام النبلاء: (١٠/١٥).

(٥) سير أعلام النبلاء: (٢١/٣٧٠).

(٦) سير أعلام النبلاء: (١٩/٢٢٣)، قال المعلق على هذا المجلد: رد ابنُ الجزري في الطبقات (٢/٧٤): نَقْدَ الذهبي لهذا الخبر بما لا ينهض حجة.

(٧) تاريخ بغداد: (٨/٤٢١)، وفيات الأعيان: (١/١٨٣).

(٨) تاريخ الإسلام: (٥/٢٤٦)، ومجمل أوجه الرد: ١ ـ أن ربيعة لم يكن له حلقة وهو ابن سبع وعشرين سنة، بل كانت الحلق تلك الوقت لشيوخ المدينة مثل القاسم، وسالم. ٢ ـ الخبر تضمن ذكر إعانة الإمام مالك لربيعة على أبيه.(الذي لا يعرفه)؛ ولما كان ربيعة ابن سبع وعشرين سنة كان الإمام مالك فطيماً، أو لم يولد بعد. ٣ ـ والخبر تضمن ذكر (القلنسوة) وهي لم تكن خرجت للناس، وإنما أخرجها المنصور، وإن كان ربيعة لبسها فهو ابن سبعين سنة! ٤ ـ كان يكفي ربيعة في السبع والعشرين سنة ألف دينار أو أكثر.

(٩) انظر التعليق على الأنساب للسمعاني: (٦/٦١، ٦٢)، والسمعاني نفسه أشار إلى ضعفها بقوله: حكي.

من أحداث الأرض المباركة

محمد بن عبد الله الدويش

لقد تركت الأحداث التي حصلت في الأقصى أثرها العميق في نفوس المسلمين، ولا خيار لمسلم أياً كان أن يقف موقف الحياد، أو يتغافل عن مثل هذه الأحداث؛ كيف لا؛ والأمر يتعلق بالإيمان؟ فقد قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] .

ويزداد الأمر أهمية حين يتعلق بموطن مبارك قد وصفه - تبارك وتعالى - بذلك في آيات كثيرة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: ١] ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء: ٨١] ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ .

[سبأ: ١٨] .

وقد كثر الحديث عن هذا الموضوع والتفاعل معه؛ والمقصود هنا الإشارة إلى بعض الوقفات الدعوية، ومن ذلك:

● مع أن المسلم يسوؤه ما حصل لإخوانه ويتألم لمصابهم، فإنه يؤمن أن بعض ما يكرهه الناس قد تكون عاقبته إلى خير؛ فقد قال - عز وجل - عن حادث الإفك الذي قُذفت فيه أطهر النساء بالسوء: ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ١١] .

● لعل مثل هذه الأحداث تعيد لدى المهتمين بالقضايا الإسلامية الاهتمام والاعتناء بشأن قضية الأرض المباركة التي نسيها الناس وغفلوا عنها، ومهما علا شأن قضايا المسلمين فليست بأولى من هذه القضية التي تتعلق بمسرى النبي ﷺ والأرض المباركة والمسجد الأقصى وموطن الطائفة المنصورة، ولن ينتهي الصراع حولها

(١) رواه مسلم وأحمد من حديث النعمان بن بشير.

حتى يقتل مسيحُ الهداية مسيحَ الضلالة.

● لا بد من استثمار مثل هذه الأحداث في تقرير القضايا الكبرى في خلفية الصراع، وربط المسألة بجذورها العقدية، وأن هذه الجرائم صدرت ممن يعتبرون ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٨٢] ومن هذه القضايا أيضاً التحالف بين النصارى واليهود، ووقوفهم في خندق واحد حين يكون العدو المستهدف هو الإسلام وأهله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. إن هذه المسلَّمات الشرعية نسيها الناس في ظل المصطلحات السياسية التي روَّضهم الإعلام عليها مثل: الصراع العربي الإسرائيلي، إسرائيل تريد السلام.

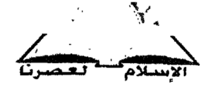
● اتضح من خلال هذه الأحداث أثر الإعلام في إثارة تفاعل الناس مع القضية؛ فالصور والتقارير المؤثرة التي تناقلتها وسائل الإعلام فعلت فعلها في النفوس. ألم يحن الوقت لدى الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ أن يدركوا تأخرهم في التعامل مع هذه الوسائل المؤثرة، وأن يتعلموا فن الصنعة الإعلامية الذي يمكن أن يثير تفاعل الناس مع قضايانا؟!

● لا بد من السعي لبناء الأولويات لدى الناس - مع استثمار العواطف الخيِّرة - فقتل طفل آمن جريمة نكراء، لكن قتل المئات والآلاف من خلال سياسة التجويع والحصار الاقتصادي أشد جريمة، وترويع الآمنين وقتلهم جريمة بشعة، وأشد من ذلك بشاعة صد الناس عن دينهم وفتنتهم فيه ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. [البقرة: ١٩١].

● لا بد من استثمار مثل هذه الأحداث في دعوة الناس للعودة إلى الدين والرجوع إليه، وأن ما أصابهم إنما هو حين تركوا دينهم وأعرضوا عنه، وهذه الأحداث فرصة للدعاة إلى الله في الأرض المباركة في أن يزيد حضورهم لدى الناس، ويسعوا إلى إعادة الناس إلى دينهم.

● يقبل الناس في مثل هذه الأحداث على الاستماع إلى آراء المحللين والمعلقين؛ فأين حضور دعاة الإسلام وأهل العلم في ذلك؟ وهل ما يقدمونه للناس ـ إن وجد ـ على مستوى ما يسمعه الناس من غيرهم؟ أم ما زلنا نعتقد أن الحديث في مثل هذه القضايا مما يشغل طالب العلم ويصرفه عما هو أهم؟

● إن تفريقَ الناس بين مَنْ يتحدث باسم القضية، وإصرارَهم على التعامل مع الصادقين منهم، بذرةٌ من الوعي ينبغي أن تُستثمر وتنمى قبل أن تذبل وتموت.



الحضارة الغربية

ضجة عن الحرية.. وممارسة للهيمنة الثقافية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

الحضارة الغربية حضارة يبوء كاهلها بالمتناقضات: تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأفعال. لكنها رغم ذلك كله هي الحضارة السائدة التي يعدها أهلها ويعدها بقية العالم ـ إلا من رحم ربك ـ حضارة العصر، الحضارة التي يجب أن يحذو حذوها كل من يريد أن يتبوأ مكانة محترمة ومقبولة في هذا العصر، وإلا كان فيه بجسده، وخارجَه بروحه وفكره.

ولعل من أبرز أنواع التناقض بين أقوال هذه الحضارة وأفعالها تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخُلُقية، وتجربتها السياسية، ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها، بكونه انتهاكاً للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شئت من تهم جائرة، بل ـ وأحيانا ـ أقوال آفكة.

المتعصبون من أهل الحضارة الغربية ضد ثقافات الأمم الأخرى ـ وما كلهم كذلك ـ مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية الأمم، ويحدد على أساسه استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاقَّة والإعنات. وقد عبر عن شيء من هذا مندوب ـ أو مندوبة ـ باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة. قالت لهم المندوبة كلاماً نقلته بعض الصحف الأمريكية فحواه: أن مشكلة المرأة في باكستان أن تشرب ماءاً نقياً، لا أن تتزوج امرأة مثلها، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال.

هذا موضوع كبير نُشرت فيه أوراق وأُلفت فيه كتب منها كتاب مشهور للأستاذ إدوارد سعيد اسمه : (الاستعمار الثقافي) لكن حديثنا اليوم عن آخر مظهرين شهدهما الكاتب لهذه الهيمنة. أولهما : الاجتماع الخاص بالنساء الذي عقد بالأمم المتحدة والذي تحدثت عنه في مقال سابق. وثانيهما : كتاب لرائدة من رواد الحركة الأنثوية feminism .

من مظاهر الهيمنة الثقافية في اجتماع الأمم المتحدة أن المنظمات غير الحكومية التي شاركت فيه كان أعلاها صوتاً - وربما أكثرها عدداً - المنظمات الآتية من البلاد الغربية. وحتى التي أتت من البلاد غير الغربية كان كثير منها - إن لم يكن معظمها - من الجماعات الدائرة في فلك المنظمات الغربية، بل ربما كان بعضها مجرد صدى لها. كان منها - مثلاً - منظمة من بلد من أكثر البلاد الإفريقية فقراً وجوعاً، لكن مستوى أدائه في الدعاية للقيم الغربية كان مضاهياً لأغنى المنظمات الغربية.

ومن مظاهرها : أن اللغة المسيطرة على الاجتماع كله كانت اللغة الإنجليزية؛ فالذي لا يعرفها لا يستطيع أن يشارك مشاركة فعالة.

ومن مظاهرها : أن كُبريات المتحدثات كن من الشخصيات الأمريكية المرموقة؛ فقد تحدثت في اجتماع المنظمات غير الحكومية سيدة أمريكا الأولى، وخاطبت الجمعية العمومية وزيرة خارجيتها، وكان معظم المتحدثين والمتحدثات غير الغربيين من أبواق الغرب، حتى إن عدد المتحدثين والمتحدثات من بلد أفريقي غير الذي ذكرت آنفاً لم يكن متناسباً قط لا مع أهميته ولا مع حجمه.

والقضايا التي أثيرت ونالت اهتماماً كبيراً كانت هي القضايا التي يهتم بها الغرب؛ إما لأنها من القضايا التي تشغل بال الناس فيه، أو لأنها مما يعترض عليه الغرب في ثقافات الآخرين. من ذلك قضية ختان البنات، التي حوَّلها الكُتَّاب والساسة الغربيون وأتباعهم من المستغربين إلى قضية كبرى تكاد تكون من أهم معاييرهم للولاء والبراء.

وهذا يقودنا إلى كتاب الرائدة الأنثوية الذي أسمته : المرأة كاملة، أو المرأة بأكملها The WholeWoman تعرضت المؤلفة فيه لقضية الختان هذه، فذكرت أنها كانت وما زالت معترضة على ختان النساء، لكنها بعد أن سافرت واتصلت بالثقافات الأخرى، تبين لها أن اهتمام الغرب به هو تعبير عن احتقاره للثقافات غير الغربية. واستدلت

على ذلك بأدلة لا تخلو من طرافة:

منها: أنه لا فرق بين ختان الرجال وختان النساء؛ لكننا لا نعترض على الأول ولا نثير حوله زوبعة؛ لأنه يمارس في الغرب.

ومنها: أن النساء في الغرب يجرين عمليات جراحية تجميلية هي أشد غرابة من الختان. من ذلك العمليات التي تجريها بعض النساء لتصغير أثدائهن. قالت: إنها عندما ذكرت هذا لبعض النساء السودانيات كان استغرابهن له كاستغرابنا للختان، وأنها تعلمت منهن أن الختان أنواع، وأن منه ما لا ضرر فيه، وأنه لا يؤثر على الاستمتاع الجنسي، وأنه ليس أمراً يفرضه الرجال على النساء كما نظن في الغرب.

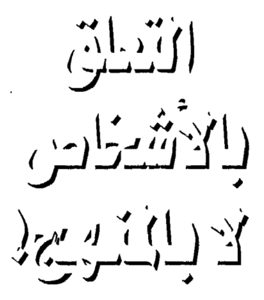
ومنها: أن بعض الناس في الغرب يخرقون ألسنتهم ليدخلوا فيها نوعاً من الحلق كالذي يدخل في الآذان. بل إن منهم من يفعل ذلك لعضو الرجل!

لنفترض أن الحديث كان عن أسوأ أنواع الختان، وهو مضر ما في ذلك شك؛ لكن أهو أضرُّ من هذا الذي ذكرته الكاتبة؟ أهو أضر من شرب الخمر الذي يموت بسببه المئات بل ربما الآلاف في الغرب في ليلة واحدة هي ليلة عيد الميلاد؟ أهو أضر من حمل السلاح الذي يرخص به القانون الأمريكي، والذي يُقتل بسببه عدد من الأبرياء - وأحيانا الأطفال - في كل يوم وليلة؟ أهو أضر من الجمع بين السُّكْر وحمل هذا السلاح؟ أهو أضر من السفور، وما ينتج عنه من أنواع الاغتصاب؟ أهو أضر من الزنا واللواط الذي تُحله القوانين الغربية والذي كان سبباً في مرض الإيدز وأمراض أخرى جسدية ونفسية؟ أهو أضر من التدخين الذي صار من أسباب الموت الأولى في البلاد الغربية، والذي لا مسوِّغ لإباحته إلا استفادة بعض الشركات منه، كاستفادة أخرى من إباحة حمل السلاح؟

كلا والله! ولكن الأمر كما قال ربنا: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

إن قوة الغرب المادية صارت فتنة تعمي الناس - ومنهم منتسبون إلى الإسلام - عن رؤية عيوبه وشروره. كما أن ضعف المسلمين صار فتنة تصد الناس عن رؤية ما عندهم من خير وعن قبوله.

﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].



سالم أحمد البطاطي

الأصل في العملية التربوية أنَّ الفرد الذي يدعى يجب أن تتركز الجهود التربوية في تربيته بتوثيق صلته برب العالمين، وأن تكون صلته القوية بالله ـ تعالى ـ وبمنهجه القويم، وألا يتعلق بالبشر؛ لأنَّ البشر من الممكن أن يتغيروا، ولكن الله الحي الذي لا يموت يُغيِّر ولا يتغيَّر كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وإنَّ مشكلة التعلق بالأشخاص لها سلبيات منها: أن الفرد يتغير بتغير المتعلق به، ولذلك جاء القرآن ليقرر هذه الحقيقة الأولية حقيقة التعلق بالمنهج ونبذ التعلق بالأشخاص ولو كانوا رسلاً. ففي سورة آل عمران وهو يتحدث عن غزوة أحد يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] يقول أحد الباحثين: «وكأنما أراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الحادثة وبهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ وهو حيٌّ بينهم، وأن يصلهم مباشرة بالنبع ـ النبع الذي لم يفجِّره محمد ﷺ، ولكن جاء فقط ليومئ إليه، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق، كما أومأ إليه من قبله الرسل، ودعوا القافلة للارتواء منه؛ وكأنما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط، حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة التي لا يخليهم عنها أن يموت الرسول أو يقتل فهم؛ إنما بايعوا الله، وهم أمام الله مسؤولون، وكأنما كان ـ سبحانه ـ يعد الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى حين تقع، وهو ـ سبحانه ـ يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم، فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب، وأن يصلهم به هو وبدعوته الباقية قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول».

ويضيف قائلاً: «والمسلم الذي يحب رسول الله ﷺ؛ وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيراً، الحب الذي يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة، وقد رأينا أبا دجانة يترس عليه بظهره، والنبل يقع عليه ولا يتحرك، ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحداً إثر واحد، وما يزال الكثيرون في كل زمان وفي كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم وبكل مشاعرهم حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره ﷺ، هذا المسلم الذي يحب محمداً ذلك الحب مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد ﷺ والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده باقية ممتدة موصولة بالله الذي لا يموت؛ إنَّ الدعوة أقدم من الداعية».

وكما كان القرآن يربي الصحابة والأمة من بعدهم على التعلق بالمنهج وذم التعلق بالأشخاص، كذلك كان ﷺ هذا منهجه، ومنهج كل من دعا إلى الله على بصيرة، وإليك بعض النماذج:

١ – عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: وعَظنا رسول الله ﷺ موعظة وَجِلَتْ منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا! قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، وإنَّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كل بدعة ضلالة»[1].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، ح (٣٩٩١)، والترمذي، كتاب العلم، ح (٢٦٠٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

الشاهد قوله: «كأنها موعظة مودع»، «فعليكم بسنتي» فربما كان قد وقع منه ﷺ تعريض في تلك الخطبة بالتوديع، وأنه مغادر الحياة، فأوصاهم بالتعلق بسنته بعده، وقول الصحابة: «فأوصنا» فيه أنهم لما فهموا أنه مودع استوصوه وصية ينفعهم التمسك بها بعده.

٢ - في حديث جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لتاخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد عامي هذا..»[1] فاوصاهم باخذ سنته واتباع هديه الذي هو الدين الذي بلغه عن ربه؛ ففيه تعليق الصحابة بمنهج الله، وتربيتهم على ذلك وهو حيٌّ بين أيديهم.

٣ - جمعه الناسَ بماء بين مكة والمدينة يسمَّى خُمًّا، وخطبهم فقال: «يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن ياتيني رسول ربي فاجيب»[2] ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى باهل بيته. الشاهد تعريضه بانه مغادر الحياة، وحضه بالتمسك بكتاب الله وبمنهج الله.

٤ - خرج الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «انا محمد النبي الأمي - قال ذلك ثلاث مرات - ولا نبي بعدي؛ أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتُجُوِّز بي، وعوفيت وعوفيت أمتي؛ فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم؛ فإذا ذُهِبَ بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه»[3].

الشاهد قوله: «فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله». فلم يعلقهم بنفسه الشريفة ولا بذاته إنما علقهم بكتاب الله وبمنهج الله؛ وفي هذا تربيتهم على التعلق بالمنهج.

يتضح مما سبق من هذه الأحاديث كيف أن النبي ﷺ كان يوجه الصحابة ويحضهم ويعلقهم بمنهج الله الذي هو الكتاب والسنة ولم يكن يعلقهم بشخصه وذاته.

وكان يربيهم على هذه الحقيقة الأولية وهو بين ظهرانيهم، ويركز عليها ويذكرهم بها في أكثر من موقف كما سبق؛ وما ذاك إلا لأهمية هذه الحقيقة التي ربما يغفل عنها الناس؛ فكان الواجب تذكيرهم والتركيز عليها.

وأيضاً لقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يربي بعضهم بعضاً، ولا غرابة في ذلك؛ فقد رباهم ﷺ على ذلك من قبل، ويذكِّر بعضهم بعضاً بهذه الحقيقة المهمة حقيقة التعلق بالمنهج ونبذ التعلق بالأشخاص؛ فمتى جنحت العاطفة نحو الأشخاص ضعفت النفوس وتقهقرت، ويظهر ذلك فيما يلي:

١ - قال الزهري: حدثني أبو سلمة عن ابن عباس: «أن أبا بكر خرج وعمرُ يكلم الناس، وقال: اجلس يا عمر. قال أبو بكر: أما بعد: فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم؛ فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها». وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: «والله! ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقتُ حتى ما تقلني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض».

٢ - قال ابن أبي نجيح عن أبيه: «إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار يتشحط في دمه فقال له: يا فلان، هل شعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ - وكان ذلك في أحد - فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ. فقاتلوا عن دينكم»[4].

٣ - في غزوة أحد لما انهزم الناس لم ينهزم أنس ابن النضر - رضي الله عنه - وقد انتهى إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، ح (٢٢٨٦)، والنسائي كتاب مناسك الحج، ح (٣٠١٢) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة، ح (٤٤٢٥).

(٣) أخرجه أحمد، ح (٦٣١٨).

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

قتل رسول الله ﷺ. فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد، واهاً لريح الجنة إني أجدها من دون أحد، فقاتل حتى قتل، ووُجِد به بضع وسبعون ضربة، ولم تعرفه إلا أخته ببنانه.

إنه من واجب المربين ومن هم في موضع القدوة أن يربوا أتباعهم على التعلق بالله وعدم التعلق بالأفراد.

مظاهر التعلق بالأشخاص:

١ – ترك الالتزام بعد موت المربي أو سفره أو سجنه.

٢ – ترك العمل لهذا الدين بابتعاد المربي عنه.

٣ – عدم الصبر على مفارقته.

٤ – مقابلة أقوال المربي غير الصائبة بأقوال من تاخذ الأمة الفتوى عنهم.

٥ – التساهل في الكثير من الأخطاء بحجة أن المربي يعملها.

٦ – تعظيم المربي ومدحه وإطراؤه والثناء عليه إلى درجة الغلو.

٧ – التسويغ الكثير لأخطاء المربي، وعدم قبول أن المربي قد يخطئ بل يُجعل دائماً هو المصيب ـ بلسان الحال أو المقال ـ.

٨ – عدم مناقشة المربي في بعض القضايا التربوية التي لم يفهمها المتربي بحجة أن مربيه قد يغضب عليه عندما يناقشه.

٩ – عدم الوضوح في كثير من قضاياه وأموره بحجة أن المربي ربما يتغير تجاهه.

١٠ – التخفي في عمل بعض الأمور التي لا تنبغي فضلاً عن المعاصي بحجة أن المربي يغضب عليه وتتغير نظرته له.

١١ – التحرج من أن يعرف المربي أموره الخاصة حتى لا تتغير نظرته له.

١٢ – الطاعة العمياء للمربي في خطئه.

١٣ – نصرة مربيه عند الآخرين حتى في خطئه.

١٤ – تقديم مصالح مربيه الدنيوية على مصالح والديه وأهل بيته.

١٥ – تقليد المربي في بعض الصفات المذمومة (عشوائية ـ تهور ـ عجلة ـ فوضوية).

١٦ – الانصدام بواقع المربي إذا حصل منه خطأ مما يسبب له النكوص، فيجعل زلة المربي سبباً في الابتعاد عن الحق، وكان الإمام سفيان بن عيينة يطلق على مثل هؤلاء الذين يجعلون زلات القدوات والمربين سبباً للابتعاد عن الحق صفة: (الحماقة) فقد لاحظ أحدهم منه خشونة وشدة على طلبته فتجرأ وسأله: «إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك» فرد عليه: «هم حمقى إذن مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي». فاراد سفيان أن يفهم السائل القاعدة التي هي: (التعلق بالحق وترك التعلق بالأفراد)، فالمربي والقدوة لا يعني أنه هو الحق وهو الدعوة، وفرق أن يوجد عيب أو زلل في المربي أو أن يوجد الزلل والخطأ في الحق.

أسباب داء التعلق بالأشخاص:

لبعض الأشخاص صفات شخصية من أهمها:

١ – بروز الصفات الجاذبة عند المربي (الخطابة ـ العلم ـ الذكاء ...).

٢ – كثرة الجلسات غير الهادفة والمبنية على تجانس الطبع.

٣ – فقدان القدوة منذ النشأة الأولى.

٤ – عدم ربط المتربي بالقدوة المعصوم ﷺ.

٥ – عدم ربط المتربي بالاتصال بالله والتعلق بدين الله.

٦ – تغليب جانب العاطفة في التعامل مع المتربي وتحكيمها.

٧ – عدم التركيز على بعض المفاهيم الدعوية التربوية مثل: (الفرق بين حب الله وحب الأفراد، وبين الحب في الله والحب مع الله).

٨ – عدم تحذير المتربين من خطورة التعلق بالأشخاص.

٩ – التسويف في التحذير من خطورة التعلق بالأشخاص بحجة اجتذابه وعدم تنفيره، والزعم أنه في أول الطريق.

١٠ - عدم انتباه المربي لهذه المشكلة مما يجعل الأمر مستفحلاً.

١١ - عدم مصارحة الأفراد الذين يقعون في هذه المشكلة.

١٢ - تزيين الشيطان للمربي بانه مهم وجذاب مما يغبِّش عليه خطورة هذه المشكلة.

١٣ - الخلل في عملية تقييم الأفراد.

١٤ - إهمال جانب التربية الذاتية وتغليب جانب التربية الجماعية على الفردية.

آثار داء التعلق بالأشخاص:

١ - ترك الالتزام بالكلية بعد موت المربي أو سجنه أو سفره.

٢ - ترك العمل لهذا الدين ببعد المربي عنه.

٣ - الوقوع في معصية الغلو والتعظيم.

٤ - الوقوع في كثير من الأخطاء.

٥ - الوقوع في معصية الوالدين بتقديم مصالح مربيه الدنيوية على مصالح والديه.

٦ - فقدان شخصيته المتميز بها.

٧ - إخراج جيل هش تستملكه العواطف.

٨ - جعل العاطفة هي الحكم في كثير من القضايا.

٩ - عدم قبول العمل لهذا الدين في بيئة بعيدة عن بيئة مربيه.

١٠ - الرياء وعدم العمل إلا بمرأى من مربيه.

١١ - عدم نصح المربي إذا أخطأ.

١٢ - الوقوع في التهور والعجلة والفوضوية المرتسمة في مربيه.

علاج داء التعلق بالأشخاص:

١ - التركيز في السنوات الأولى للعملية التربوية على معاني التعلق بالله وحده، والمعنى الحقيقي للحب في الله.

٢ - التركيز على الأصول الإيمانية ومعاني الشرك وخاصة في المحبة.

٣ - الحث على صبغ الجلسات الخاصة بين الأفراد بالأهداف القيمة.

٤ - مصارحة الأفراد الذين يقعون في هذه المشكلة وعدم الانتظار حتى يتفاقم الأمر.

٥ - انتباه المربي لهذه المشكلة وتحذيره الدائم للفرد من خطورة التعلق بالأشخاص.

٦ - تكرار التقويم للأفراد حتى تتسنَّى معالجتهم قبل استفحال الأمر.

٧ - مناقشة مثل هذه القضية في جلسة نقاش مفتوحة يشترك فيه جميع الأفراد.

٨ - تعليق الأفراد بالله وبمنهجه.

٩ - ربط المتربين بقدوتهم محمد ﷺ.

١٠ - التركيز على جانب التربية الذاتية.

١١ - التركيز على جانب الإخلاص وأن العمل لا يكون إلا لله، وما كان لله فهو الذي يبقى، وما كان لغيره فإنه يفنى.

١٢ - بث روح العمل لهذا الدين في أي مكان وزمان كان.

وأخيراً .. اعلم:

١ - اعلم أن من الأخطاء في العملية التربوية التعلق بالأشخاص وضعف التعلق بالمنهج.

٢ - اعلم أن القرآن الكريم قد قرر هذه الحقيقة، وهي حقيقة التعلق بالمنهج ونبذ التعلق بالأشخاص، وكذلك النبي ﷺ كان هذا هو منهجه ومنهج كل من دعا إلى الله على بصيرة من الصحابة ومن تبعهم.

٣ - اعلم أن البشر إلى فناء والعقيدة إلى بقاء.

٤ - اعلم أن الدعوة أقدم وأبقى من الداعية.

٥ - اعلم أن منهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس.

٦ - اعلم أن الجهود يجب أن تتركز في توثيق صلة الناس بربهم.

٧ - اعلم أن البشر من الممكن أن يتغيروا ولكن الله الحي الذي لا يموت يغير ولا يتغير.

بارك الله في الجهود، وسدد الله الخطا، ورزقنا الله الإخلاص في القول والعمل.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



من وحي الانتفاضة

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

منذ أن بدأ الصراع العربي الإسرائيلي في منتصف الأربعينيات الميلادية والهوية الحقيقية للصراع مغيَّبة عن الأمة؛ فمن الشعارات القومية التي تعالت صيحاتها من الخليج إلى المحيط، والتي تمخضت أخيراً عن شعار الحرب العربي: (ارْمِ سلاحك وانسحب!).. وإلى شعار: (سلام الشجعان!). لقد جهد هؤلاء العلمانيون في تزييف وعي الأمة، وخداعها بالمزايدات الإعلامية، ونصبوا لها تمثالاً من الوهم، وراحوا يسبحون بحمده ويقدسون..!

حتى في ثنايا النكبات والدماء التي ملأت أرض الإسراء في الانتفاضة الإسلامية الأخيرة، ما زالت الشعارات المجدبة المقفرة تقفز هنا وهناك، ترقص على جراح الأمة، وتزايد عليها، وكأني باليهود يخاطبوننا بقول حافظ إبراهيم:

قد ملأنا البر من أشلائهم
فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما!

انتفاضة الأقصى رسالة إلى بني صهيون تذكِّرهم بأن جيل العزة والشموخ لم يمت بحمد الله؛ فقد ظهر النور من جديد وعرف الناس حقيقة المعركة، وأن أبناء جيل (عبد الناصر) (ميشيل عفلق) و (أنطون سعادة) قد ولَّى، وجاء جيل جديد على آيات الأنفال والتوبة وآل عمران، وراح يردد بكل ثقة:

[...]ت بخالع درعي وسيفي
إلى أن يخلع الليلَ النهارُ!

انتفاضة الأقصى رسالة إلى المهزومين من دعاة التطبيع تخبرهم بأن النفوس الأبية الصادقة المتعطشة لنور الحرية قد عرفت طريقها، فرُبَّ حجر في كفِّ طفل مستضعف أنكى في



العدو من مؤتمرات تعقد، وقرارات تستنكر وتشجب.. ربّ حجر يُقذَف باسم الله ـ تعالى ـ تحوطه تكبيرات الصادقين أبلغ في زعزعة كيان العدو من أسلحة مهترئة تُرفَع باسم العروبة، فلا تلبث أن تسقط وتتهاوى؛ فقد نخرها الصدأ وعلاها الوهن.

علمتنا انتفاضة الأقصى أن العقيدة الإسلامية إذا رسخت في القلب أثمرت يقيناً راسخاً لا تهده الجبال، وعزيمة صادقة لا تردها الأعاصير، وإقبالاً سريعاً على الموت في سبيل الله لا يعوقه الفزع أو الجبن.

أنا من ربوع القدس طفل فارسٌ
أنا مؤمن بمبادئي أنا مسلمُ
سكت الرصاص فيا حجارة حدثي
أن العقيدة قوةٌ لا تُهزَمُ[1]

انتفاضة الأقصى أظهرت عوار الاتفاقات والمعاهدات التي [illegible] يتشدق بها أدعياء السلام، وذكّرت [illegible] الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ كُلَّمَا [illegible] فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا [illegible]﴾ [البقرة: ١٠٠].

[illegible] الانتفاضة الأقصى [illegible] حقيقة زعماء [illegible] [illegible] تتكشف [illegible] يوماً بعد يوم [illegible] ولا تطلع [illegible] إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، عرف الناس أن هذه الزعامات معاول هدم ترمي إلى وأد الانتفاضة، أو تغيير مسارها، أو قطف ثمارها، ولهذا ليس غريباً أن يقول المفكر اليهودي (ياحوشفات هاركابي) في كتابه العقل العربي: «إن العرب هم أفضل أداة وأمضى سلاح لقتل فكرة المقاومة!».

إن دهشتنا بلغت الذروة ونحن نسمع بعض من يسمون بالنخب المثقفة ودعاة التطبيع يصرون على تجديد العهد على هذا المسار، على الرغم من الأشلاء المتناثرة على عتبات المسجد الأقصى..!

ألا فليثق هؤلاء المهزومون أنهم لن يروا حقاً ينتصر، أو أرضاً تعاد، أو كرامة ترتفع، ما داموا يتسترون وراء أقنعتهم الرقيعة، وأكاذيبهم الهزيلة..! وصدق الرافعي إذ يقول: «إذا أسندت الأمة مناصبها الكبيرة إلى صغار النفوس كبرت بها رذائلهم لا نفوسهم»[2].

دربٌ سلكناه والرحمن غايتنا
ما مسنا قطُّ في لأوائه ندمُ
نمضي ونمضي وإن طال الطريق بنا
وسال دمعٌ على أطرافه ودمُ
يحلو العذابُ وعين الله تلحظنا
ويعذُب الموت والتشريد والألمُ[3]

---

(١) [illegible] عبد [illegible] [illegible]، ديوان: (شموخ في زمن الانكسار).

(٢) [illegible] ذو القعدة ١٣٥٣هـ.

(٣) [illegible] العطار، انظر كتابه: (كلمات)، ص (٥٣٦، ٥٥٦).

الحقيقة المُرَّة في مقتل الدُّرَّة

فيصل محمد الحجي

قصة مقتل الفتى الفلسطيني محمد جمال الدُّرَّة على يد المجرمين الصهاينة، وهو يحتمي بوالده، أصبحت على كل لسان؛ فقد نقلتها مراراً كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

ولم تكن حادثةُ قتل «الدُّرَّة» فريدةً في نوعها، وإنما كانت نموذجاً لحوادث قتل كثيرة مثلها، بل أبشع منها، وهي من جملة الأدلة الكثيرة الواضحة على حقد اليهود ووحشيتهم على مَرِّ التاريخ.

كما نقلتْ بعضُ وسائل الإعلام قصة الفتى المصري أحمد شعراوي (١٢ سنة) الذي أخبر زملاءه أنه ذاهب ليشارك في الانتفاضة، وَفَرَّ من أهله في القاهرة، وركب الحافلة إلى العريش حتى وصل إلى الحدود المصرية الفلسطينية، فأمسكت به دورية الحدود وهو يحاول اختراق السلك الشائك، فطلب من الضابط أن يسمح له بالعبور حتى يشارك إخوانه في جهاد اليهود، فاحتجزه الضابط وأخبر أهله فحضروا وأخذوه. كما تحدثت بعض وسائل الإعلام عن قصة مماثلة للفتى الأردني البراء محمود.

ويبقى السؤال الأخير: أبلغ اليهود ما بلغوه من الغطرسة بقوتهم، أم بفساد الوضع العربي والإسلامي؟ الجواب شرحه يطول، وإليكم الموجز:

أديمي - يا جراحاتي - أديمي ... نزيفاً سال في الزمنِ الوَخيمِ

فلا يَبْقى - لكي يصحوْ نيامٌ ... عن الْجُلَّى - سوى الْجُرْحِ الأليمِ

قد احتكر السيوفَ به رجالٌ ... بَدَوْا عندَ الشدائد كالحريمِ

لِمَ احتكروا السيوفَ؟ أَلِلْمَعَالي ... وَهُمْ رَهْنُ المذلَّةِ كاليتيمِ؟

قد احتكروا السيوفَ لكي يصونوا ... كراسيَهم من الشعب الْمَضيمِ

قد احتكروا السيوفَ وأَلْجَمُوها ... فصُومي - يا سيوفَ الذلِّ - صومي

عصاباتُ الْوُصُوليِّينَ سَادَتْ ... مُذِ الْتَفَّتْ على وَغْدٍ زَنيمِ

سَليلُ خيانةٍ وَرِثَ المخازي وكان ربيبَ تاريخٍ دميمِ
وَحَفْنَةِ عسكرٍ مَكَرُوا بِلَيْلٍ وقد وثبوا على القصرِ الْحُكُومي
وصاروا سادةَ الأوطانِ قَهْراً وأقْصَوْا سادةَ الْعَهْدِ الْقَديمِ
كذا احتكر السياسةَ جاهلوها فما عَرَفُوا الصحيحَ منَ السقيمِ
وقد حَشَرُوا الأنوفَ بكلِّ شأنٍ سوى شأنِ الدفاعِ أو الهجومِ
فما حَفِظُوا البلادَ منَ الأعادي ولاَ ردُّوا المظالمَ منْ ظَلُومِ
وأدْنَوْا كلَّ مرتزقٍ جهولٍ وأقْصَوْا كلَّ ذي عقلٍ عليمِ
وَلانُوا لليهودِ وللنصارى وَخَصُّوا المسلمين بكلِّ شُومِ
فراعينُ الشعوبِ ألا تراهم أرانبَ في مجاراةِ الخصومِ؟
إذا لم يهزموا الأعداءَ يوماً فما معنى التباهي بـ (النجومِ)[1]؟
وما جدوى الْحِذارِ منَ الأعادي إذا خانَتْ نواطيرُ الكرومِ؟
بَنَوْا لمكارمِ الأخلاقِ قبراً كأنهمُ تربَّوْا في سَدومِ
فلا تعجبْ إذا فَرِحَ الأعادي وَبِتْنَا في المصائبِ والهمومِ

* * * *

محمدُ ـ دُرَّةَ الشهداءِ ـ قُلْ لي: مَنِ الأنكى عليكَ منَ الخصومِ؟
أمَنْ طعنوكَ تحتَ الشمسِ جهراً كَمَنْ طعنوكَ في الليلِ البهيمِ؟
وَمَنْ خذلوكَ في كلِّ السرايا وقد وعدوكَ بالنصرِ العظيمِ
وَمَنْ بَخِلوا عليكَ بنصلِ سيفٍ فهل يبقى سوى الْحَجَرِ الكريمِ؟
وَمَنْ مَنَحُوا الصهاينةَ اعترافاً وقد طعنوا القضيَّةَ في الصَّميمِ
وَمَا انحازوا لإسلامٍ وَعُرْبٍ كما انحازوا إلى فُرْسٍ وَرُومِ
فما وَرِثُوا الديانةَ عن قريشٍ ولا وَرِثوا الشهامةَ عن تميمِ
فَمِنْ حقِّ الحجارةِ أن تناديْ وتغضبَ من تخاذلِنا العقيمِ:
إلامَ نُضَيِّعُ الطاقاتِ هَدراً ونمشي خَلْفَ غربانٍ وَبُومِ؟
إلامَ تَظَلُّ أظْهُرُنا عَرايا لِطَعْنِ مُدَى الجبانِ المستديمِ؟

(١) النجوم: الرتب العسكرية للضباط.

الحقيقة المُرَّة في مقتل الدُّرَّة

إلامَ نَرَى الحقائقَ في خفاءِ ... وقد راجَتْ أباطيلُ الخصومِ؟
إلامَ نَظَلُّ في الأحداثِ عُمْياً ... ولا نَرْنُو إلى الخطر الجسيمِ؟
أتُمْحَى القُدْسُ مِن قاموسِ قومي ... لنَعْقِد قِمَّةً في أُورْشَليمِ؟
ويغدو المسجدُ الأقصى خراباً ... لهيكلِ حاقدٍ قَذِرٍ أثيمِ؟
جِراحاتُ الشبابِ لها سُؤالٌ ... يُوَجَّهُ للغَيُورِ وللفهيمِ:
أليس لنا صلاحُ الدينِ ثانٍ ... يسيرُ بنا إلى النصرِ العظيمِ؟
أليسَ له سِوانا مِن حفيدٍ ... يُوَحِّدُنا على الدربِ القويمِ
يسيرُ بنا إلى حِطّينَ فجراً ... ويُمْسي القدسَ بالزحفِ الكريمِ؟
أجَلْ.. أحفادُهُ كُثُرٌ .. ولكنْ ... هُمُ في ظُلمةِ السجنِ البهيمِ
رأى (التطبيعُ) دَفْنَهُمُ جميعاً ... مع الأحياءِ في السجنِ العمومي
بلا طِبٍّ.. بلا دفءٍ شتاءً ... بلا نومٍ يُريحُ ... بلا نسيمِ
صباحَ مساءَ خُبْزُهُمُ سِياطٌ ... تُقَطِّعُهمْ بلا قَلْبٍ رحيمِ
سِهامُ الموتِ أنواعٌ.. ومنها: ... غِذاؤهمُ الملوَّثُ بالسُّمومِ
يكاد الموتُ يحصدهم.. فَبَارِكْ ... أيا (باراكُ) لِلْخِلِّ الغَشُومِ
فلو أمسى صلاحُ الدين فينا ... لَبَاتَ بسجنِ شيطانٍ رجيمِ
وتسألُ: هل جَنَوْا؟ فيجيبُ وَغْدٌ: ... أجَلْ.. قد خالفوا أمْرَ الزعيمِ
فهم قد آمنوا باللهِ حقّاً ... وَسُنَّةِ أحمدَ الهادي الحكيمِ
وما التزموا برُوحِ العصرِ يوماً ... مُذِ التزموا بقرآنٍ كريمِ
وهذا مَارَسَ (الإرهاب) لَمَّا ... دَعَا لجهادِ (باراكَ) الوسيمِ
وذا (مستطَرفٌ) في الدين.. يدعو ... لِحُكْمِ الشرعِ فينا ... كالقديمِ
وثالثهم (أصوليٌّ).. وهذا ... بلا رأيٍ.. ولا عقلٍ سليمِ
وما حَفِظوا لإسرائيل أمناً ... وقد عَدُّوا السلامَ مِن السُّمومِ
كذا يغدو جمالُ الحقِّ قُبْحاً ... وأصحابُ الحُلوم بلا حُلُومِ

* * * *

محمدُ - درةَ الشهداءِ - أبْشِرْ ... رِفاقُكَ منا استكانوا لِلْخُصومِ

دروسُ التضحياتِ بكلِّ يومٍ ... قد انتقلَتْ إلى الطفلِ الفطيمِ
وعُشَّاقُ الشهادةِ قد أحالوا ... حياةَ بني يهودَ إلى جحيمِ
قلوبُ المسلمين تفور غيظاً ... وتدعو للدفاعِ عن التُّخومِ
إذا نَفِدَتْ حجارتُكم.. فنادوا: ... إلينا يا جنادلَنا.. وَقُومي
سَتَأتي أقْدَسُ الأحجارِ غَضْبى ... بكعبتِنا الشريفةِ والحطيمِ
وتلك حجارةُ (الأُمَوِيِّ) لهفى ... إلى حِطِّينَ.. تحيينا كالرميمِ
و (أزهرُنا) العريقُ به صُخُورٌ ... تكادُ تطيرُ مِن فوقِ الغيومِ
وكلُّ مساجدِ الدنيا اشرأبَّتْ ... لِتَرْفِدَكم بأشلاءِ الرَّضيمِ[1]
وهذا (أحمدُ) المصريُّ لَبَّى ... نداءَ المجدِ في الأقصى العظيمِ
مشى.. ومشى التحدِّي في خُطَاهُ ... مُعِدَّ النفسِ للأمرِ الجسيمِ
لعلَّ الله يجعلُه شهيداً ... يفوزُ غداً بجناتِ النعيمِ
ولم يذهب لشرمِ الشيخِ حتى ... يُطاطئَ للرجالِ وللحريمِ
و (محمودٌ) من الأُرْدُنِّ وافى ... يناجي الانتفاضةَ: لن تنيمي
هَوَاهُ القدسُ .. مشتاقٌ إليها ... إلى فتيانِها الغُرِّ القُرومِ[2]
بنفسي أيُّها الأقصى المُفَدَّى ... بأرواحِ الأشاوسِ والجُسومِ
مُصَلَّى الأنبياءِ على إمامٍ ... له الإسراءُ فالمعراجُ يومي
سنرفعُ رايةَ القرآن.. تعلو ... على التلمودِ والعهدِ القديمِ
فَطُوبى للمجاهدِ في رُباها ... وقبحاً للمخذِّلِ والنَّؤُومِ
لنا القدسُ الشريفُ وما تَلاهُ ... لنا الأقصى على رَغمِ اللئيمِ
لنا المستقبلُ المرموقُ حتماً ... بوعدِ الصادقِ القولِ الكريمِ
رضينا الحُسْنَيَيْنِ: نَنَالُ نصراً ... أو السكنى بجنَّاتِ النَّعيمِ

* * * *

أقولُ لأمَّتي ـ والأمرُ جِدٌّ ... وأوجُهُنا الحزينةُ في وُجُومٍ ـ:
إذا الأوطان لم تُعْلِنْ جهاداً ... يَصُونُ فَلَنْ تدومَ .. ولن تدومي

---

(١) البناء بالصخر.

(٢) القروم: جمع قرم، وهو السيد.



الورد والهالوك

وقفة مع شعراء الحداثة في مصر

د. حسين علي محمد

ظهر في مصر منذ السبعينيات جيل جديد من الشعراء أقله يجدد في تؤدة، ولا ينفصل عن تراثه، ويُعانق هموم بلاده وعالمه الإسلامي، ويفيد من إنجازات القصيدة المعاصرة دون أن يفقد اتصاله بالشعر العربي الذي أنجزته أمته خلال خمسة عشر قرناً، ومعظمه يقطع أي صلة بالمنجز الشعري العربي، ويهرف بما لا يعيء ويكتب نثراً «يظنه ـ بل يسميه!! ـ شعراً»، ويعادي عقيدة الأمة، ولا يعبأ بمقدساتها، ويعبث بكل شيء: المقدَّس، والتراث، واللغة، وجسد الأنثى!

عن هذه الظاهرة كتب الدكتور حلمي محمد القاعود في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط كتابه «الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر» الذي صدر عن دار الأرقم بالزقازيق في مصر [(١)]، ويهديه: «إلى عبده بدوي: الشاعر والإنسان».

وقد درس في القسم الأول «شعراء الورد»: أحمد فضل شبلول، وجميل محمود عبد الرحمن، وحسين علي محمد، وصابر عبد الدايم، وعبد الله السيد شرف.

وقال المؤلف عن أسباب اختياره لهؤلاء الشعراء الخمسة: «اخترت الخمسة الأوائل من شعراء الأصالة للدراسة في السِّفْر الأول من هذا المبحث، وركزت على أبرز الظواهر في الرؤية والفن عند كل منهم، مستخلصاً في النهاية العناصر المشتركة التي تجمع بينهم، وتمثل قاسماً مشتركاً يدخل في نسيج أشعارهم، والخمسة الأوائل من الذين لا يعرفون أضواء العاصمة، ولا يملكون سنتيمتراً مربعاً في صحافتها أو مجلاتها. ولا يعرفون الطريق إلى منتدياتها ومهرجاناتها، وهم في الوقت نفسه لم يحاولوا الانتماء إلى قبيلة أدبية أو عشيرة ثقافية تتبنى إنتاجهم وتدعو إليه»[(٢)].

ينطلق هؤلاء الشعراء من خلال «رؤية عامة تهتم بالقضايا الكبرى التي تشغل الأمة والوطن، وتؤثر في مسيرته سلباً وإيجاباً. وهذه القضايا تسبق ما هو ذاتي وشخصي لديهم بخطوات كثيرة، مما يعني انصهارهم في بوتقة الواقع وتواصلهم معه

(١) الطبعة الأولى، شعبان ١٤١٣هـ، فبراير، ١٩٩٣م.

(٢) د. حلمي محمد القاعود، الورد والهالوك، الطبعة الأولى، شعبان ١٤١٣هـ، فبراير، ١٩٩٣م، ص ٦.

وانتماءهم إليه. وهم في معالجتهم لهذه القضايا يرتكزون على تصور واضح وصريح ينتمي إلى هوية الأمة الحضارية، ولا يتنكر لها، وقد رأينا التصور الإسلامي الناضج حاضراً وساطعاً في أشعارهم مما يعني أن هذا الجيل يملك مفاتيح الرؤية الحقيقية الناضجة التي ترفض الانسلاخ والتبعية والتبشير بالولاء للغير، كما ترفض الغمغمة واللجلجة والدمامة الفكرية التي تعتمد على التراث الباطني، ومضمونه التخريبي»[1].

ويعبر هؤلاء الشعراء عن ملامح الهوية الإسلامية الكامنة في ذلك السر الذي يقوم على الجسارة ويزايل الخوف والتردد، والذي كان في البدء - وما زال - ترويه الدماء. يقول صابر عبد الدايم في قصيدة: «المسافر في سنبلات الزمن»[2]:

كنتُ وحدي والتواريخ وأمشاج الليالي
في ظلام الرَّحم الكونيِّ تنمو وتُشكَّلْ
كنتُ وحدي وبعرش الله آفاق تُظلَّلْ
واندلاعُ السِّرِّ من جوفيَ كان الصَّرخة الأولى
لطفل العنفوانْ
كان في البدء وما زال تروِّيه الدماءْ
طالما أسقيه ذاتي وأنا سرُّ البقاءْ
راحلاً عنهُ لألقاهُ وأحيي في بواديهِ النَّماءْ
وتفتَّحْتُ بعينيْهِ زهوراً،
ونبوءاتٍ،
وأمطاراً،
وجنَّاتِ إباءْ[3]

ويقول صابر عبد الدايم في قصيدته «أسماء: الثورة، والعطاء، والتحدي»:

أسماءْ
في لُبِّ الأغصانِ نداءْ
لم يُصغ لسيفِ الحجَّاج الغارق
في بُركان دماءْ
لمْ تهتزَّ جذورُ الحقل أمام الإعصار الأمويِّ
المصبوغ بأشلاء ابن عليّ
عيناها اختزنتْ كلَّ تجارب رحلتها
لليوم الموعودْ:
عبدَ اللهْ!
لا حاكمَ إلا الله
لا تُعطِ السارقَ بُستانَكْ
لا تتركْ في وجهِ الإعصار الأهوج أغصانَكْ
صغْ من أوتار هداكَ رماحاً
تُفني منْ يخنقُ ألحانَكْ
واجعلْ منْ نبضِ يقينِكَ صاعقةً
تنقضُّ على من يغتال اللحظة إيمانَكْ[4]

إن صابراً يتكئ على التراث هنا ليعانق هموم الحاضر، وليكون أكثر جرأة في تناولها.

ومن الملاحظ على شعراء الورد أنهم يمتلكون كما يقول المؤلف: «قدرة ملحوظة على الأداء الشعري من خلال الشعر العمودي، وإن غلب على معظمهم النظم من خلال شعر التفعيلة، ويرتفع مستوى بعضهم إلى درجة عالية، مما يؤكد على أصالة الشعراء أولاً، ويؤكد ثانياً على قدرة الشعر العمودي حين تتوافر الموهبة والثقافة والوعي على حمل الرؤية الشعرية المعاصرة بأبعادها المختلفة، وعناصرها المتعددة»[5].

ودرس في القسم الثاني «شعراء الهالوك» الذين يمثلون - كما يقول المؤلف: «حالة من الادعاء والاستعلاء والعدوان في الواقع الشعري

(١) المصدر السابق، ص ١٦٠.
(٢) المصدر السابق، ص ١١٢.
(٣) المصدر السابق، ص ١١١، وانظر لصابر عبد الدايم: المسافر في سنبلات الزمن، ص ٥.
(٤) المصدر السابق، ص ١٢٣.
(٥) المصدر السابق، ص ٦٠.

والاجتماعي المعاصر؛ فهم كالهالوك متسلقون، لا يملكون قدرة على العطاء ولا المنح؛ لأنهم عالة على عناصر وأدوات وظروف غير شعرية بالمرة جعلت لحركتهم ضجيجاً يصم الآذان، وما يقولونه عبر الآلة الإعلامية الرسمية لا قيمة له؛ حيث هو ثرثرة عقيم؛ لا تبشر بأي جديد، ولا تعطي إضافة مفيدة»[1]، ومن هؤلاء (الشعراء): حسن طلب، وأمجد ريان، ومحمد فريد أبو سعدة، وأحمد زرزور، وجمال القصاص، ومحمد بدوي.

يقول أحدهم:

الأرض إمكانية واحدة
أنت تمر فوقها
كالغيم
من مصطبة
إلى مصطبة
تجلس في أروقة الشيوخ
تشهد الأطفال يكبرون
لكي تخط في حلوقهم
مشروعك الدائم
أن يحرروا جسومهم
بالموت
والمكوث فوقها
هذا الشاعر المليء
بالصفائح الفارغة
بالمنازل الفارغة
الصبيان
والبنات
والمعلمين
الكتل البيضاء من عظام الجد
والغاليوم
كافة المهدئات[2]

إنه كلام بلا معنى، لا يقول شيئاً.

ويقول آخر في نموذج سماه: «فهرس» (مع ملاحظة أنه لا توجد أخطاء مطبعية):

تقف البدائيات قرب سفائن الشحن المرام
أتى الصدام بالمرتجى يا بنت
دست رأسها جنب الحقائق
وهي تغلب فكرة رفت على شفة المؤرخ
كان رأس الصقر متسقاً مع العنق المُنَزَّل
صار جفر الكاشفات خبيئهن محركاً للموريات
وجلد بنتي مرهفاً بالكهرمان
أنا وأنت مؤيدان بمحنة
من صنع باب النصر[3]

ويقول آخر مجسداً الله (بأنه يجلس في الكعبة، ويوزع الخبز، ويمسح دموع المنكسرين!!) في قصيدة بعنوان: «باب مكة» (محاكياً تصورات امرأة تكرونية كما يتخيل!!):

وتهمس في أذنيها الأمواجُ:
هناك بمكة بئر الله
وحجر الله
وأن الله هناك
يجلس وسط ملائكة سوداء
يوزع بين المقهورين الخبز
ويمسح بالجلباب دموع المنكسرين[4]

وفي قصيدة أخرى يقول عبد المنعم رمضان، وهو ـ كما يقول المؤلف ـ: «يعبث بالذات الإلهية بطريقة لا تحتمل التأويل أو الدفاع عنها»، يقول:

سمعت صرخة

(١) د. حلمي محمد القاعود: الورد والهالوك، ص ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٨، ١٧٩، نقلاً عن جريدة الحياة (لندن)، العدد (٩٧٩٧)، في ١٣/١٠/١٩٨٩م، وصاحب هذا الكلام عبد المنعم رمضان.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٠، ١٨١، نقلاً عن «الصباحية» ٢/١١/١٩٩٠م، وصاحب هذا الكلام حلمي سالم.

(٤) القصيدة لمحمد فريد أبي سعدة في مجلة «الثقافة الجديدة»، العدد (٤٩)، أكتوبر ١٩٩٢م، ص ٦٢، انظر السابق، ص ٢٠٨.



عرفت أن الله كان ها هنا
وإنني بإذنه
أنحل كالغمام
إنني بإذنه أسرق بعض الريش

«فهو يتعامل مع الذات الإلهية كما يتعامل مع رفاقه الذين يأتون ويذهبون، ثم يسخر من الله - تعالى الله عما يقول علواً كبيراً - حين يجعل من إرادته ومشيئته وإذنه وسيلة لينحل، أو يسرق»(١).

ويشير الدكتور حامد أبو أحمد إلى نص آخر للمذكور يقول فيه:

وهأنذا واقف كالإله المريض(٢)

ويعلق عليه قائلاً: «إن هذا الكلام متهافت، ومعنى ملفق، والفرق بين التعبيرين واضح، والبون بينهما شاسع؛ فعندما يشبه الشاعر نفسه هنا بأنه واقف كالإله المريض، أو واقف كالإله يكون في مجال التعميم، ولعله يشبه نفسه بآلهة الأساطير أو آلهة الوثنية، ولكنه عندما يحدد اللفظ بكلمة (الله) ندخل من مجال التعميم إلى التخصيص، وتصبح المسألة كلها تلفيقاً لا معنى له، وخيالاً مريضاً، وعنجهية كاذبة، خاصة إذا كانت القصيدة في حد ذاتها متهافتة لا قيمة لها»(٣).

«وأشد المتعاطفين معهم، وعرّابهم أحمد عبد المعطي حجازي يقول في كلمة عنهم - كما ينقل القاعود عنه -: «التعمية المجانية وتكلف الإبهام، وإعفاء النفس من معرفة اللغة واحترام القارئ، وطلب الرضا من خارج الحدود نوع من الرفض الذي يعدُّ انتحاراً، وليس الرفض الذي يعد نوعاً من النبل»(٤).

ويقول نزار قباني عن واقع القصيدة العربية التي صارت إليه على أيدي أمثال هؤلاء: «إن القصيدة الجديدة تنتقل بتذاكر مرور مؤقتة، بعضها صالح، وبعضها انتهت مدة خدمته، بعضها إنجليزي، وبعضها فرنسي، وبعضها مزدوج الشخصية. وما لم تعثر القصيدة على جوازها العربي المناسب، فإن تشردها سيطول»(٥).

ويقول عن فهم أمثالهم المغلوط للتجديد في كتابه «الكتابة عمل انقلابي»: «إن الحرية الشعرية هي أخطر أنواع الحريات ولا سيما عندما تُعطى لمجموعة من المجانين لم تكتمل أضراس العقل لديهم بعد، ولا يُفرقون بين الألف وعمود التليفون، وبين الشاعر عمر بن أبي ربيعة والممثل عمر الشريف، وإنه لمن المفارقة أن تكون كل الثورات الثقافية في العالم قد قامت على أكتاف المثقفين والجامعيين، باستثناء الثورة الثقافية العربية التي يُراد لها أن تقوم على أكتاف الفوضويين، والمشاغبين، وأنصاف الأميين»(٦).

بقي أن تعرف أن «الهالوك» نبات متسلق ينبت في شمال الدلتا بمصر، لكن لا جذور له، فمن السهل اقتلاعه وتنظيف الأرض من شروره.

نحن لا نريد اجتثاث الآخر الهالوكي، بل نريد التبصير بخطره على الشعر وعلى اللغة. وفي هذا السياق يأتي كتاب الدكتور حلمي محمد القاعود بعد خمسة أشهر من كتابه: «الحداثة تعود»؛ ليؤكد أن الساحة ليست خلواً لنقاد الحداثة وشعرائها، وأن النقاد المنتمين لهذه الأمة لديهم البصر والبصيرة ليبشروا بما يمكث في الأرض، ويشيروا إلى الزبد والغثاء، ويُدلوا بشهاداتهم في هذا الزمان الأنكد الذي استولى فيه الحداثيون والعلمانيون على مقاليد النشر؛ لكنهم لحسن الحظ لم يتملكوا مقاليد الإبداع والنقد والتواصل مع روح هذه الأمة.

---

(١) المصدر السابق، ٢٠٦.
(٢) عبد المنعم رمضان: دمي صوب كل الجهات، البيان الكويتية، عدد ٢٣٣ نقلاً عن السابق، ص ٢٠٦.
(٣) أدب ونقد، العدد (٢٢)، ص ١٤٠، نقلاً عن السابق، ص ٢٠٦.
(٤) كلمة أحمد عبد المعطي حجازي في الأهرام، ١٩٩٢/١/١م، نقلاً عن السابق، ص ١٨٢.
(٥) نزار قباني، ما هو الشعر، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٨٦.
(٦) الكتابة عمل انقلابي، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٢٣.

أمام صورة المسجد الأقصى

حفيظ بن عجب آل حفيظ

مساء النورِ يا أقصى..

مساء النورِ يا مسرى رسولِ اللهِ ..

صلى اللهُ ..

يا مهدَ الرسالاتِ

مساء النور يا روحَ

البطولاتِ ..

مساء النورِ ..

من قلبي، ومن ذاتي ..

مساء النور يا بوابةَ التاريخِ ..

والمجدِ ..

ويا إشراقةَ الإسلامِ ..

في أيامنا الرُّبْدِ ..

مساء الخيرِ سلَّمناكَ ..

لماذا لا يرى الأعداءُ إلاَّ المسجد الأقصى؟!

وقدَّرنا ..

وفكّرنا ...

وقرّرنا ...

وبعد سنينَ أدركنا ..

بأنَّك مصدرُ العَزّة ..

وأنَّا حينَ سلَّمنَاك كُنَّا نجهلُ المفـهومَ والمنطوق،

والقصة ..

وسِرْنا نسألُ الأعداء ..

نسترضي،

ونستجدي،

ونستهدي،

وحسبَ إرادةِ الأعداءِ ..

حذو القذَّةِ القذّة..

إذا قالوا لنا شيئاً ...

سمعناهُمْ ..

تبعناهُمْ ..

أطعناهُمْ ..

وقُلْنَا : القذَّةَ القذَّة..

ولو دخلوا لجحرِ الضبِ ...
كُنَّا خلفهم نجري،
ونستجدي،
ونسترضي،
ونستهدي،
فهذا مَنْطِقُ التفكير ،
والتقدير، والحكمة..
مساء النور، والخيراتِ يا أقصى..
مساء الذُّل ...
قد بعناك، واخترنا مزايانا...
وحين يزمجرُ الأعداءُ...
ننسى كُلَّ دعوانا ...
لأنَّا في سَلامِ الذل قد بِعْنَا قضايانا ..
مساء الخير يا أقصى ...
أجاءكَ آخرُ الأخبارْ...
أتدري أنَّنا فُزْنَا «بغزة» ...
دونَ باقي الدَّارْ،
وصرنا في أراضينا...
نُقاسمُ دولةَ الكفارْ ...
أتدري أنَّنا أحرارْ ...

تحت ولايةِ الكفارْ ...
أتدري أنَّه قد صارْ ...
في أرضِ الهُدَى سِمْسَارْ ...
يبيعُ بأبخسِ الأثمانِ للكفارْ ...
حتى يأخذَ الأمتارْ ...!
أتدري أنه قد صارْ...
بين المسلمينَ مطارْ ...
مساء الخيرِ، والحسراتِ، والعبراتِ يا أقصى
مساء الخيرِ ...
إنا سوف نرقبهم،
ونبغضهم،
ونحسدهم،
وفي وقت الرضا منهم...
سنشجبهم،
وننكرهم،
فإنْ غضبوا سنسترضي،
ونستجدي،
ونستهدي ،
لأنَّا تحتَ قبضتهم..

رسالة إلى منظمة المؤتمر الإسلامي

د. محمد بن ظافر الشهري

أيُّهذا المؤتَمَرْ

أيها الحُلْم الجميلْ

أنا لن أطلب منك «المستحيل»

علّمَتْني كلُّ دوراتك أن أقنع بالشيء القليلْ

عمقت فيَّ لقاءاتُكَ أخلاقَ القناعة

وانضباطَ النفسِ والبالَ الطويلْ

كلّ ما نَمَّيْتَه فيّ فمِن هذا القبيلْ

آهِ.. لو أنكَ حيّدتَ الشعارات وسوّدتَ الدليلْ

أيها الحلم لك الشكر الجزيلْ

نحن لم ننس قراراتك جيلاً بعد جيلْ

فقراراتك لا تُنسى ولا تخفى

و «هل يخفى القمر؟!»

أيهذا المؤتمرْ

أنا لا أطمع في صدق أبي بكرٍ

ولا عدل عمرْ

بل ولا في شعر حسان بن ثابتْ

إنما أطلب أن تبقى الثوابت

أتمنى..

أن أرى جهدكَ في دفع السفينة

وأرى قلبك في أم القرى أو في المدينة

وأرى كفك تمتد إلى القدس السجينة

وعلى رأسكَ تاجاً من أحاديث صحاحٍ وسُوَرْ

أيهذا المؤتمر

لا تحلّنَّ النزاعاتِ

ولا تُنْه الخلافاتِ

ولا تطوِ المسافاتِ

ولا تلغِ جوازات السفرْ

جئتُ يا «عبد المعينْ»

ومرادي..

أن يسير الشرعُ مرفوع الجبينْ

في ديار المسلمينْ

ويجوزَ الدهرُ أيامَ التَّتَرْ

أيهذا المؤتمر!

أنا لا أطمع أن تقنع لي راعي البقرْ

أن في الغرب تماسيحَ

وفي الشرق بشرْ

لا تعنِّف عَبَدَ الطاغوتِ أو أهل الكتابْ

يوم أن ذقنا على أيديهمُ شتى العذابْ

لا تهزّنكَ صرخاتُ الثكالى

وعويلُ الحرة المفزع بعد الاغتصابْ

أنا لن أمعن في هذا العتابْ

كل ما أطلب أن تشعر يوماً بالخطرْ

أيهذا المؤتمر

خذ من الحكمة ما شئتَ وما شئتَ قَذَرْ

فعلى وجهكَ لا تظهرُ آثارُ الكِبَرْ

أنتَ والله في أعيننا أصغر من «طفل الحَجَرْ»

أيهذا المؤتمر

أيها الحلم الجميلْ

أنا لن أطلب منك «المستحيلْ»

علمتني كل دوراتك أن أقنع بالشيء القليلْ

عمقت فيَّ لقاءاتُك أخلاقَ القناعة

وانضباطَ النفسِ.. والبالَ الطويلْ

أيها الحلم لك الشكر الجزيلْ

فأنا أدركُ أن الخيرَ خيرٌ.. وبأن الشرَّ شرّ

وبأن الجِدَّ جِدٌّ.. وبأن المؤتمرْ

مؤتمرْ!



حوار مع الدكتور محمد الراوي

أجرى الحوار: وائل عبد الغني

ضيفنا في سطور

- يعمل حالياً عضواً في مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر بعد عمر - بارك الله فيه - جاوز السبعين.
- تخرج في كلية أصول الدين جامعة الأزهر.
- خدم القرآن الكريم أستاذاً وخطيباً وإذاعياً.
- عمل قرابة ربع قرن أستاذاً ثم رئيساً لقسم التفسير بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

من مؤلفاته:

- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية.
- كلمة الحق في القرآن الكريم موردها.. دلالتها.
- حديث القرآن عن القرآن.
- الرضا.
- الإنسان في القرآن.

البيان: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فأهلاً برجل نحسبه من أهل القرآن ولا نزكيه على الله، ومرحباً بمن عَمَرَ عُمُرَه بالقرآن على صفحات مجلتكم.. مجلة **البيان**.

فضيلةَ الدكتور! بما أنكم من المتخصصين في القرآن وعلم التفسير؛ فهل لنا أن نسأل عن درس التفسير: لماذا لم يعد له رونقه وحضوره على الساحة الإسلامية العامة كما كان من قبل؛ حيث حرك الدعوات وسيَّر الحركات، كدروس ابن الجوزي وابن تيمية قديماً وابن باديس حديثاً؟

■ من رحمة الله بالأمة الإسلامية أن حفظ هذا الكتاب، وهو القرآن وتكفل بحفظه، ولم يدع حفظه لأحد من خلقه كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ . [الحجر: ٩] .

من تدبر القرآن وكأنه نزل الآن فلا يحتاج إلى تكلف في فهمه ولا عسر ولا مشقة، متى تفتحت له القلوب واستعدت النفوس، وتهيأ الجو المناسب لتوجيه الأمة إلى العمل بكتاب الله؛ لأن التفسير الحقيقي للقرآن هو نفس القرآن؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، والبيان إنما يكون من رسول الله ﷺ، بما ثبت عنه قولاً وعملاً وإقراراً.

إذا نظرنا للمسألة من هذه الناحية بالذات أدركنا أن هذا البريق لا يمكن أبداً أن يضعف في يوم من الأيام، أما إذا كان التوجه للقرآن لأسباب شتى غير العمل به، فهنا يمكن أن يردٌ

ما قلت، أما عندما يراد العمل به فسيكون في متناول الجميع بلا عسر ولا حرج ولا مشقة ولا تكلف؛ فالأمر كله مرتبط بالقرآن نفسه، ولا يمكن أن يتبدل مع الزمان أو يغيب، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] فهو نور وهداية لمن فتح ملكاته واتبع سبيل ربه، والأمر لا يتوقف في هذا على المفسِّر وحده.

البيان: إذن كيف ترون الأمر؟ لأن هناك مشكلة ـ بلا شك ـ في عدم تمحور الناس حول كتاب الله ـ تعالى ـ كما كانوا من قبل، وأحسب أن درس التفسير ذا القبول العام يمكن أن يعيد الناس إلى الجادة؛ فلماذا اندرس إذن؟

■ صدقني المشكلة ليست في درس التفسير بقدر ما هي مشكلة الناس! الناس اتخذوا هذا القرآن مهجوراً؛ وهذا القرآن لا يمكن ـ أبداً ـ أن يعطي من اتخذه مهجوراً. ولا أعني بالهجر مجرد قول المشركين: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وإنما هجره بالبعد عن تحكيمه واتباعه كما يجب أن يكون، واتباع الأهواء؛ فتدبر معي قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

هذا هو شأن القرآن نزل ليُتدبر وليعمل به، ومتى غاب التدبر والعمل يصبح الكلام عن القرآن كلام تعالم وبحوث تُملأ بها الأدراج وتؤخذ عليها الشهادات، فيصبح الناس في وادٍ والقرآن في وادٍ آخر.

البيان: ولكن المشكلة كما تقولون فيمن يبلِّغ هذا القرآن؟

■ القرآن في ذاته بلاغ، ومن فضل الله أنه يتلى على الناس صباح مساء حتى من إذاعات الأعداء، ولكن المشكلة في الهجر؛ هجر الاتباع وهجر العمل به. الحفَّاظ يملؤون الآفاق، وكليات القرآن وأقسام التفسير وعلوم القرآن كثيرة، لكن القرآن نزل ليحكم سلوك الناس وروابطهم وأعمالهم؛ فهل يسمح له بذلك؟

البيان: لكن هناك حلقة أو حلقات مفقودة في ربط الناس بالقرآن، وأحسب أن درس التفسير بمقوماته الناجحة ـ والتي نسأل عنها ـ يمكن أن يلعب دوراً كبيراً قد لعبه من قبل في هذا الباب؟

■ درس التفسير ليس هو كل شيء بعدما أصبحت الوسائل الآن أمام نظر الناس متعددة ومتنوعة في جميع الاتجاهات.

والمشكلة التي ينبغي أن تُبحث هي: كيف نجعل هذه الوسائل على اختلافها خادمة لرسالة القرآن في جعله موجهاً لحياة الناس؟ هذا لا يتوقف على التفسير وحده في ظل الوسائل العصرية المتعددة والمتشابكة التي تحتاج إلى تفكير موضوعي في كيفية الإفادة منها؛ وللأسف فإن هذه الوسائل أصبحت تشوش

علينا أكثر من كونها تخدمنا.

بالأمس كان الرجل يجلس على شاطئ الأطلسي غرباً وخليفة المسلمين في الشرق والرابط بينهما هو القرآن، واليوم لدينا وسائل اتصال على تنوعها من إذاعات موجهة وقنوات فضائية، لكنها فرغت من مضمونها فكان البون شاسعاً.

القرآن وحده كافٍ لو سمحنا له أن يطرق القلوب وأن يؤدي رسالته فينا، ولا يكون نصيبه منا هو تشييع الموتى وإقامة الجنائز والإشعار بالتبرك، وإذا صُرِفَ القرآن عن غايته فماذا يفيد الذي يدرسه؟

البيان: وكيف يمكن للأمة أن تستفيد من القرآن وهي في وضعها وحالها كما ترون؟

■ لا يمكن أن تستفيد الأمة بالقرآن إلا إذا راجعت موقفها منه، وبحثت كيف استفاد أصحاب رسول الله ﷺ منه؟ كيف عملوا به؟ كيف كان هو وسيلة الاتصال مع ما بعدت به الديار؟

الأمر يحتاج لأمة تتضامن لتعمل وتأخذ بالأسباب، ولا يصلح الأمر إلا بأسباب الصلاح التي جعلها الله كذلك، والله ـ تعالى ـ جعل لكل شيء سبباً فلا نضع سبباً مكان آخر.

ومن أولى الأسباب في أداء رسالة القرآن فينا أن نصحح أمر الإنسان، وأن نعلم أنه هو الأصل في أي نهضة أو حضارة أو تصحيح؛ فالإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة، والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة.

والقرآن لم ينزل إلا من أجل الإنسان والمحافظة عليه في سلوكياته وروابطه وعمله واعتقاده، وفي علمه ومعرفته بحكمة خلقه وغاية وجوده، إذا نجحنا في أن نعيد الفرد ليتربى على القرآن وينهل منه كما نهل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذ كانوا يتعلمون الآيات عشراً عشراً يدرسونها ويحفظونها ويعملون بها، فأخذوا القرآن فهماً وقولاً وعملاً.

أقول إذا نجحنا في هذا نكون قد نجحنا بتوفيق الله في تقديم المثل الحي الذي يشار إليه، فيقال هذا نبت القرآن، ونكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح.

البيان: ولكن القرآن يحتاج إلى موقِّف يفسر للناس معانيه؟

■ في رأيي الأهم هو المنهجية التي يتعامل بها الناس مع القرآن. نعم! دور المفسر مهم في بيان الدلالة، ولكن لو نظرت إلى آيات القرآن لوجدت أن أغلبها لا تحتاج إلى بيان الدلالة لو وُجِدت القلوب المقبلة المتفتحة، وهذه هي معجزة القرآن: أنه ميسر ليس فيه تعقيد.

اقرأ معي قول الله ـ تعالى ـ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

هل ترى كلمة واحدة تحتاج إلى تفسير؟ خاصة وأنت ترى دلالتها في الواقع: الأرض قرار وأنت تمشي عليها وتأكل منها، وتنبت منها، وتدفن فيها.

"الإنسانية ستدفع ثمن بعدها عن القرآن غالياً؛ لأن مدنية الغرب خاطبت في الإنسان شهوته وأهملت فطرته"

البيان: لأهل القرآن المشتغلين العاملين به حلاوة وروح قلَّ أن تجدها في غيرهم؛ فما السر في ذلك؟

■ السر هو العقيدة الحية التي يتربى عليها المرء وهو يعايش القرآن، والقرآن كله كتاب عقيدة من أوله حتى آخره مدنيه ومكيه.

لكن العقيدة حين يعالجها القرآن تجد فيها حياة وحركة تكاد ألاَّ تنفصل عن حياة الناس، ولو تدبرنا القرآن لوجدناه يوجه مظاهر الكون التي نراها كلها إلى الاعتقاد. انظر على سبيل المثال كيف ربط الحر وهي ظاهرة كثيراً ما يعاني منها الإنسان بحقيقة أخرى هي النار؛ وهذا توجيه دائم متكرر في القرآن؛ فحين قال قائل في غزوة تبوك: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

[التوبة: ٨١].

جاء الربط مباشرة بالعقيدة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ لتظل هذه الظاهرة تذكِّر دائماً بالنار التي ينبغي أن يظل اتقاؤها وازعاً في حياة الناس وإن شغلتهم الشواغل.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ [فصلت: ٣٩] كم يتكرر هذا المشهد أمام الإنسان يرى الماء أمامه ينبت به الزرع، لكن القرآن ينقل هذه الصورة ليحقق اعتقاداً إن غاب عن المجتمع غاب معه السلام الحقيقي والأمن الحقيقي؛ وهي قضية البعث؛ ولذلك تجد في أكثر من آية: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] إلى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٠].

استخدم حركات الكون أمامك ليربطك بالله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

حقائق وجود الإنسان خذ منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٦ ـ ٨] انظر كيف جعل: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ كافة لطغيان الإنسان.

انظر حين يأخذك في رحلة في سورة الأنعام أو في الروم أو في غافر تجده يأخذك في الرحلة ثم يقول: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ومن قبلها يريك الحبة كيف تنبت ويجعلك تشاهدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥] ثم يريك الليل والنهار: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾.

[الأنعام: ٩٦].

يريك النجوم، يريك نزول الماء وإنبات الزرع وتنوع النابت منه وبعد ذلك كله يقول: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلق وقدر وأوجد: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شيءٍ وكيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. ربط بين أن الأمر والخلق له وحده وبين توحيده بالطاعة والعبادة: ﴿ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

[الأعراف: ٥٤].

هذه المعايشة ربما غابت عن غير أهل القرآن في زحمة همومهم، وربما زاد منها تعلق النفوس بأسباب الحياة الحديثة (التكنولوجيا والمادة) مع أن الله خلق المادة وأوجد العقل، هذا الحضور نحن محتاجون إليه في كليات حياتنا وجزئياتها، وهو ما يجده الإنسان في القرآن دون كتب العقيدة؛ فكتب العقيدة مع ما أدته من دور مشكور في حفظ عقائد الإسلام وتصفيتها من الشوائب إلا أنها قدمت العقيدة بأسلوب لا يخلو من جفاف؛ فهي قد قدمت العقيدة لكنها لم تقدم روحها العملية الموجودة في القرآن، وهذه معجزة من معجزاته.

البيان: لكن القرآن عقيدة، وشريعة، وسلوك؛ والقرآن اهتم بها ثلاثتها؟

■ العقيدة تمثل روح القرآن كله؛ وما كان للشريعة والسلوك أن ينتظما دون عقيدة، والقرآن سواء مكيه ومدنيه اهتما بالعقيدة، وما يقال من أن المكي اهتم بالعقيدة والمدني اهتم بالتشريع هو من باب التقريب لا من باب التحقيق؛ لأني لا أرى آية في القرآن تخلو من العقيدة.

وأضرب لما قلت بمثل قضية الخطبة، انظر كيف ينتظم أمرها بالعقيدة: يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] والآية في سورة البقرة وهي مدنية، وما كان أمر الخطبة يتزن في النفوس لولا اللمسة الأخيرة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ هذه اللمسة جعلت التشريع أمامك يتزن ظاهراً وباطناً.

أعود فأكرر: هذه العقيدة الحية المبثوثة في آيات الله وفي آيات القرآن في تشريعه في أحكامه وآدابه هي التي تكسو المتبع للقرآن بثوبها والله ـ تعالى ـ قد أمر نبيه ﷺ أن يصرح بما أمره الله به حيث أمره بأمور ثلاثة هي:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١ – ٩٢] وتلاوة القرآن مع قرينتيها هي من أعظم أسباب الهداية.

البيان: لكن مثل هذه الحقائق: مَنِ الذي يجليها للناس؟ أليس هو المفسِّر؟

■ طلبة العلم موجودون بوفرة ونحسبهم صادقين؛ لكن التوجه الذي أسرت فيه الأمة بغارة لا نظير لها في تشابكها، في الأرض والهواء والماء وفي الكلمات وفي المعاني، هذه الهجمة الشرسة ـ دون سابقة ـ دخلت غرف النوم وغزت صميم الأسرة وتكوين المجتمع. أنا لست متشائماً؛ لأن القرآن باق، وأعني بالقرآن القرآن والسنة؛ لأن الله تكفل بحفظهما، ولكن الإنسانية التي أعرضت عن القرآن ستدفع الثمن غالياً جداً لهذا الانحراف الكلي؛ لأن مدنية

العصر مع اعترافنا بما فيها من إيجابيات قد خاطبت في الإنسان شهوته وأهملت فطرته.

البشرى ماثلة أمامي في آيتين من القرآن:

الأولى: قوله - تعالى -: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨].

والثانية: قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾.

[المائدة: ٥٤].

فتربة القرآن خصبة ولأدة للأجيال.

والأمة الإسلامية على الرغم من الحصار فما زالت روح الإيمان تسري فيها؛ نعم! هي مليئة بالمشاكل؛ لكن مشاكل غيرها أكثر، فمشاكلنا ببساطة يمكن توجيه الشعوب فيها في ساعات حاسمة تأتي فيتوجه الكل إلى الله، لا ننكر أن ثيابنا من نسجنا، وأن ما نزل بنا من أنفسنا فينبغي ألا نلقي اللوم على غيرنا، والمخرج مما نحن فيه هو القرآن.. القرآن كما علمه النبي ﷺ وتعلمه أصحابه رضي الله عنهم.

البيان: هذا يجعلنا نسأل عن الجانب الأكاديمي: كيف نوظفه في خدمة القرآن؛ فهو بالرغم من توسعه أفقياً فإنه لم يَرْقَ بنفس المستوى رأسياً؟

■ المشكلة هنا في فلسفة التعليم عندنا، وارتباط التلقي فيها بالحفظ دون الفهم وقدح الأذهان، والحفظ هنا ارتبط بعلة أخرى هي أن غايته نيل الدرجات والشهادات، فأصبح العلم الأكاديمي نظرياً جامداً بعيداً عن مشاكل الأمة.

والقرآن علم وعمل هكذا وعاه السلف؛ ولهذا أرى أن الأسلوب العملي «العلم للعمل» هو الأسلوب الناجح بإذن الله.

التطبيق العملي لآيات القرآن، والبحث عن الحلول للمشاكل اليومية للأمة ينبغي أن يكون شغل الأكاديميين الشاغل. كان أصحاب النبي ﷺ يقرؤون آيات الجهاد - مثلاً - ثم يرون التطبيق العملي للآيات مباشرة فكأنما عُجنوا بماء القرآن.

وإذا كانت الأمة الإسلامية غارقة اليوم في المشاكل والهموم فلماذا لا يوجه الباحثون كل هذه المشاكل لبحثها من القرآن لنيل الدرجات العلمية؟ وفكرة المشروع التي يطبقها الغرب ونادى بها البعض هي فكرة جديرة بالتطبيق في هذا المجال. أما الدراسة التي تتم داخل حجرات مغلقة، والتي تفصل الطالب عن واقعه فهذه لا تفيد كثيراً.

البيان: هناك قضية مهمة تقابل الناس اليوم في تعاملهم مع القرآن، وهي أن كثيراً من الألفاظ قد فُرِّغت من مضمونها أو حُرفت عن معناها كما أشرتم، مثل لفظ: السلام أو العلم أو الجهاد، في ظل واقع متراكم؛ ألا ترون أن هذا يؤثر على التعامل المباشر مع القرآن؟

■ الإقبال على القرآن ذاته يصحح كثيراً من المفاهيم، وإن كان الأمر يحتاج جهداً دؤوباً من العلماء وطلبة العلم في ربط هذه الألفاظ بمعانيها القرآنية ونشرها بين الناس. من المؤسف جداً أن كثيراً من كلمات الإسلام طُمست في حياة الناس! وظلم هذه الكلمات جعلنا لا نحسن

"المخرج مما نحن فيه هو القرآن كما علمه النبي ﷺ وتعلمه أصحابه"

التصرف في كثير من الأمور. من هـذه الكلمات - على سبيل المثال -: الجهاد؛ مفهوم الجهاد وحده يستوجب عشرات اللقاءات من مثل هذا اللقاء لكشف الخلط الذي حدث فيه؛ فهو أكبر من أن يوصف؛ لأن الجهاد الذي أمر به الإسلام مصلحة لجميع المخلوقات، والمخلوقات جميعاً مصلحتها في أن تكون كلمة الله هي العليا؛ لأنه عبارة عن دفع شر وإقامة خير في مجمله، لذلك من الظلم البين أن يتبع العالم (إسرائيل) حين تلصق لفظ الإرهاب - كما هي عادتها في التحريف والتزييف - بالمفهوم الشرعي للجهاد.

لا شك، فإن هذا الخلط يستوجب على الأمة هبَّة تستجلي فيها مفاهيمها بعيداً عن التلقي من غير القرآن.

البيان: قلتم منذ قليل: إن الله - تعالى - قد جعل لكل شيء سبباً؛ وقضية السببية من القضايا المهمة في واقع المسلمين اليوم، ألا ترى أنها قد ظُلمت بين التواكل الذي ظلم به الإسلام وبين ردة مادية تُنزِل الغيب منزلة المعدوم؟

■ لا بد للأسباب أن تكون مرتبطة بأمر راسخ هو العقيدة، وعقيدتنا هي الأصل في تكويننا، هذه القضية قد جلاَّها القرآن أيما تجلية، وحياتنا مليئة بالمواقف التي تحتاج لأن توزن بميزان القرآن.

والقرآن يضفي على الأسباب سَمْتَه، ويطلق الإنسان من أسرها حين يعلِّمه أن الأخذ بالأسباب طاعة والتفريط فيها معصية، ويضبط هذا بجعل الركون إليها من دون الله مضيعة ومفسدة، وقد ضرب القرآن كثيراً من الأمثلة لذلك مثل قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فالتداوي سبب مأمور به لكن الركون إلى الطبيب أو الدواء في طلب الشفاء شرك وظلم قد نهانا الله - تعالى - عنه.

ومرتبة أعلى من هذا أن الله - تعالى - قد جعل أسباباً تفضي إلى طاعته - تعالى - وهي لم تكن أسباباً إلا أن الله جعلها كذلك ليدلنا على قدرته، وكون أنه مسبب هذه الأسباب؛ فأمر الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يضرب بعصاه البحر، وهو أمر عجيب في النتيجة التي يوصل إليها؛ لأن العادة تقتضي أن ضرب الماء بالعصا يطاير الماء في وجه الضارب؛ فهذه سبب لتلك، ولكن حين يسبب الله السبب ويأمر به يكون الأخذ به طاعة وفلاحاً وإن بدا بادي الرأي غير ذلك.

وضرب المثل بالعصا لقوم موسى المغرقين في المادية هو رد لهم ولأمثالهم عن غلوهم في المادة ليتقرر في النفوس حقيقة أن الله - تعالى -: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهي حقيقة يجب أن تستقر داخل نفس كل مسلم.

المسلمون والعالم



الدلالات الإعلامية في انتفاضة القدس

حسن قطامش

دخل أحد الجنود الصرب على أم بوسنية مسلمة في مطبخها، وكانت تعد طعام الغداء، ففتح إناء الطعام الساخن، وسألها: ألا يوجد في طعامكم هذا لحم؟ فأجابته بالنفي، فبادر الجندي الصربي بوضع قطع من اللحم في ذلك الوعاء وهو على النار.. كان هذا اللحم هو أشلاء ابن هذه المرأة، الذي قُطِّعت أوصاله أمام عينيها!!

حادثة بشعة قرأناها في الصحف.. لم نرها، ولم تصورها عدسة مصور، لا ثابتة ولا متحركة حتى تتحرك معها القلوب عطفاً وشفقة.

صور أخرى عُرضت في أحد المواقع الإسلامية الإندونيسية عن المجازر البشعة التي ارتكبت في حق مسلمي جزر الملوك، رأيتها، ورآها كثير من الناس، في هذا الموقع، وفي أماكن أخرى، جرائم تقشعر لها الأبدان، رؤوس مفصولة عن الأجساد، أطراف ممزقة، بطون مبقورة ومحشوة بالأحجار، عُلِّق الأطفال على الأشجار وهم أحياء، واستُخدِمُوا أهدافاً للتدريب عليها بالخناجر والبنادق، وكان يُرفع بعضهم إلى الهواء ويتلقاهم النصارى على أسنة رماحهم التي تخترق الأجساد الغضة.

هذا واقع حقيقي، ونشر في عدد من المطبوعات العربية،

ونشرت بعض المجلات تحذيرا لأصحاب القلوب الضعيفة من أن في الداخل صورا مروعة!!

وجاءت انتفاضة الأقصى الأخيرة لتحمل في طياتها مجازر جديدة للمسلمين، ولتضيف أرقاماً منهم إلى قوائم سبقتهم في ذات الطريق.

وجاء مقتل الطفل محمد الدُّرة ليزيد من آلامنا الكثيرة، كان أول إحساس انتابني عندما شاهدت صورة الحادثة الأليمة أنني تخيلت نفسي مكان ذلك الأب، وماذا عساي أن يكون شعوري في هذا الموقف، ولَكَم هو ألمي وعجزي؟!

لم يكن مشهد قتل محمد الدُّرة بأشد بشاعة مما ذكرت عن تلك الأم البوسنية، ولا يقارن بما حدث لأطفال جزر الملوك المسلمين بحال.

ولم يكن محمد الطفل الفلسطيني الوحيد أو الأول الذي قتل على يد يهود، بل سبقه آلاف.. بنفس الرصاص.. من نفس البندقية.. من نفس العدو.. في نفس البلد.. فلماذا فعل مشهد موته ما فعل، وهو مجرد طفل كغيره من أبناء الأرض المباركة؟

ما الذي جعل صورته تصل إلى كل بيت، واسمه يردد على كل الألسن؟ وما الذي جعلني أكتب هذه الأسطر عنه، وسبقني مئات سطروا المقالات والقصائد حول موته؟ ما الذي صنع من موت طفلنا هذه القصة الكبيرة التي ألهبت الحماس، وأججت الصدور حقداً وغيظاً؟

إنهم السَّحَرة[1]!! السحرة الجدد، سحرة الصورة المتحركة، والبث المباشر، والإعلام الحي، وأكاد أجزم أن هذه الجريمة البشعة كانت ستلحق بأخواتها في سجل النسيان المرير، لولا هذا التكرار، والنكء المستمر للجرح الأليم.

لقد كان للإعلام بلا شك دور رئيس في أحداث انتفاضة الأقصى، كما له الدور ذاته في جوانب أخرى من حياتنا، إيجابية وسلبية، إلا أنه في هذه الأحداث ظهرت دلائل هامة من خلاله، أظهرها هو، فكان منها ما يحسب له ومنها ما يحسب عليه، أو ظهرت بتأثيره وبصدى الفاعلية المؤثرة التي صاحبته في تلك الأحداث، فكان لا بد من قراءة لهذه الدلالات بإيجاز.

ولا أحسب أنني أذهب بعيداً إن قلت إن حجم التغطية الإعلامية لأحداث الأقصى كان العامل الأكبر في تفاعل الجماهير المسلمة في كل مكان، وهو ما أدى بدفع القمة العربية إلى الانعقاد في القاهرة، نزولاً على ضغط الشارع وغضبه ـ ومحاولة لإسكاته بالطبع ـ ولم يكن هذا الغضب إلا صدى لهذه الحملة الإعلامية. ولذلك من غير المستبعد أبداً أن يلعن بعض من الناس المصور الفلسطيني الذي قام بتصوير المشهد، كما لُعنت القناة الفرنسية وأخواتها بسبب ما جرَّته تلك المشاهد مما تلاها.

---

(١) على المعنى اللغوي لا الشرعي، قال الأزهري: وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره. لسان العرب، ج ٦/ ١٨٩.

كانت الدلالات كثيرة ولها مغازٍ هامة، منها:

١ - كانت أهم النقاط الإيجابية التي ظهرت هي مدى وضوح العداوة والبغضاء في قلوب الجماهير المسلمة لليهود، وإدراك أن الصراع معهم صراع ديني، وأن تلك الحملات التي ما فتئت تحرض على التعايش السلمي مع اليهود، وتقبل الدولة الصهيونية كجارة يجب أن تُعطى حقوق الجيران التي حث عليها الشرع!! لم تؤثر في الأمة المسلمة بالحجم الذي يوازي ثقل هذه الحملات وثقل المنافحين عنها والمحركين لها.

٢ - أثبتت الجماهير المسلمة - وبالرغم من عدم التوجيه المباشر لها - أن الأمة ما زالت حية، بل تنبض بالحيوية في كافة فئاتها، أرتنا الأحداث نماذج تنحني لها هامات الرجال وقمم الجبال، لم يحتج الأمر لديهم لإظهار مشاعرهم وصدق إيمانهم إلى فلسفة أو تنظير أو كثير تفكير أو تعمق واستعراض واستقراء للواقع وتحولاته أو موازنات أو غير ذلك، سمعنا عن أطفال يغتسلون قبل نزول الميدان المفتوح في كل فلسطين يرجون الشهادة، سمعنا عن أطفال قطعوا القفار رغبة في نصرة إخوانهم المسلمين، وقرأت ذلك الحوار الذي أجري مع الطفل أحمد شعراوي (١٣ عاماً) بعدما أعادته السلطات المصرية من حدود مدينة رفح إلى والده، وقد سأله المحاور: ألم تفكر في أمك وأبيك، أختك، أهلك، والقلق على غيابك؟ أجاب - وانظروا الإجابة من طفل - قال: لو فكرت في ذلك فلن أقدر على فعل شيء، هناك أشياء أكبر لا بد أن نحبها أكثر من أنفسنا وأهلنا، أكثر من أي شيء. وسأله المحاور: هل أنت سعيد بما فعلت؟ أجاب: كنت سأبقى سعيداً جداً لو نجحت ودخلت فلسطين واستشهدت هناك!! وقد سأله والده: كيف ستصنع في مراجعة المواد التي تأخرت فيها؟ فأجابه: الذي يذهب للجهاد لا يرجع مرة أخرى!!

وسمعنا بالأمهات اللواتي يباركن خطوات فلذات أكبادهن نحو الموت والشهادة، وعن الشباب، فحدِّث ولا حرج، رأينا في الأمة كلها الحياة. رأينا الأيدي البيضاء التي تصدقت من مالها، وجاءت بذهبها وفضتها طيبة نفوسها في سبيل نصرة إخوانهم في الدين، كانت صورة التبرعات من أجلى صور صدق الولاء مع المسلمين، ودليل حياة في القلوب.

٣ - القناعة التي ظهرت لدى تلك الجماهير من أن الحل الأمثل لهذه القضية - إن لم يكن الوحيد - هو الحل الإسلامي، الجهاد في سبيل الله؛ حيث ترسخت القناعة بإخفاق كافة الحلول إلا هذا الحل، وقد أخبرني مَنْ شاهد إحدى المحطات الفضائية أن إحدى المذيعات سألت فتاة متبرجة عن رأيها في القمة العربية الأخيرة، وهل ستحل الأزمة الحالية؟ فأجابت: لن تقدم القمة أي حلول!! ومن وجهة نظري أن تعطوا

(حماس) مالاً وسلاحا وستقوم هي باللازم!!

قناعة - وإن كان يشوبها بعض القصور والبراءة - إلا أنها تحمل في طياتها استقراراً لمفاهيم جديرة بالإشادة والتحفيز.

بل أصبحت هذه القناعة أكثر رسوخاً لدى أعداء الإسلاميين، وأنهم أهل للأخطار الكبيرة، وإلا فما مغزى إطلاق عرفات لبعض أفراد حماس مهدداً بهم إسرائيل، ثم عاد بعدما أعاد النظر وتعقل واعتقلهم مرة أخرى؟!

حتى يهود أعادت تلك الأحداث هذه القناعة لديهم وأكدها الجنرال (داني روتشيلد) مدير قسم الأبحاث السابق في جهاز الاستخبارات العسكرية حين قال: «ويل لدولة إسرائيل إذا سمحت للأصوليين أن يكونوا بمثابة الجبهة التي تتطلع إليها الجماهير العربية»، أما المستشرق والباحث في شؤون الحركات الإسلامية في مركز ديان للأبحاث (د. إيلي ريخس) فقال بصراحة: «كل نجاح للإسلاميين يمثل خسارتين في آن معاً؛ فمرة لأن الخوض في مواجهة ذات طابع ديني ويقودها متدينون مسلمون صعبة لنا، ومرة أخرى؛ لأن نجاح الحركات الإسلامية يعني إفلاس الأنظمة العربية في نظر الجمهور العربي؛ وهذا أمر لا يقل خطورة عن الأول؛ لأننا يجب أن نكون معنيين بأن تكون الأنظمة الحاكمة مقنعة لجمهورها»!!

ازدياد تلك القناعة لدى فئات عدة، لا بد أن يزيد قناعة الإسلاميين أنفسهم بصحة قضاياهم ومنهجهم وطريقهم الذي يسلكونه طلباً لرضى الرب الكريم.

٤ - لم يفلح الاستفراد الإسرائيلي بفلسطين بعد اتفاقية السلام مع عرفات في عزل الشعوب المسلمة عن قضيتهم الكبرى؛ ففي الوقت الذي استراحت فيه دول من حمل هم القضية، وأن لفلسطين رئيساً يحميها، وتخلت تلك الدول عما كانت تسميه دعماً سياسياً للقضية بصورة مباشرة، واكتفت بالبروتوكولات الباردة من شجب وإدانة وتأييد على صفحات الجرائد الرسمية، لم يحمل هذا الشعوب على التخلي عن قضية فلسطين، وأثبتت الأحداث أنها ما زالت في بؤبؤ العين وعين القلب.

ومن هنا فقد زاد اتساع الهوة بين الشعوب والحكومات، وإن كانت الشعوب على حالها الراهن لا تستطيع تغييراً كبيراً في الأحداث لقلة حيلتها وهوانها على الحكومات، إلا أن الحنق والغضب والازدراء ازداد في النفوس، والقناعة بعدم أهليتها لتحقيق مطالب الأمة أصبحت يقيناً، وهو أمر إيجابي للغاية؛ فلم تعد الشعوب تقنع بامتصاص غضبها بمؤتمرات قمة أو غيرها.

ولقد كان الموقف الشعبي من القمة الأخيرة ونتائجها في غاية الوضوح، بل كان واضحاً قبل انعقادها؛ فمن خلال استبيان أجري في أحد

المواقع على شبكة الإنترنت أفاد ٨٨٪ من المشاركين أن القمة لن تسفر إلا عن الإدانة والشجب.

ولا يدفعنا هذا الموقف من الجماهير المسلمة إلى الوقوع في الوهم الجماهيري، وأنها قادرة بمفردها على التغيير بغير توجيه واستفادة قصوى من طاقاتها بحسب ضوابط واضحة؛ فهي تقاد ولا تقود، ولا يدفعنا ذلك كذلك إلى إغفال دورها وثمين حياة قلوبها مع قضايا الأمة.

كما شاركت الجماهير فئات من الناس يعدون من سقط متاعهم، كالفنانين والراقصين، تفاعلوا مع القضية وتظاهروا واعتصموا وغنوا ورقصوا من أجل القضية!! يجب ألاَّ ينسينا هذا التفاعل حقيقتهم، وأن يوضعوا في الحجم الحقيقي لهم، وإن كان الملمح هنا أنه حتى أولئك تأثروا وتفاعلوا.

٥ - أسقطت هذه الأحداث ورقة التوت الأخيرة التي كان يستتر بها دعاة السلام والداعون له والمنظرون لثقافته؛ فها هي المذابح تقع الآن تحت غصن الزيتون الذي يرفعونه، وأظهرت أن غصنهم الملعون يسقى بدم الأبرار، وأن ثماره بنادق وصواريخ تحرق القلوب والأجساد، وتخرب الديار، ورغم ذلك، ورغم القناعة التي ترسخت لدى قطاع عريض من الناس، عامتهم وخاصتهم بإخفاق ما يسمى مسيرة السلام إلا أن بعض أولئك لا يزالون يدافعون عن إسرائيل ويراهنون على طاولة المفاوضات ويقبضون على شفاههم استنكاراً لفكرة الجهاد.

أحد أولئك التطبيعيين حتى النخاع وهو المسمى (علي سالم) يقول في ذروة الأحداث الأخيرة: «إن إسرائيل تضم الملايين من دعاة السلام، ولكنكم في العالم العربي ترون أن الحق في جانبكم فقط وأن الآخرين هم الجناة، نحن نعيش حالة حرب في عقولنا فقط، ونرفض الاستماع إلى أصوات السلام داخل إسرائيل، إن من العبث تصور أن إسرائيل وحدها المخطئة، لقد رأيت صورة محمد الدُّرة، ورأيت أيضاً الجنود الإسرائيليين الثلاثة وهم يذبحون وتحرق جثثهم لماذا تتجاهلون ذلك أيضاً، لقد انتصر اتجاه العنف في النهاية!!».

ومن نفس جماعة كوبنهاجن يخرج آخر، وهو ناشر وكاتب يدعى (أمين المهدي) ليزايد على قرينه في السوء ويقول: «نعم، ما يجري (من الفلسطينيين) عودة لسيطرة الفاشية وإحراج قوى السلام في إسرائيل؛ فحركات السلام كانت في الحكم!! وكانت تضغط في اتجاه إقرار السلام، لكن ما جرى عصف بكل شيء، فحتى المظاهرات التي خرجت في الشوارع العربية لم تكن إلا تمهيداً لهذه الفاشية، والمقاومة التي تقوم بها حماس هي أيضاً قسم من هذه الفاشية وليست في صالح

الشعب الفلسطيني، أنا أتحدث لمصلحة الشعب الفلسطيني، وهذا الشعب عليه إدراك أن من يهتف بالقدس عربية أو إسلامية، لا يريدون الخير للشعب الفلسطيني؛ لأن القدس فلسطينية، لا عربية ولا إسلامية!!»[1].

ويبدي أحدهم أسفه الشديد، ويشير التعاطف مع اليهود؛ حيث إن قطاعات مهمة واعية بين الإسرائيليين واليهود عالمياً يؤمنون بمنهج اللاعنف، وما زال الجميع منهم يعملون ضمن جماعة «السلم الآن» وغيرها من المنظمات اليسارية الإسرائيلية، وكثيراً ما يشعر هؤلاء بالحرج والحيرة عندما يجدون الفلسطينيين يضربون إخوانهم الإسرائيليين بالحجارة أو الرصاص أو العمليات الانتحارية[2].

ونسوق لهذا التعيس خبر رفض المسؤولين في حركة «السلم الآن» الإسرائيلية تنظيم أية مظاهرات تأييداً لعملية السلام؛ فقد قال إميرام جولد بلوم أحد قادة الحركة: «إننا نشعر بالإحباط؛ لأن إسرائيل قامت بخطوة كبيرة نحو السلام والفلسطينيين ولكن لم يحذُ الفلسطينيون حذوها، إن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك قدم للفلسطينيين تنازلات في قمة كامب ديفيد لم تحدث من قبل، وخاصة في شأن القدس!! لا يمكننا الدعوة حالياً إلى تنظيم مظاهرات تأييداً للسلام إذا كان الفلسطينيون غير مستعدين لذلك».

لا أحسب أن هذا الكلام من هذا اليهودي يختلف في شيء منه عن ذلك المحسوب على المسلمين، أرأيتم كيف كانت الأحداث في بعض جوانبها إيجابية برغم دمويتها؟ فما انكشف ستر أولئك مثلما انكشف مع تلك الأحداث.

٦ - كان من أجلى ثمرات هذه التغطية الإعلامية، هو إثبات مدى القدرة الفائقة لجهاز الإعلام في تشكيل رأي عام حول قضية بعينها، سلباً أو إيجاباً، وعلى سبيل المثال فقد طلبت دولة موريتانيا من سفير لإحدى الدول لديها وقف تكرار مشاهد الانتفاضة الفلسطينية في القناة الفضائية الخاصة ببلده، خوفاً من غضبة الشارع الموريتاني الذي سوف يتفاعل مع هذه المشاهد!!

وبرغم أن هذه الماكينة الإعلامية العملاقة تتحرك من خلال سياسات مرسومة حسب التوجه لأصحابها أو القائمين عليها إلا أنه بالإمكان استغلالها في خدمة قضايا الأمة بشكل جيد.

ولم يكن للإعلام العربي فضل في السبق ببث حادثة مقتل الدُّرة، بل كان تابعاً للإعلام الفرنسي، ولولا الحياء من الاتهام بالتخاذل لغض الطرف عن ذلك، فتسابقت القنوات في

---

(١) انظر هذه الحوارات وغيرها في مجلة الأهرام العربي، العدد: ١٨٧، ٢٣/٧/١٤٢١هـ - ٢١/١٠/٢٠٠٠م.

(٢) انظر: جريدة الأهرام، العدد: ٤١٥٩٥، مقالة (المثقفون والغوغاء)، ٢٦/٧/١٤٢١هـ - ٢٤/١٠/٢٠٠٠م.

رصد القضية ومتابعتها مجاراة للأحداث، كما تابعت في الوقت ذاته مباريات كرة القدم وغيرها مما يُتابع، نعم! هذا واقع الإعلام العربي، لكن بالإمكان استغلاله بصورة أكثر فاعلية كتلك التي حدثت مع انتفاضة القدس، وإن كانت قضية فلسطين لها خصوصيتها باعتبار:

- باعتبار العداوة المتأصلة في النفوس المؤمنة تجاه اليهود على مر التاريخ الإسلامي، والتي تربت عليها أجيال الأمة إلى اليوم.

- وباعتبار أن اليهود السبب الرئيس والمباشر في مأساة فلسطين المعاصرة؛ فكانت القضية واضحة تماماً لدى الجماهير، وبرغم هذا فيمكن الاستفادة من هذه الماكينة الضخمة التي اخترقت العالم أجمع في خدمة قضايا المسلمين.

وقد كان لعدد من المجلات الإسلامية حضور مشكور متميز، إلا أن هناك وسائل أكثر تأثيراً ما زالت بحاجة إلى تفعيل واستغلال.

وإن كان وضوح القضية لدى الشعوب ساعد على تفاعلها؛ فإن ذلك لا بد أن يلفت انتباهنا إلى ضرورة الطرح الصحيح لقضايا الأمة الأخرى وترسيخ القناعة بصحتها وأهميتها حتى يؤتي زرعنا أكله. ولقناعة دولة الكيان اليهودية بخطورة الإعلام وقيمته فقد قامت بحملة إعلامية مضادة عقب تلك الحملات التي أظهرت مشهد الطفل الدُّرة، فقد كشف السفير الإيطالي (سرجو فنتو) مندوب إيطاليا الدائم في الأمم المتحدة أن إسرائيل قامت بالتضحية بالجنود الثلاثة الذين قتلوا في رام الله حتى تستعيد التعاطف العالمي، وأكد السفير الإيطالي أن الحكومة الإسرائيلية أرسلت جنودها الثلاثة إلى رام الله بدون مسوِّغ وحدهم وسط الانتفاضة الغاضبة ليلقوا مصيرهم المحتوم، وهي تعلم هذا المصير، وأرسلت شبكات التلفزيون لتسجيل الحدث الذي من شأنه أن يحقق توازناً دعائياً لإسرائيل أمام الرأي العام العالمي[1].

وأكد السفير أنها تمثيلية درامية قدمت فيها إسرائيل الجنود قرباناً لدعايتها ضد العرب.

وبالفعل استغلت إسرائيل هذا الحدث إعلامياً من خلال السيطرة اليهودية على شبكات الإعلام العالمية، وقد أدلى أحد المصورين البريطانيين - وقد حضر مقتل الجنود - بدلوه في هذه المسرحية الإعلامية حين قال: لقد صورت الكثير من المشاهد العنيفة في العالم خصوصاً في الكونغو وكوسوفا، لكن ما شهدته هناك كان أسوأ ما رأيته في حياتي.

كانت دولة الكيان مقتنعة بأن ما تأتي به صورة تذهب به أخرى، ولهذا فقد صنعوا صورهم، كما صنعوا مآسينا.

٧ - أكدت الأحداث مدى بغض المسلمين لراعي الغنم، راعي حمامات السلام؛ حيث كان

---

(١) انظر: جريدة البيان الإماراتية، ٢٣/٧/١٤٢١هـ.

التأييد لدولة الكيان أعمى من العمى، هذا ما أكدته الأحداث، ولم يكن جديداً؛ كان الجديد هو ما نحن بصدده، فكما صنع الإعلام لدينا القناعات السابقة وكانت له دلالات واضحة التأثير، في جلها إيجابية، كانت الصورة مغايرة على الجانب الأمريكي، كانت الصورة لدى العالم في غاية الوضوح لا تحتاج إلى تأويل، أو مزيد شرح وتفسير، أقوى جيوش الشرق الأوسط في مواجهة شعب أعزل من كل سلاح مادي إلا الحجارة، مئات القتلى في مقابل قليل من قليل من الجرحى، أشد الناس ظلماً وضيماً لا يستطيع أن ينحرف أو يجور أمام هذه المشاهد، ولكن الإعلام الأمريكي كان أكثر من ظالم وأكثر من جائر، لقد حمل هذا الإعلام الناس على لوم الضحية، والشفقة على الجاني، ولنأخذ مثالاً واحداً من هذا الجور الإعلامي، من هذا السحر الذي صُنع في دولة بحجم الولايات المتحدة، صورة أخرى غير التي لدينا، جريدة نيويورك تايمز، أهم الصحف الأمريكية كتبت في افتتاحيتها - عقب زيارة شارون للمسجد الأقصى، وحملت عنوان: (مواجهة دموية في الشرق الأوسط) - تقول: «بالأمس هاجم بعض الفلسطينيين الغاضبين والمتطرفين القوات الإسرائيلية والمدنيين في أنحاء القدس، والضفة الغربية وقطاع غزة والمناطق الإسرائيلية المأهولة بالسكان العرب، بالحجارة والقنابل النارية والرصاص!! وقد رد الجيش الإسرائيلي مستخدماً الأسلحة والصواريخ المضادة للدروع»!! وحمّلت الصحيفة السلطة الفلسطينية المسؤولية؛ لأن معظم هذا العنف قام به الفلسطينيون، وتفهمت الصحيفة تصرفات باراك الذي يتحتم عليه أن يدافع وبقوة عن حياة الجنود الإسرائيليين والمدنيين من هجمات الفلسطينيين، وقس على ذلك ما شئت من الصحف.

وفي الوقت الذي كانت وسائل الإعلام في الشرق تتناقل صور القتلى والجرحى الفلسطينيين، كانت شبكات الإعلام الأمريكية مثل الـ .C.N.N تعيد وتزيد من عرض صور بعض اليهود وهم يهربون من جانب حائط البراق خشية أن تصيبهم الحجارة الفلسطينية، ولا تخلو هذه الصور من تعليقات ذات مغزى.

ولو تتبعنا ما قام به الإعلام الأمريكي فلن نقف إلا على ظلم وجور وغبن وخداع، وما شئت أن تضيف إلى قائمة الباطل فأضف.

لقد صنع الإعلام لدينا أحداثاً ورسخ قناعات، وكانت له دلالات هامة تحتاج إلى تأمل أكثر.. فلنتأمل.



نحو تفعيل أفضل لانتفاضة الأقصى

د. يوسف الصغير

لم يحر قلمي مثلما حار عند كتابة هذه الخواطر؛ لأنها تقتضي التخلص من كثير من الرواسب العالقة في الذهن والمتمكنة من السلوك.

لقد كان دخول شارون إلى ساحة المسجد الأقصى هو الخطوة ما قبل الأخيرة في خطوات بناء الهيكل، وكان المتابع للأحداث يصاب بالأسى ويحس بالعجز؛ فقد وصلت الأمور إلى أن نقطة الخلاف الأساسية ليست شرعية وجود دولة اليهود في فلسطين، ولا حق اللاجئين بالعودة، ولا حقيقة شكل دولة فلسطين الموعودة ومضمونها؛ بل ولا اسم عاصمة كل كيان وحدوده؛ فكل هذه الأمور تم تجاوزها وحلها أو تجاهلها، ولكن بقيت القشة التي قصمت ظهر البعير ألا وهي أنه إذا سلّمت السلطة القدس لليهود وجعلوها عاصمة لهم وسموها أورشليم؛ فماذا سيكون وضع المسجد الأقصى وقبة الصخرة؟ إن هذه القضية لم يستطع عرفات تجاوزها، وكان الإعلام يركز على الخلاف حول هذه النقطة مما يعني ضمناً أن اتفاقاً ما قد تم التوصل إليه حول بقية القضايا، وكانت مناورة السلطة في إظهار التمسك بحق السيادة على الحرم من أجل جس النبض في مدى تقبُّل التنازل عن بقية القضايا.

والحقيقة أن موقف الناس ـ ومنهم الدعاة ـ لا يتعدى الحوقلة وبعض المقالات والكتب التي توضح رأي المسلمين فيما يجري؛ ولكن لم تبرز أي مواقف عملية، ولا أعدُو الحقيقة عندما أؤكد أن عامة الناس لا يحسنون بما يجري؛ بينما ساسة اليهود وخدمهم في الإدارة الأمريكية ينتظرون على أحرٍّ من الجمر إقدام عرفات على التوقيع على آخر التنازلات.

نعم! لقد كانوا ينتظرون انتحار القضية، وعندما لم تستطع الضحية الانتحار قام شارون بمحاولة قتل القضية وإثبات السيادة على آخر جزء متنازع عليه مع السلطة، لقد كان اليهود مستعدين لاحتمال قيام مظاهرات واحتجاجات تستمر لعدة أيام، ويتم قمعها بعد عدة أيام، ويسدل الستار على القضية أيضاً بعد أيام، ثم تبدأ المرحلة الأولى من مراحل بناء الهيكل ألا وهي تدمير المسجد.

لقد بدأت الأحداث كما توقعوا: مظاهراتٍ، وقتلاً للعُزل، ومحاولات تنسيق مع السلطة لإيقاف الاحتجاجات. ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، لقد كان محمد الدُّرة عائداً مع والده من سوق للسيارات المستعملة عندما وقعا في منطقة يقوم فيها جنود يهود بالتسلي بقتل رماة الحجارة، وكان اليهود من القرب بحيث يسمعون صراخ الطفل المرعوب مع صياح الوالد يطلب منهم عدم إطلاق النار عليهم؛ فهما أعزلان حتى من الحجارة، وبالطبع لم يزد ذلك اليهود إلا غياً وإجراماً فاستمروا بإطلاق النار حتى خمد الطفل وأصيب أبوه؛ بل تم قتل سائق أول سيارة إسعاف تأتي لإخلائهما. إن هذا حدث عادي ومتكرر، وكل واحد من المئة والستين الذين وقعوا ضحية الأحداث له قصة مشابهة، ولكن الفرق أن الله قدَّر أن أحد المصورين الفلسطينيين قد وقع مثلهما في مصيدة النيران، واختبأ بقربهما وقام بتصوير مأساتهما وإرسالها إلى وكالة الأنباء الفرنسية التي قامت ببثها؛ وهنا حصل ما لم يكن بالحسبان: لقد كانت المشاهد مؤثرة بشكل أجبر كثيراً من وسائل الإعلام على عدم تجاهلها طويلاً.

وفي العالم الإسلامي كانت الصور مؤثرة بحيث أخرجت الناس إلى الشوارع تعبيراً عن مساندتهم إخوانهم في فلسطين، وللاحتجاج على المجازر التي يرتكبها اليهود، ودفعت هذه المشاهد القضية إلى الواجهة، وبدأت القنوات في التنافس على المشاهدين عن طريق طرح قضية فلسطين من جديد.

وإذا كان شعار الانتفاضة هو: (لا إله إلا الله، والدعوة إلى الجهاد وطلب الشهادة)، فإن هذا انعكس على نبض الشارع، وبدأتَ تسمع كلمة الجهاد من جديد وأنها السبيل الوحيد لاستعادة الحقوق بعد أن نجح العدو في جعل الجهاد مرادفاً للإرهاب حتى في وسائل الإعلام

في العالم الإسلامي.

لقد اتضح لكل ذي لب أن الإعلام كان له أكبر الأثر في إبراز القضية من جديد، وأن التغطية الإعلامية أساسية في تفاعل الناس مع أحداث الانتفاضة، بل عامل أساسي في توجيه الرأي العام والحكومات، وتفوقت القنوات العربية لأول مرة في متابعة الحدث، وبرز مراسلون متميزون لا يقلون مهنياً عن المراسلين الغربيين، بل يفوقونهم في توضيح الحقائق وتصوير الحدث كما هو.

لقد كان الإعلام غائباً تماماً عن أحداث الفلبين وإندونيسيا وكشمير والجزائر والبوسنة وكوسوفا، نعم! لقد كانت وجهة النظر الإسلامية غائبة والتغطية من المسلمين لها غائبة؛ فأين التحقيقات الصحفية الميدانية؟ وأين البرامج الوثائقية الجيدة عما جرى للمسلمين ويجري في الفلبين؟ وهل قضيتهم تختصر في اختطاف مجموعة من الرهائن الغربيين؟ بل ماذا يجري في إندونيسيا، وماذا حل بالمسلمين في جزر الملوك من مجازر وإبادة؟

إن الذين يتجاهلون إبادة المسلمين في هذه الجزر هم الذين يسارعون إلى تصوير جماهير المسلمين المقهورين - هناك - الذين يحملون السيوف ويدعون للجهاد في جزر الملوك نصرة لإخوانهم، يصورون ذلك على أنها محاولة لإبادة النصارى، ويطالبون بفرض الحماية الغربية!

أين الإعلام الصادق عما يجري في الجزائر من مجازر رهيبة؟ هل قام أحد بإبراز الحقيقة؟ وأنا هنا أجزم أنه لو كان الجاني الحقيقي هم المسلمين لتسابقت الأجهزة الإعلامية الصليبية لتسليط الضوء عليه ولكن..!!

أما كشمير أفلا يكفي عجز ٦٠٠ ألف جندي هندي عن السيطرة على المنطقة لإثبات أن وجود الهند مرفوض شعبياً؟

إن الإعلام الغربي يمارس التعتيم الشامل على أحداث الشيشان إلا ما ندر، ولم يكسر هذا الحصار إلا تنبه المجاهدين لأهمية مواقع الإنترنت واستخدامها بنجاح.

إن الذي أريد أن أخلص إليه أن غياب التوجه الإسلامي عن الإعلام، وتقصيرهم في هذا الجانب أمر يجب تداركه بصورة عاجلة، وهو يحتاج إلى استنفار عام لتدارك النقص في هذا الجانب؛ لأن الصراع يلعب فيه الإعلام دوراً حيوياً، ولا يخفى أن أدوات اليهود في السيطرة تعتمد على الاقتصاد والإعلام.

إننا بحاجة إلى العمل الجاد في أوساط العلماء وطلبة العلم وأهل الخير من أجل بيان أهمية هذا الثغر ووجوب سده.

كما أن هناك كثيراً من المشاريع العاجلة التي تحتاج لتضافر الجهود، ومن أهمها:

- إنشاء عدد من مؤسسات الإنتاج الإعلامي المسموع والمقروء والمشاهد. إن هذه المشاريع

ضرورية جداً لتدريب الإعلاميين، وكذلك من أجل سد النقص الشديد في المواد الإعلامية.

إن الربحية ممكنة في هذه المشاريع؛ ولكن أرى أن نجاحها في رسالتها يقتضي أن تكون مؤسسات لا تسعى للربح.

- وتشجيع الشباب الملتزم على الدخول في التخصصات الإعلامية والأدبية بنيَّة الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام.

- التعاون مع الصحف ووكالات الأنباء العاملة ومحاولة إيصال الحقيقة.

- إن إنشاء وكالة أنباء إسلامية لكسر احتكار الأخبار هو ضرورة ملحة وأمل ينبغي العمل على تحقيقه.

- الاستفادة من ثورة الاتصالات في الدعوة إلى الله لمواجهة الكيد، والعمل على وقف الهجمة التغريبية الشرسة.

قد تبدو الاقتراحات خيالية لبعضنا؛ ولكن الأمر ليس كذلك.

إننا إذا أردنا أن نخرج من الأزمة التي نعيشها فيجب أن نكون جادين في استثمار الهبَّات العاطفية التي تمر فيها الأمة والعمل على تفعيلها في أعمال مستمرة. إن التعاطف مع الحدث يخبو ما لم يتم استثماره في عمل منتج، وإن الكثير من الفرص قد ضاعت بسبب الاعتماد على العواطف فقط في التعامل مع الناس.

إن أهم استثمار ممكن للعواطف الحالية هو ثورة إعلامية إسلامية ملتزمة تكون رائدة في نشر الإسلام والذب عنه، وإذا لم نقم بذلك فإن الله قد تكفَّل بحفظ هذا الدين، وكما قال الرسول ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1] وقال - تعالى -: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾. [محمد: ٣٨].

فأين نحن من هذا الثغر الذي لم يُسدَّ بعد؟

---

(١) البخاري، ح/ ٢٨٣٤.



مستقبل الصراع مع اليهود

ومسؤولية الإعلام العربي والإسلامي

عبد القادر فؤاد

إن تعجب، فمن صراخ بعض وسائل الإعلام العربي وضجيجها وحديثها المتهالك قبل الانتفاضة عن السلام، وحتميته وفوائده وتفرده بين الحلول بأن يكون خياراً استراتيجياً؛ وكأن الأمر قد اختصرته شريعة هيئة الأمم ومجلس أمنها إلى صراع بين فئتين مؤمنتين شغب بينهما إبليس بتحريشه، فتنادى العقلاء وأهل الرأي لوضع حدٍّ لهذا الصراع.

إذن ما هو السبب في جعجعة الإعلام العربي باختلاف أشكاله في حديثه عن السلام؟ وأين هو من كل حقائق القرآن والسنة النبوية، وما اشتملت عليه من حشد هائل لأحداث الصراع؟ وأين الإعلام من الصفحات الدامية عبر التاريخ؟.. هل نسي الإعلام ما فعله ابن سبأ وما قام به من فتنة في صدر الإسلام، أم تراه نسي ما فعله اليهود وعملاؤهم من الماسون في القضاء على الدولة العثمانية، أم قد عميت عيناه عن حروب إسرائيل للمسلمين على أرض فلسطين وخارجها خلال الخمسين عاماً الماضية؟! إن إعلاماً بلا ذاكرة كإعلام بلا عقيدة أو هوية. وإعلام هذا حاله؛ هل يرجى منه استشراف المستقبل، وصياغة استراتيجية محددة المعالم لمخاطبة العقل العربي والإسلامي في ظل التهريج الإعلامي الدولي؟!

في خضم أحداث العنف اليهودي وما قام به يهود من قتل للأطفال الأبرياء فضلاً عن الكبار ـ تفاجئك بعض وسائل الإعلام العربي بالحديث المغرق في التفاؤل عن جهود القادة المجتمعين في سبيل وحدة الصف العربي. وحُقَّ لكل مسلم أن يسأل: هل افترقوا بعد اتحاد حتى يتحدوا من جديد؟ وهل اتفقت وجهات نظرهم المتباعدة جداً(!) على أمر أدهى مما يسمى زوراً وبهتاناً مشروع السلام، ومحاربة التطرف واجتثاثه وتجفيف منابعه؟ نعم! إنهم متفقون كل الاتفاق وإن اختلفت الأدوار باختلاف الجغرافيا، وما على القارئ أو المستمع لشيء من جرعات التخدير تلك سوى الربط بين التصريحات المدوية والتهديدات الصريحة والمبطنة ضد يهود، وبين الصورة الجماعية بعد المؤتمر وقد علت الوجوه ابتسامات مشرقة رغم إرهاق الاجتماعات وعنائها(!) ثم لينظر القارئ والسامع، ولينتظر تنفيذ شيء مما صُرِّح به. لينظر في الواقع: هل تحركت جيوش؟ هل بدأ تنفيذ مخطط للتواصل مع تلك الجموع المجاهدة داخل فلسطين بدلاً من تركها نهباً للرافضة الباطنيين؟ لن يتعب القارئ ولا السامع في الوصول إلى قناعة هي أشد ثباتاً من الجبال الراسيات من أن الأمر تحصيل حاصل لقرارات قرأها أحدهم قبل انعقاد المؤتمر الذي نجم عنه توحيد الصف ولمّ الشمل(!).

حقيقة الصراع:

إن الإشكالية التي يعاني منها عقل المسلم وقلبه ـ على السواء ـ ناشئة من هذا الاختزال العفوي أو المتعمد من بعض وسائل الإعلام لحقيقة الصراع وأبعاده؛ فلا يكاد يصحو المسلم على حقيقة الصراع وجذوره إلاّ في ظل كارثة جديدة أو ما يسمّى إعلامياً «الانتفاضة»، «موجة العنف»... إلخ.

وجُلّ ما يأتي من الطرح الأصيل لحقيقة الصراع، إنما هو من الخطباء والمنابر الإعلامية الإسلامية الملتزمة، ومن خلال مساهمات بعض الإعلاميين الصادقين في منابر إعلامية غير إسلامية أو محسوبة على المسلمين، ثم لا يلبث أن يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل هذه الحادثة أو تلك من تصوير للصراع على أنه صراع على الأرض: على حدود معاهدة التقسيم عام ١٩٤٨م، أو حدود هدنة عام ١٩٦٧م، أو تنفيذ مبادرات السلام الهزيل.

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ تنفيذ قرارات أوسلو ومدريد وما بعدها، وهذا الانكماش في تصوير نوع الصراع من صراع عقدي إلى صراع على الأرض، يقابله انكماش آخر في ساحة الصراع؛ حيث الراية عِمِّية مقابل الراية اليهودية؛ حيث تردد وسائل الإعلام المختلفة المحلي منها والعالمي: «الصراع العربي الإسرائيلي» رغم ما يحمله المصطلح من تناقض بارز؛ حيث أحد طرفي الصراع «ديني» والآخر «قومي عرقي»!!

إن المعركة كما يقول الأستاذ سيد قطب: «معركة عقيدة، إنها ليست معركة الأرض ولا الغلة

ولا المراكز العسكرية ولا هذه الرايات المزيفة كلها. إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين؛ ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخدعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته وهو - سبحانه - أصدق القائلين: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]».

كما أنها معركة متعددة الجبهات وليست مقتصرة على ساحة القتال العسكرية؛ حيث يدرك اليهود أنهم جميعاً لن يتمكنوا من قتل (١٨٠) مليون كبش ناهيك عن (١٨٠) مليون عربي، ناهيك عن (١٠٠٠) مليون مسلم؛ فإن ساحة الصراع والحرب تمتد إلى عالم الاقتصاد والسياسة والعقيدة والفكر والتراث، وبكل ما أوتوه من قوة.

إن الفارق بين عقلية الذي يفكر في السلام وقد تخلَّى عن العقيدة والسلاح، وبين عقل من يحارب ليستريح ويستريح ليحارب فارق كبيرٌ جداً، كالفارق بين رسالة رئيس منظمة التحرير الطويلة إلى رئيس وزراء إسرائيل عام ١٩٩٣م، ورد رئيس الوزراء الإسرائيلي المقتضب، مع فوارق ظاهرية وجوهرية.

مستقبل الصراع:

مما سبق يتضح لنا أن اليهود وحلفاءهم سيصطدمون بالمسلمين في المنطقة، وستجري حروب على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والإعلامية والعسكرية، وما هذه التيارات السياسية والاقتصادية العالمية المتتالية في القرن الميلادي الأخير رغم قصر المدة إلا موجات تتناوب مع الخيار العسكري لمواجهة المد الإسلامي ومحاولة القضاء عليه، وما تخدع كلمات دهاقنة السياسة الغربية المموهة إلا ذوي العقول المشلولة والأفئدة السقيمة، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

إن حقائق القرآن والسنة وشواهد التاريخ وتداعيات الواقع لتدل بما لا يدع مجالاً للشك أن الصراع مع اليهود قائم ودائم ومستمر إلى قيام الساعة، ولن يستطيع دهاقنة السياسة والاقتصاد تعطيل هذه النصوص القاطعة ولا السنن الربانية الجارية، وبلا مبالغة هم أعرف بذلك من كثير من جهلاء المسلمين؛ حيث صرّحوا أن الجولات السياسية ما هي إلا محطات استراحة يحققون من خلالها ما لم تحققه الآلية العسكرية. يقول مناحيم بيجن في كتابه (التمرد): «لن يكون هناك سلام مع العرب ما دمنا لم نحرر وطننا بأكمله حتى لو وقّعنا مع العرب معاهدة الصلح. إن الأسلحة العبرية هي التي ستقرر حدود الدولة العبرية، ولا يمكن أن نشتري السلام من أعدائنا بالمفاوضات. فهناك نوع واحد من السلام يمكن أن يشترى هو سلام القبور»! كما يقول كارتر: «إن دولة إسرائيل أولاً وقبل كل شيء عودة إلى الأرض التوراتية التي أُخرج منها اليهود منذ مئات السنين. إن إنشاء إسرائيل هو إنجاز للنبوءة التوراتية وجوهره».

دور الإعلام والإعلاميين:

إذا علمنا كل ذلك وغيره مما لم يتسع المقام لذكره، رأينا كم هي التبعة الملقاة على المنابر الإعلامية المختلفة، كما يتجلّى لنا جسامة المسؤولية الملقاة على كل من تولى أمراً في هذه المنابر الإعلامية أو ساهم فيها.

إن معركة السلاح لا بد أن يسبقها إعادة صياغة لهذا الكيان بكل جزئياته؛ لتستعيد الأمة هويتها صافية من كل شائبة تسربت إليها من خلال وسائل الغزو الإعلامي العالمي، أو من خلال العملاء أو الجهلاء الذين غرسوا في عقول المسلمين الهزيمة النفسية وأصّلوها من خلال التبعية الفكرية والأدبية. وهذه المسؤولية رغم ضخامتها يمكن للإعلامي المسلم أن يمارسها ولو مجزأة، ومن خلال الوسائل المتاحة لا سيما في عصر الإنترنت وما تتيحه من انتشار لا يحتاج معه إلى جواز لعبور الحدود والسدود التي بدأت تتهاوى بصورة أو بأخرى.

هذا بالنسبة للإعلامي المسلم.

أمّا الأجهزة الإعلامية فهي مطالبة بما هو أكبر من ذلك، إنها مطالبة ببرنامج عمل متكامل، لعل من أبرز معالمه:

١ - عدم قطع الحديث عن عداء اليهود للأمة، حتى بعد إخراج آخر يهودي من الأراضي المقدسة.

٢ - توظيف الأحداث في تربية الأمة، ولنا في القرآن شواهد كثيرة، وكيف أن الخطاب القرآني كان يستغل الحدث الواحد ـ كتحويل القبلة ـ لإبراز هذا العداء الظاهر والمستتر.

٣ - استعراض التاريخ القديم للصراع منذ زمن النبي ﷺ، وتجلية دور العقيدة السليمة في حسم النزاع لصالح المعسكر الإسلامي.

٤ - توظيف طبقات الأمة المسلمة عربيها وأعجميها؛ لإعادة كتابة فصول التاريخ المعاصر الذي تعاني كثير من طبقات الأمة من تجهيلها به وتشويه معالمه على أيدي القوميين والعلمانيين، بسبب محاولاتهم المستميتة لستر عوار نكساتهم وهزائمهم المتلاحقة.

٥ - استخراج الدروس والعبر من أحداث ١٩٤٨م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م، ١٩٨٢م، وما تلا ذلك من اعتداءات اليهود وحلفائهم وتوظيفها لبث الوعي العقدي والتاريخي والسياسي في أفراد الأمة المسلمة رجالاً ونساءاً.

٦ - ألاَّ تنسينا كارثة فلسطين ما يجري في أندونيسيا والشيشان... وغيرها من البلدان المسلمة، فالأمة الإسلامية أمة واحدة إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

ختاماً:

إن أطفالاً وشباباً يصنعون بحجارتهم ما لم تصنعه الجيوش والمدافع في زمن الذل والانكسار حريٌ بهم أن يحققوا انتصارات كاسحة إن شاء الله تعالى؛ إذا توفرت لعقولهم وقلوبهم التربية العقدية، والإعداد اللازم في ظل إعلام ملتزم. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] .



حمّى سنة ٢٠٠٠.. عود على بدء

الألفية الثالثة [illegible] المنتظرة

عبد العزيز كامل

تابع القراء على صفحات (البيان) الغراء، السلسلة التي نشرتها المجلة على مدى ثمانية أشهر بعنوان (حُمَّى سنة ٢٠٠٠) وكانت السلسلة تهدف إلى الكشف عن تفاعلات متوقعة مع بدء الألفية الميلادية الجديدة، تقف وراءها عقائد وأساطير وأحلام وأوهام تنطلق من قناعات دينية يهودية ونصرانية، تدعو إلى الاستعداد لأحداث اقتراب الزمان من نهايته، مع ابتداء الألف الجديد وفي سنواته الأولى.

وقد أسهبت الحلقات في عرض مظاهر هذا الانشغال الديني المتأثر بالعقيدة الألفية التي جاءت الإشارة إليها أولاً في العهد القديم (التوراة) ثم أشار إليها العهد الجديد (الإنجيل)، وهي العقيدة التي يؤمن أهل الكتاب بمقتضاها أن من واجبهم أن يهيئوا للتفرد بالسيطرة على العالم؛ كمقدمة لا بد منها للاستعداد لمقدَم المسيح المخلِّص الذي سيأتي ليحكم هذا العالم في الألف الأخيرة من عمر الدنيا، فيكون هذا هو العصر الذهبي للبشرية.

لقد ترتب على التأثر بتلك العقيدة أحداث ومخططات ظلت تتابع منذ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، وطوال القرن التاسع عشر ثم طوال القرن العشرين؛ حيث كان النصارى، وبخاصة البروتستانت، يدفعون باليهود نحو التحرك للسيطرة على الأرض المقدسة التي ستشهد في اعتقادهم أكبر أحداث فصول التاريخ الأخيرة. حاولت في

هذه الحلقات رصد الخلفيات التاريخية الماضية والتداعيات الحاضرة والتوقعات المستقبلة لهذه القناعات الدينية عند أهل الكتاب، وخاصة تلك المرتبطة بحلول العام ٢٠٠٠ للميلاد الذي جعلوه موعداً - فيما يبدو - لتدشين خطوات تأسيسية في المخططات الكبيرة المستقبلية في منطقتنا العربية الإسلامية.

أما وقد آذن العام ٢٠٠٠م بالأفول، فمن حق القارئ علينا أن نطلعه على خلاصة التفاعلات الحُمِّية الألفية التي وقعت منذ بداية العام ٢٠٠٠م وحتى كتابة هذه السطور[١]، وهي تفاعلات تبرهن مع غيرها، على أن العَقائد الدينية الغيبية لدى أهل الأديان لا تزال تمثل عامل دفع قوي يحرك الأحداث في عصرنا هذا، عصر المادة وتقنياتها والفتنة بها.

نحن لا نريد هنا بداهة أن نثبِّت دعاوى الذين كفروا من أهل الكتاب في أن الزمان يسير لصالحهم وفق رؤى كتبهم «المقدسة»، ولكن نريد لفت الانتباه، أو تكرار لفت الانتباه إلى أن أساطيرهم المستمدة من كتبهم بعد التحريف تتحرك إلى عالم الواقع ودنيا الحقيقة، لا تبعاً لما يقولون إنه (نبوءات) ولكن طبقاً لما يرتبون من خطوات ومخططات تقوم على تنفيذها قوى عاتية، تشق طريقها في ساحات خاوية وميادين فارغة من كل أثر مؤثر في التصدي أو التحدي.

إن هذه القوى التي تتحرك بتلك البرامج الدينية المستقبلية في أرضنا الإسلامية لا تستنكف عن الإعلان عن ولائها الديني الكفري الصريح، وعن سعيها العنيد العنيف لفرضه بعد عرضه على جماهير الأمم المشغولة بصغائر الأمور.

لقد بدا أمام كل بصير أن هناك حزمة من الأحداث والتفاعلات المتجانسة في طبيعتها يحاول الكتابيون أن يفتتحوا بها هذا القرن الميلادي ليثبتوا للعالم أن هذا قرن (نهاية التاريخ)، وكنت قد أشرت إلى أبرز موضوعاتها السياسية الدينية في الحلقات الآنفة الذكر. والآن أعرض لأهم المستجدات المتعلقة بمشاريع تأجيج الصراع الديني في المنطقة.

أولاً: الحرب السابعة: أوشكت على البدء.. أم بدأت بالفعل؟!

انطلاقاً من مسلَّمة أن اليهود هواة حرب لا دعاة سلام - كما دلت نصوص الوحي، وتطبيقاً لهذه المسلَّمة على تاريخنا المعاصر، فقد كان متعيناً على أي مراقب مدرك لهذه الحقيقة أن يفهم أن مسرحية السلام لن تستمر إلى آخرها، وأن اليهود سوف يسدلون الستار عليها في الوقت الذي يريدون، ومن الفصل الذي يحددون، وفي ضوء لجوء اليهود إلى افتعال حرب في كل عقد لتقليم أظافر العرب وكسر شوكتهم - وهو ما أسماه إسحاق شامير: (سياسة قلع الأسنان)[٢] فقد كان المرجح أن يُقبل اليهود على افتعال حرب جديدة هي (الحرب السابعة) على التوالي، بترتيب العقود بدءاً من الأربعينيات الميلادية (التي أعلنت فيها

---

(١) في ١٠/٨/١٤٢١هـ - ٦/١١/٢٠٠٠م.

(٢) قال إسحاق شامير، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق في كلمة له أمام حشد من اليهود الأمريكيين: «يتعين علينا في كل عشر سنوات مرة أن نُجلِسَ العرب على كرسي طبيب الأسنان، كي نقلع أسنانهم التي نبتت حتى لا يعضونا بها»!

دولة اليهود)، وإلى هذا العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فهذا هو العقد السابع، فهل تقوم فيه الحرب السابعة؟

لقد كانت هناك مرجحات لإشعال تلك الحرب في بدايات الألفية الثالثة: وعلى رأسها اغتنام اليهود لفرصة هذه الفترة الفصلية في التاريخ لتأجيج مشاعر النصارى الدينية في العالم لصالحهم، باعتبار أن رأس الألفية، مناسبة دينية نصرانية تربط بعمق بين مستقبل اليهودية ومستقبل النصرانية، على أساس أن اليهود أداة قدرية لتحقيق ما أسموه: (خطة الإله لعودة المسيح)، فإذا ما كانت تلك الحرب قائمة على خلفية أحداث اعتقادية، فإن ذلك قمين بأن يلهب العواطف الدينية لدى شعوب العالم النصراني، ويوحد مشاعرها خلف دعاوى اليهود الزاعمة بأنهم محور أحداث ما يستقبل من الزمان.

والأمر الثاني من المرجحات: هو استغلال اليهود لتلك الأجواء - بعد توفيرها - لضمان أكبر قدر من الدعم الغربي للوقوف أمام غضبة العالم الإسلامي، إذا ما أقبلوا على تنفيذ المشروع التآمري الكبير: (هدم الأقصى وبناء الهيكل)، أو محاولة تمرير خطة التنفيذ وسط زحمة الأحداث، لكي لا تبدو عملاً مستقلاً مفرداً ومقصوداً.

والأمر الثالث من المرجحات لإقبال اليهود على إيقاد تلك الحرب: قطع شوط جديد على طريق المشروع القديم (إسرائيل الكبرى)، ذلك المشروع الذي ما كان لليهود أن يصروا عليه لولا استخفاف العرب به وادعاء بعضهم استحالة تحقيقه، بدعوى عدم قدرة ذلك الشعب الإسرائيلي الضئيل، على السيطرة على تلك البقعة المترامية من النيل إلى الفرات، ولسنا هنا بصدد تفنيد أسس هذا الاستخفاف العربي (العقلاني) ولكن فقط نذكر بأن اليهود سواء في (إسرائيل) أو في أمريكا لا يقصدون السيطرة العمرانية الجغرافية البشرية، ولكن: الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية، أو بتعبير آخر: (إدارة المنطقة) وهو ما يتطور بانتظام على أرض الواقع منذ أن بدأ الصراع.

- ومن المرجحات - رابعاً -: ما أشار إليه بعض خبراء الاستراتيجية، من ترجيح احتمال نشوب حرب في المنطقة بسبب نقص موارد المياه[1]؛ فاليهود يضيفون بهذا سبباً آخر من الأسباب التي تجعلهم (مضطرين) إلى الكشف عن أنيابهم المستترة خلف أقنعة السلام.

وفي ظل استمرار موجة الجفاف التي تعم أكثر مناطق الشرق الأوسط، والتي استمرت عامي ١٩٩٨، ١٩٩٩م[2]، وتبدو مستمرة هذه العام أيضاً كما توقع الخبراء - والله أعلم - فإن دولة اليهود التي تحصل على ٩٠٪ من المياه من موارد جاراتها العربية، قد يستبد بها النزق الممزوج بالجبروت لمحاولة الاستحواذ على

---

(١) انظر (قراءة في فكر علماء الاستراتيجية)، د. جمال عبد الهادي، ص ٢٠، طبعة ١٩٩٩م.

(٢) ظاهرة الجفاف في العامين الماضيين أوجدت وضعاً لم نسمع به من قبل في بعض الدول العربية، وهو الدعوة العامة إلى صلاة الاستسقاء، وقد حدث هذا في كل مصر والعراق وسوريا، وحتى الدولة المغتصبة (إسرائيل) دعا حاخاماتها إلى إقامة صلوات يهودية خاصة من أجل طلب السُقيا من السماء!

نسب إضافية من الـ (١٠٪)، المتبقية لدول الجوار المسالم. ونحن نعلم أن من أبرز أسباب الاختلاف في عملية السلام على المسار السوري الإسرائيلي مسألة السيادة على المنطقة المحيطة ببحيرة طبرية؛ حيث يطمع اليهود أن يضمنوا السيطرة على هذا المورد المائي الهام.

- أما المرجح الخامس: فهو الإصرار اليهودي النصراني المشترك على استراتيجية الإخضاع التي تمارس بإصرار - منذ زمان - ضد أمة الإسلام بعامة والعرب بخاصة ودول «الطوق» أو المواجهة المحيطة بـ (إسرائيل) بشكل أخص.. وهي الاستراتيجية التي أطلق عليها شامير: (استراتيجية قلع الأسنان) كما سبقت الإشارة إليها.

- وهناك مرجح سادس، وهو: أن الساحة العربية - كما لمح أو صرَّح - أكثر قادة العرب في مؤتمر القمة الأخيرة، غير مستعدة للحرب الآن!! كأن اليهود سيقبلون هذا الاعتذار العربي لتأجيل وقت الحرب إن كانوا قد قرروها بالفعل! وهل يطلب عاقل من اليهود إذا ما أرادوا أن يشعلوا ناراً للحرب أن ينتظروا استعداد العرب لها؟! إنها ستكون - بنظر اليهود - فرصة ذهبية أخرى تقدمها إليهم العلمانية العربية الفاشلة على طبق من فضة! حيث أعطوا اليهود هدنة مجانية استمرت أكثر من عشرين سنة لكي يتمكنوا من تغيير خارطة الواقع بحسب تفاصيل المتوقع، ولكي يتأكدوا من أن البقعة المباركة قد باعها أصحابها بثمن بخس سفارات ومكاتب معدودة، ترفرف عليها أعلام نجمة داود في فضاء يضج بالصمت... صمت سلام القبور!

هذه هي أبرز المرجحات.

أما الذرائع، فلا تسل اليهود عن ذريعة.. إن جعبتهم ملأى بالذرائع المزروعة كالألغام في كل مكان، ولكني أرى فيما يُسمى (حزب الله)، فيما يدعى من بطولاته المستوردة أو المصنعة محلياً ذريعة جاهزة - أو يجري تجهيزها - لإجراء عملية إخضاع جديدة تقر بها أعين الشانئين المبغضين لهذه الأمة المسلمة من يهود القلب أو يهود القالب، ولا نحتاج هنا إلى تعديد احتمالات التصعيد أو (سيناريوهات) التنفيذ التي يمكن أن تترتب على اختيار هذه الذريعة أو تلك، ولكن دعونا ننتظر لنرى ما ستسفر عنه التداعيات المحتملة أو المرتب لها من وراء تفجير (انتفاضة الأقصى) في هذا التوقيت المريب..! هل يضربون سوريا؟! احتمال وارد. هل يثنُّون بلبنان أو بالفلسطينيين في لبنان؟ أمر محتمل.. هل يصعِّدون الموقف ويوسِّعون الدائرة؟ أمر غير مستبعد! هل يضربون بتركيز أشد في الداخل الفلسطيني لإيجاد واقع جديد لمرحلة جديدة؟ أم هل يُضربون عن كل هذا ويعدلون إلى أسلوب آخر؟! كل الاحتمالات يمكن توقعها إلا توقع أن يقلع اليهود عن ديدن الإفساد، وخلق التخريب الذي أشار إليه القرآن: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

إن هناك شواهد كثيرة تدل على أن اليهود يُعدُّون في هذه الآونة لإشعال حرب جديدة؛ فمن تجميد لعملية السلام، إلى تهديد لسوريا

ولبنان، إلى تجديد لأسلحة المستوطنين، إلى اتجاه للتكتل بين الحزب الحاكم والأحزاب اليمينية الدينية المتطرفة، إلى استدراج أو توظيف لـ (بطولات) (حزب الله)، إلى مزيد من إراقة دماء الفلسطينيين العزل، إلى اتجاه متزايد لعزل القدس ومنع المصلين من الوصول للمسجد الأقصى.

كل هذه أعواد ثقاب من شأن الواحد منها فقط أن يضرم ناراً تشتعل بها المنطقة كلها، ولكن هل يطفئها الله هذه المرة أيضاً؟ إنه على ذلك قدير، ولكن مقاديره ـ سبحانه ـ تجري حسب حكمته لا حسب شهواتنا ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ولكن هل هناك بوادر عملية، أو خطوات تنفيذية بدأها اليهود بالفعل على طريق الحرب؟! هم يقولون ـ كما صرح (شاؤول موفاز) رئيس هيئة الأركان الإسرائيلي ـ في (٢٨ رجب ١٤٢١هـ ـ ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٠م) ـ: «بأن الجيش الإسرائيلي يعيش حرباً بدأت بالفعل، وقد تستمر لمدة عام»! وقد كرر هذا الكلام في (٣ شعبان ١٤٢١هـ ـ ٣١ أكتوبر ٢٠٠٠م).

هذا من الجانب الإسرائيلي، أما من الجانب الفلسطيني فلا نظن أن الحالة التي يعيشها الشعب هناك منذ اندلعت أحداث الأقصى يمكن أن توصف بوصف أقل من وصف الحرب، بل إن الحروب المعتادة تجري أحداثها في الغالب على جبهات القتال بين جيوش معدة لوظيفة القتال، أما الحرب التي يصطلي الفلسطينيون بويلاتها اليوم فهي بدع في الحروب، إنها حرب الطفولة المعزولة، في زمن غياب الرجولة المسؤولة. وإلى أن تعود هذه الرجولة إلى مسؤوليتها؛ فهل هذه الحرب الدائرة الآن هي بواكير حرب أكبر، أم مقدمات حرب أكبر، أم جس نبض، أم (بروفة) لحرب أكبر؟ هذا ما ستسفر عنه أحداث الأيام والأشهر القليلة المقبلة، ولكنها على أية حال البداية العملية الحقيقية للحروب الدينية المستقبلية التي ينبغي أن نعد لها أجيالنا.

ثانياً: القدس.. أهذا هو الحل النهائي؟

كان العام ٢٠٠٠م، هو عام الحل النهائي ـ حسبما قررت الدولة اليهودية ـ وهو عام الحسم النهائي ـ كما وعدت السلطة الفلسطينية ـ حيث توعد عرفات بإعلان الدولة الفلسطينية فيها، على أن تكون عاصمتها القدس. لقد كان على رأس المسائل المؤجلة لعام ٢٠٠٠م ضمن مفاوضات (الحل النهائي) قضية القدس التي تأتي في مقدمة الموضوعات التي جرت دحرجتها منذ مؤتمر مدريد عام ١٩٩١م، حتى العام ٢٠٠٠م، بحجة إعطائها فرصة كافية للدراسة والتشاور. وكان معها من القضايا: مسائل اللاجئون، الحدود، والمستوطنات والمياه، والدولة، وقد حشرت هذه القضايا كلها ليتم الانتهاء منها في المباحثات الغامضة التي عرفت بـ (كامب ديفيد الثانية)، وقد تفاعلت الأحداث بعد هذا المؤتمر الذي أعلن عن تحطمه على صخرة بيت المقدس؛ وكأنها رسالة أُريد لها أن

تصدر في شكل توصية ضمنية عن المؤتمر، مضمونها: أنه لا حل نهائياً لقضية القدس إلا بما يدبر اليهود ويخطط النصارى، ولهذا فقد تتابعت التفاعلات المتنوعة عن مفاوضات الحل النهائي في كامب ديفيد وكان من أبرزها - كما لا يزال الناس يذكرون -: توعد بيل كلينتون أن يقدم موعد نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وهو الإجراء الذي من شأنه أن يجر أكثر دول العالم إلى التتابع في هذا النقل، حيث يضع هذا العرب والمسلمين أمام أمر دولي واقع، وكان هذا التوعد الأمريكي رداً على تهديد ياسر عرفات بإعلان الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، وهو الإعلان الذي ظهر أن الأمريكيين لا يقلون عن الإسرائيليين معارضة له؛ فهم وإن أظهروا في بعض الأحيان موافقتهم على مبدأ إعلان الدولة الفلسطينية بشرط تجريدها من مقومات الدولة، إلا أنهم لم يقبلوا في لحظة من اللحظات أن تكون القدس عاصمة لها، وهذا ما جعل (كلينتون) يخرج عن تحفظاته المصطنعة، وحياده الكاذب، ويعلن أن السلطة الفلسطينية تعرِّض نفسها لسحب الاعتراف بها، ومنع المساعدات عنها إن هي أعلنت عن قيام هذه الدولة بتلك الصيغة التي يرددها عرفات بشكل دائم، أي أن تكون القدس عاصمتها.

ومما شهده العام ٢٠٠٠م أيضاً فيما يتعلق بأمر القدس أن عرفات اضطر - بعد ضغوط من الدول (الصديقة والشقيقة) - إلى تأجيل هذا الإعلان الذي كان مقرراً في ١٣ سبتمبر ٢٠٠٠م إلى أجل غير مسمى. وهو تأجيل يدل على أن الأطراف المعنية تدرك تماماً أن الحل النهائي لمصير القدس له صيغة واحدة مقبولة لدى (الشرعية الدولية) ومن يقومون عليها في العالم (الحر)، وهي صيغة أن تكون القدس عاصمة أبدية موحدة لدولة اليهود.

ومن التداعيات المتعلقة بمصير القدس ما قرره يهوذا باراك من العزم على تنفيذ مشروع الفصل بين العرب والفلسطينيين، وهو الفصل الذي من شأنه أن يجعل من المناطق الفلسطينية - وعلى رأسها القدس الشرقية - مناطق حصار يفرض ويرفع عنها حسبما تقضيه الظروف الإسرائيلية.

وقد شهدت الفترة التي أعقبت (كامب ديفيد) مناورات للتعمية على ما يراد للقدس أخذت شكل مشروعات معروضة للنقاش بشأنها من جديد، ومنها مشروع التدويل: أي جعلها مدينة دولية مفتوحة، أو عاصمة للعالم - كما اقترحت بعض القيادات الفلسطينية - أو يتم تقاسم السيادة عليها بشرط ألا يأخذ الفلسطينيون منها إلا اسمها، بعد أن يخلع ذلك الاسم على مدينة (أبو ديس)، كما اقترح أن تُسند السيادة (المؤقتة) على القدس إلى الأمم المتحدة.

ولكن وفي حمأة هذا التنافس في اختراع صيغ تخرج القدس من إطار السيادة الإسلامية - التي رفضت رفضاً باتاً - إذا بباراك وشارون يقلبان الطاولة، ويعلنان بلعلعة الرصاص في سماء الأقصى، وبلغة السحل في شوارع القدس؛ أن هناك حلاً واحداً لمصير القدس وهو تفريغها من كل من يقول لا إله إلا الله، وقد أبان اليهود خلال أحداث انتفاضة القدس أن أهل

القدس مستثنون من الانتفاض، وكأن الإسرائيليين يقولون: فلينتفض الفلسطينيون في أرجاء فلسطين، أما القدس التي يتجمعون في أيام الجمع في أقصاها للذود عنه وعنها، فلا بد من التحكم فيمن يدخلها ومن لا يدخلها، إن هذا يعني أنهم يقدرون على جعل القدس مدينة معزولة عن الفلسطينيين والعرب، بل عن المسلمين والعالم في الوقت الذي يريدون. وقد أثبتت الأحداث أنه لا اختلاف بين كل الفرقاء في داخل الكيان اليهودي حول مصير القدس، وهذا ما أعلنه الرئيس الإسرائيلي الجديد (موشيه كتساف) بعد حلف اليمين الدستورية في (١/٨/٢٠٠٠م) حيث قال: «إن القدس الموحدة تحت السيادة الإسرائيلية، لن تكون محل اختلاف بين الإسرائيليين، ولن ينقسموا بشأنها إلى معسكرين»، وقد صادق الكنيست الإسرائيلي - في اليوم نفسه - على قانون أساسي (يعادل قوة الدستور) ينص على أن القدس بشطريها هي عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية، وهذا يعني أن أي حزب أو حكومة أو شخص أو جهة تدعو إلى غير هذا، تكون خارجة على الدستور.

ثالثاً: المسجد الأقصى: هزة يهودية... وصحوة إسلامية:

بعد الهزة التي أحدثها اقتحام (وليس زيارة) شارون للمسجد الأقصى مع المئات من حراسة المدججين بالسلاح من طلائع الدجال، بعد هذه الهزة انقدحت شرارة الانتفاضة من بؤرة المركز في القضية المركزية؛ فقد أحدث الاقتحام ما كان يتوقعه أو ينتظره شارون ومن ورائه باراك؛ حيث تزلزلت الأرض المقدسة، وتداعت لزلزالها بقية بلدان المسلمين، وقد ظهر - كما لم يظهر من قبل - أن الانتفاضة هذه المرة لها وللتداعيات حولها طابع خاص؛ فهي في ملامحها الأولية تأخذ صورة انتفاضة إسلامية، لا وطنية ولا قومية، يمكن لها إذا أُحسن توجيهها أن تكون بداية لتصحيح المسيرة التي اعتراها الاعوجاج في المراحل السابقة من الصراع.

وتسلسل الأحداث بعد بدء الانتفاضة في ٢٨ جمادى الثانية من عام ١٤٢١هـ الموافق ٢٥ سبتمبر (أيلول) من عام ٢٠٠٠م، لا يزال مستمراً، ولكن المخطط اليهودي النصراني الإجرامي الرامي إلى هدم المسجد الأقصى، يلقي بظلاله القاتمة على تلك الأحداث التي ضبطت برامجها فيما يظهر على تواقيت الفعل المستفز، ورد الفعل المنتظر. فماذا كان يُنتظر من المسلمين في فلسطين أن يفعلوا وهم يرون نجساً من الأنجاس يدنس بأقدامه الساحات الطاهرة(١)؟ وماذا كان ينتظر منهم وهم يشاهدون الدماء تسيل رداً على الاحتجاج؟ وماذا كان ينتظر وهم يرون الدبابات تنضم إلى المصفحات، والرشاشات تساندها الطائرات؟! إنها ردود الأفعال التلقائية المنتظرة لكي يبنى عليها ما بعدها.

---

(١) الحاخامية اليهودية الكبرى ظلت تمنع اليهود من دخول المسجد الأقصى طوال السنوات الماضية، خوفاً من أن يطأ أحدهم موضع (قدس الأقداس) الذي لا يجوز ليهودي لم يتطهر برماد البقرة الحمراء أن يطأه برجليه. ومع ذلك فإن هؤلاء الأنجاس لا يرون بأساً في تنجيس أرض المسجد الأقصى واستباحته رغم أنهم لم يطهروا بعد، ولن يطهروا أبداً..!

ها هو العام ٢٠٠٠م تفتعل فيه الأحداث الجسام، ليؤكد بنو إسرائيل لبني إسحاق أن عصر التحام الأمة الضالة مع الأمة الغضبية قد بدأ، وأن مسيرتهما المشتركة لإنجاز ما تبقى من أشراط العلو الكبير تمضي بانتظام، وأن ذكرى ذلك العام الميلادي التي لا يعترف اليهود بصاحبها تمثل علامة فارقة في التاريخ، ولهذا فلا ينبغي أن يكون عاماً ككل الأعوام في نظرهم.

رابعاً: الهيكل الثالث: حجر الأساس (الرسمي) يسبق كل الأحجار:

شهد هذا العام ما لم يسبق حدوثه على صعيد المسعى الخبيث لبناء الهيكل الكفري الشركي المنسوب زوراً لسليمان ـ عليه السلام ـ[1] أما هذا الحدث فهو صدور إذن رسمي من الدولة العبرية لجماعة أمناء الهيكل اليهودية الأمريكية بإرساء حجر الأساس إيذاناً بمرحلة البدء في التنفيذ (في ١٥/١٠/٢٠٠٠م)، ومن الغريب هنا أن زعيم الجماعة (غورشون سلمون) قال للصحفيين في تلك المناسبة: «إن مشروع البناء سيحتاج إلى مدة سنة كاملة للانتهاء منه»، ووجه الغرابة في ذلك أن رئيس هيئة الأركان الإسرائيلي (شاؤول موفاز) صرح بعد ذلك بأيام قليلة أن الحرب التي اعتبرها قد بدأت قد تستمر لمدة عام! فهل يبقى اليهود على أوار الحرب مع الفلسطينيين وغيرهم حتى ينجزوا مشروعهم المشؤوم؟!

أمر آخر لافت، يتعلق بالهيكل الثالث وما يُعَدُّ له؛ فالبقرة الحمراء التي أعلن عن ظهورها عام ١٩٩٦م، يبدو أن اليهود قد استبدلوها بأخرى (موديل ٢٠٠٠) فقد أُعلن في شهر أغسطس من عام ٢٠٠٠م عن ظهور بقرة أخرى مطابقة للمواصفات (أمريكية هذه المرة) في ولاية تكساس، وقالت صحيفة يدعوت أحرونوت في عددها الصادر في (١٦/٩/٢٠٠٠م): «إن البقرة الجديدة ستنقل إلى القدس قريباً».

وهنا أذكِّر بأن موضوع البقرة المنتظرة ليس قصة فكاهية يتندر بها اليهود في مجالسهم بل هي عقيدة وشريعة لازمة عندهم، تتعلق بتطهير شعب يوقن بأنه متلبس بالنجاسات منذ ألفي عام، ولن يتطهر منها إلا برماد تلك البقرة، ولذلك يطلقون على عملية إحراقها قبالة الهيكل لتطهير الشعب اليهودي بها: (الشريعة الأبدية) كما نصت على ذلك توراتهم.

خامساً: البصمات الألفية على السياسة الدولية:

بدت هذه المظاهر في أشكال متعددة أراد أصحابها ـ فيما يظهر ـ ألا يمر العام ٢٠٠٠م، دون بصمات يتركها محفورة في ذاكرة التاريخ؛ بحيث تظل مرتبطة بتلك الذكرى النصرانية في الأصل التي تحولت إلى تقويم دولي. شهدت سنة ٢٠٠٠م أكبر هجمة تبشيرية في عقر ديار المسلمين؛ إذ أتيحت لرأس النصرانية الكاثوليكية

(١) صحيح أن سليمان ـ عليه السلام ـ شيد المسجد الأقصى تشييداً عظيماً في عصره، ولكنه بناه على أساس التوحيد والإيمان، لا على أساس الشرك والكفر والبهتان الذي يريد اليهود والنصارى أن يشيدوه على أساسه.

(بولس السادس) أن يقيم على أراضي المسلمين قداسات مفتوحة وعلى الهواء، وذلك في زيارته للمنطقة التي شملت فلسطين والأردن ومصر في شهر مارس ٢٠٠٠م، وكان مقرراً أن يزور العراق وسوريا أيضاً، إلا أنه آجّل زيارة سوريا، وألغى زيارته للعراق تجنباً للسخط والاحتجاج الأمريكي. لقد كانت تلك الزيارة (الألفية) ذات معانٍ وإيحاءات متعددة، تترك انطباعاً بأن نصارى الكاثوليك الذين يتحدث باسمهم (البابا) قد بدؤوا يجدُّون في السير على الدرب الذي سبقهم إليه نصارى البروتستانت، للاقتراب من اليهود، والتحول الكبير إلى ما يخدم أهدافهم في منطقتنا الإسلامية، وكان على رأس هذه الخطوات في ذلك، إشعار رأس الكنيسة الكاثوليكية اليهود، بأنه لا مانع لدى النصرانية الكاثوليكية من اتخاذ القدس عاصمة لهم (مؤقتاً)، وقد ظهر ذلك من خلال زيارة بابا الفاتيكان للقدس، وإقراره الضمني بكونها عاصمة لدولة (إسرائيل) بعد حضوره للعديد من المناسبات واللقاءات التي ألقى اليهود فيها على أسماعه عبارة (القدس هي العاصمة الموحدة الأبدية لدولة إسرائيل) دون أن يصدر عنه ما يدل على تحفظ أو اعتراض.

وكان من اللافت أيضاً أن يشهد العام ٢٠٠٠م عودة إلى الحديث عن الطرح النصراني للحل النهائي لقضية القدس، وهو أن تصبح القدس (عاصمة العالم)، وهو الطرح الذي أصبح أكثر الصيغ قبولاً على المستوى الدولي بعد أن تعارضت الصيغ المعروضة من الجانب الفلسطيني العربي، والجانب الإسرائيلي الأمريكي.

أما على الجانب السياسي المدفوع دينياً، فقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية - ولأول مرة في تاريخها - معركة انتخابية، كانت المزايدة على الموقف من القدس ونقل السفارة الأمريكية إليها إحدى الورقات الكبرى للتنافس على كسب أصوات اليهود، لا بل إن استرضاء اليهود قد بلغ حد أن يُعيِّن الحزب الديمقراطي نائباً يهودياً أرثوذكسياً متديناً لمرشحه للرئاسة الأمريكية وهو السيناتور (جوزيف ليبرمان)، وهذا يعني أن نسبة من الشعب الأمريكي لا تقل عن نسبة من صوتوا لآل جور تقبل أن يكون الرئيس الأمريكي يهودياً قلباً وقالباً. وهذا تحول في غاية الخطورة، يدل على المدى الذي وصلت إليه قوى اليمين الديني النصراني الصهيوني السائرة بإصرار في طريق تسلم زمام السلطة في القطب الوحيد في الأرض؛ فهل تشهد الألفية الجديدة في مراحلها الأولى صراعاً تنافسياً بين النجوم الخماسية والنجوم السداسية على العلم الأمريكي؟ أم ستصبح أمريكا القرن الحادي والعشرين هي ولايات متحدة إسرائيلية؟!

لقد ترادفت تلك التفاعلات، والألف الثالث للميلاد لم يبدأ بعد.. فالعام ٢٠٠٠م قد حل (خطأً) محل العام ٢٠٠١م الذي يمثل العام الأول في ذلك القرن، فهل تستمر التخاريف العلمية والعملية لبداية الألفية لعام آخر.. الله أعلم!



ثوابت في قضيتنا الكبرى.. فلسطين

د. سليمان بن حمد العودة

مهما تحدث الناسُ عن اليهود، ووصفوا طباعهم ونفسياتهم فلن يبلغوا مبلغ القرآن في ذلك، وكفى أن يستيقن المسلمُ شدةَ عداوتهم وهو يقرأ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لتجدَنَّ أشدَّ النَّاس عداوةً لِّلَّذِينَ آمنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أشْرَكُوا ﴾ [المائدة: ٨٢]، وأن يعلم نوعية سعيهم في الأرض من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ويسْعوْنَ فِي الأَرْضِ فَسادًا ﴾ .

[المائدة: ٦٤] .

أجل إنهم ملعونون على لسان أنبيائهم بما عصوا وكانوا يعتدون، وقساةُ قلوب بشهادة الذي خلقهم وهو العليم الخبير: ﴿ فَبمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣]، وهمْ أسرع الناس للإثم والعدوان بشهادة القرآن على أكثرهم: ﴿ وتَرَىٰ كثيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢] .

والحديث هنا ليس وصفاً لليهود أو استجماعاً للنصوص التي تكشف طبائعهم ومواقفهم وخبثهم؛ فذلك له حديث خاص ـ وإنما يتركز حديث اليوم على قضيتنا الكبرى مع اليهود بمعالمها وأبعادها وطبيعة الصراع فيها لا سيما ونحن نسمع ونرى ـ هذه الأيام ـ أحداثاً دامية واعتداءاً صارخاً على المسلمين، ومحاولات تتكرر للعبث بمقدساتهم، واستفزازاً أهوج لمشاعرهم، وما الحوادث التي تدور رحاها الآن في فلسطين وراح ضحيتها عددٌ من القتلى ومئات من الجرحى إلا حلقة في هذا المسلسل

الإجرامي الحقود.

وحتى ندرك حجم القضية ونعلم طبيعة المعركة مع اليهود نورد سؤالاً ثم نجيب عليه أو على بعضه.. والسؤال يقول: ما هي أبرز المعالم في قضيتنا الكبرى مع اليهود؟

والجواب:

١ - ليست قضيتنا مع اليهود قضية أرض مجردة يمكن أن نتقاسم فيها النفوذ وأن نتعايش بسلام: كلا؛ فالقضية قضية مقدسات إسلامية، وحقوق مغتصبة، قضية حق يمثله الإسلام والمسلمون تُطمس هويته ويُشرد أبناؤه، وباطل تمثله اليهودية المحرفة، وينتصر له اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالون - قضيتنا لها بُعدها العقدي ولها امتدادها التاريخي.

٢ - وليست قضية فلسطين بمقدساتها وتاريخها قضية العرب وحدهم - كما يريد الغرب ومن سار في ركابه أن يُشيعوه -: بل هي قضية كل مسلم على وجه البسيطة يؤمن بالدين الحق ويستشعر عداوة اليهود والنصارى للمسلمين، وينتمي لهذه المقدسات.

٣ - والقضية - كذلك - ليست حقاً خاصاً لمسلمي اليوم يتصرفون فيها كيفما شاؤوا، ويتنازلون إذا اتفقوا: كلا.. بل هي ميراث وأمانة.. ميراث عن الآباء وأمانة لا بد من تسليمها للأبناء؛ فقد فتحها أسلافنا بدمائهم، وحرروها بصدق عقيدتهم وجهادهم، ولا يحق لنا أن نهدر هذه الجهود حين غاب المحررون، كما لا يسوغ لنا أن نحجر على مسلمي الغد فنكبلهم بمعاهدات سلام هزيلة، ونبيع حقنا وحقهم بأبخس الأثمان.

٤ - ما هي اللغة التي تفهمها إسرائيل ويحتاجها العرب والمسلمون؟ إنها لغة القوة، وبهذه القوة استسلم اليهود عبر التاريخ؛ وإذا تجاوزنا تاريخهم قبل الإسلام، ووقفنا عند تاريخهم في المدينة مع محمد ﷺ والمسلمين فأينا كيف كان غدرهم ونقضهم للعهود، ورأينا محمداً ﷺ يتعامل معهم بالحصار والإجلاء، بل وتقديم طوائف منهم لتحصد رؤوسهم ويساقون إلى الموت وهم ينظرون، وكيف لا يكون ذلك وقد نقضوا العهود، وألَّبوا الأعداء، ودلُّوا المشركين على عورات المسلمين في أُحُد، ثم كانت غزوة الخندق ومجيء الأحزاب بتخطيطهم مع مشركي قريش؛ وآخر طائفة منهم تماسكت على العهد خوفاً من المسلمين حتى إذا لاحت لهم الفرصة غدرت بنو قريظة في أشد الظروف وأحلكها على المسلمين؛ وتلك التي قال الله عنها: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾.

[الأحزاب: ١٠، ١١].

ذلك نموذج لغدر اليهود في زمن النبوة، وذلك أسلوب نبوي للتعامل معهم، وهدي المرسلين صالحٌ للاعتبار والاقتداء في كل زمان ومكان.

٥ - ما مفهوم إسرائيل للسلام، وما هدفُها من إشاعة مفاهيم السلام؟ إننا نخادعُ أنفسنا حين نعتقد أن إسرائيل جادةٌ في تحقيق السلام؛ والواقع

يشهد بإفلاس المسرحيات الهزيلة للسلام، ومن كامب ديفيد بمراحله المختلفة وأدواره المكشوفة، إلى مدريد أو غيرها من محطات السلام استسمن المخدوعون بالسلام ورماً، فإذا الجبلُ يلد فأراً، وإذا الانتقام يعقب السلام ومداده لم يجف بعد، فتتحدثُ الديانة المجنزرة باسم السلام الذي تريده (يهود) وينطق الرشاس، ويحوم الطائرات المروحية، وترمى الطلقات المطاطية وغيرها - بشكل عشوائي لتصيب الأطفال والنساء والشيوخ .. وتكون هذه وتكون هذه؛ وتلك لغة السلام المعبرة في ذهن إخوان القردة والخنازير؟!

وَمَن صنع مسرحية السلام؟

موقف إسرائيل من السلام ليس على ظاهره؛ بل دافعها للسلام إظهارُ نفسها - للعالم - بصورة الإيجابية المحبة للسلام - وذلك لتستقطب الاستثمارات وتفتح الأسواق الخارجية؛ تعزيزاً لاقتصادها. أو هي باختصار كما يقول أحدُ اليهود[1] وهو شاهد من أهلها: «ليست (عملية السلام) سوى حملة علاقات عامة لترويج إسرائيل»[2].

٦ - وقفة إشادة وتقدير لأطفال الحجارة الفلسطينيين الذين أرعبوا اليهود: لكن السؤال المهم: هل بلغت أمة المليار حداً من الضعف حتى أنابت عنها في قتال الأعداء أطفالاً لا يملكون إلا الحجارة يقاتلون بها اليهود ويرهبون بها مَن وراء اليهود؟

وفي المقابل فإن أمة مدججة بالقوة وتعد ترسانة للسلاح النووي وغيره يرهبها أطفال عزل من السلاح؛ ليست خليقة بالبقاء، ولا قادرة على الصمود والتحدي حين يتوفر المجاهدون الصادقون، عجَّل الله وجودهم.

٧ - الغرب ومنظمات الجهاد والأصولية: ومن هنا يُعلم سر تخوف الغرب واليهود من تنظيمات الجهاد وصيحات المجاهدين وما يسمونهم بالأصولية، ومحاولاتهم تشويه صورتهم ووصف المجاهدين بالإرهابيين؛ ذلك لأنهم يدركون أن هؤلاء عدوهم الحقيقي، وهؤلاء هم خطرهم المستقبلي يصرحون بذلك في كتبهم ولا يكتمونه، يقول الرئيس الأمريكي (نيكسون): «إن صراع العرب ضد اليهود يتطور إلى نزاع بين الأصوليين الإسلاميين من جانب وإسرائيل والدول العربية المعتدلة من جانب آخر»[3].

ومن جانب آخر يعلنون بكل صراحة ويقولون في ملتقياتهم العامة: على روسيا وأمريكا أن تعقدا تعاوناً لضرب الأصولية الإسلامية.

ويقولون - كذلك -: «علينا نحن الأمريكان والروس تناسي خلافاتنا والتحالف معاً لضرب الإسلام»[4] فهل يا تُرى يستفيق المغفلون الذين يرددون ما تردده الدوائر اليهودية والنصرانية في الغرب والشرق عن إخوانهم المسلمين؟ وهل ندعم

---

(١) نعوم تشومسكي (يهودي مشهور).

(٢) عبد الوهاب الفايز، مقال في جريدة الرياض ١٤٢١/٧/٧هـ (بين أطفال الحجارة وترسانة الأسلحة النووية).

(٣) نصر بلا حرب، ١٩٩٩م، ص ٢٨٤.

(٤) القدس بين الوعد والحق والوعد المفترى.

الجهاد الحق - وهو ذروة سنام الإسلام - ليكون الفيصل بيننا وبين أعدائنا، وهو أقصر الطرق وأنفعها لاسترداد حقوقنا وتحرير مقدساتنا؛ «وما ترك قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا».

يا للخيبة والعار حين يُسارع ممثلو الفلسطينيين لاستجداء الآخرين في صفقات السلام الهزيل وهم المُعتدَى عليهم في الوقت الذي يرفض فيه زعماء إسرائيل حضور هذه الملتقيات وهم المجرمون المعتدون؟

لا بد من تحقيق الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين، وفي كتابنا العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

[المائدة: ٥١، ٥٢].

٨ - بين الحماس الشعبي والتَّراخي السياسي يبرز مَعْلَمٌ من معالم الموقف في قضيتنا الكبرى: فالمتأمل في الأحداث الجارية مع اليهود في فلسطين يلاحظ حماساً وعاطفةً إسلامية تنفذ في قلوب الشعوب العربية والإسلامية منددة باليهود، ليس فقط في حدود فلسطين بل وخارجها، ومن أطفال الحجارة إلى المنظمات الجهادية - إلى المظاهرات الطلابية. وفي أرض الكنانة (مصر) نموذج لهذا الحماس الإسلامي تجاه المقدسات وتجاه الدماء الإسلامية، وفي مقابل ذلك هناك فتور وتراخ في الموقف السياسي ممن يملكون القرار، ولا يزالون يحملون حقائبهم للمفاوضات الخاسرة على الرغم من النكسات المريعة والصلف اليهودي المثير، ولا تزال الشعوب العربية والمسلمة تتطلع إلى قرار جماعي وموقف بطولي يضع حداً لعبث اليهود وينهي مرحلة الذل والاستسلام.

٩ - ضعف الإعلام العربي والإسلامي في خدمة قضية فلسطين: نلاحظ ضعفاً في إعلامنا العربي والإسلامي تجاه قضية فلسطين الكبرى، وللإعلام دورُه في إذكاءِ حماس الشعوب، بل وفي الضغط لاتخاذ مواقف جادة مع بني صهيون.. وماذا يصنع الإعلام الغربي واليهودي لو أن طفلاً يهودياً قتله المسلمون؟ فكيف بمجموعة من الأبطال والرجال والنساء يُقتلون؟ وكيف والعبث بالمقدسات والاستفزاز في الزيارات ديدن اليهود؟ والمأساة هي التغفيل من قبل الإعلام إلا عواطف مجردة تخرج عند الحدث ثم لا تلبث أن تخبو وكأن شيئاً لم يكن.

أما الإعلام الكافر فمعروف بتحيزه وخدمته لقضايا فكره والدفاع عن أبناء جنسه وملته، وهو غير ملوم في ألاَّ نخدم قضايا المسلمين، ولكن الملوم إعلام العرب والمسلمين؟ على أن أمر القضية الكبرى ليس مسؤولية الإعلاميين وحدهم، بل ورجال الفكر وأساتذة الجامعات؛ وذلك بإثراء القضية بأحاديثهم وبحوثهم ومقالاتهم وكتبهم؛ فأين هؤلاء جميعاً من قضيتهم وبكل نزاهة وتجرد وصدق وإخلاص؟

١٠ - الهيئات والمنظمات الإسلامية والقضية: إن سؤالاً وجيهاً يطرح نفسه: كم في العالم العربي

والإسلامي من هيئة ومنظمة إسلامية، وأين دورها وما أثر هذا الدور في خدمة القضية؟ وهل يقارن أثرها وحراتها بالمنظمات والهيئات الغربية؟ أم أصيبت بنوع من الإحباط لكثرة رزايا المسلمين، سواء كان هذا أو غيره من الأسباب فلا يُسوِّغ صمتها في بيان الموقف الإسلامي بعيداً عن أي مؤثرات أخرى، ولا يعفيها من المسؤولية إن جاء صوتها متأخراً وهزيلاً؟ وأي هيئة أو منظمة إسلامية لا يعنيها شأن المقدسات ولا تستنكر نزيف الدماء المسلمة، ولا تندد بظلم الطغاة والمجرمين فماذا تُقِرُّ، وماذا تستنكر؟

وللحق أن يُقال: إن ثمة هيئات ومنظمات إسلامية تستنكر؛ لكن الحديث عن الأعم والأغلب، وهو دون المستوى المطلوب في حجمه وفاعليته!

١١ - بين خسارتين: لا شك أن سقوط عددٍ من القتلى والجرحى في أرض فلسطين خسارة للفلسطينيين والمسلمين، ولا شك أن إرهاب الآمنين من المسلمين في الأراضي المحتلة يُسيء للفلسطينيين وعموم المسلمين، ولكن الخسارة تصبح أعظم لو سار قطارُ السلام واستثمره اليهود والنصارى لصالحهم ضد المسلمين، فتمَّ التطبيع، وصدَّرت إسرائيل أفكارها وعقائدها، وروجت للمخدرات، وانتشر الفساد الخلقي، وراج سوق البغايا. إن حُمق اليهود واستفزازهم أشعل فتيل العداوة ضدهم وذكَّر المسلمين بأهدافهم ومخططاتهم، واستيقن من لم يستيقن من المسلمين بعدم جدوى عمليات السلام وضرورة الاستعداد للمواجهة مع اليهود مستقبلا، وهذه وتلك ايجابيات للأحداث ﴿فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ [النساء: ١٩].

١٢ - تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى: تلك حقيقة قرآنية تكشف عن تنازع اليهود واختلافهم - فيما بينهم - وهم كذلك في القديم والحديث، وينبغي أن يدرك المسلمون هذا الخلل عند اليهود، ويستفيدوا منه لصالح قضيتهم، ولئن ظهر للناس اليوم أن اليهود متفقون ومتماسكون في فلسطين فليس الأمر كذلك؛ بل تشير الدراسات إلى عددٍ من المشاكل التي تُقلق مضاجعهم؛ فهم أحزاب متناحرون، ووصل الأمر إلى قتل المتطرف منهم - للمعتدل - في نظرهم - وإن كانوا في نظرنا متطرفين، والهجرة المعاكسة والخروج من فلسطين لدى بعض اليهود بسبب عدم توفر الأمن لليهود يقلق الإسرائيليين، كما يقلقهم عدم استجابة السكان اليهود لدعوى تكثير النسل، ولا سيما أنهم اكتشفوا أنه مقابل كل شهيد فلسطيني يُولد عشراتٌ من الفلسطينيين، وهكذا الطبقية المقيتة تزعج اليهود، ولو أن المسلمين صدقوا في جهادهم لاكتشفوا كثيراً من طباعهم وعناصر الضعف فيهم.

وأقف ويقف غيري متسائلاً: وماذا ستتمخض عنه هذه المشاعر العربية والإسلامية الغاضبة تجاه ما يصنعه اليهود اليوم في أرض المقدسات؟ ولئن قيل إنها ستنتهي عند حدود الشجب والاستنكار كما حدث في مجزرة الخليل ومذبحة صبرا وشاتيلا وسواها من أحداث دامية ارتكبها اليهود، وهي

مسطورة في تاريخهم الأسود ؛ فهناك من يقول : إنها وإن كانت كذلك في المنظور القريب ، فإنها على المدى البعيد ستشكل ـ هذه المآسي ـ أرضية تنبت العزة والكرامة لدى الشعوب العربية والمسلمة ، وستكون سلاحاً يُقاتل به اليهود ، وسينشأ في هذه المحاضن الصعبة أطفال يرضعون كره اليهود ومن شايعهم مع حليب أمهاتهم ، وسيكونون رجال المستقبل يقاتلون وهم صادقون ، ويصبرون حتى ينتصروا .

ولكنها مأساة بحق مسلمي اليوم حين يلوذون بالصمت وهم يرون الحقد اليهودي يتزايد ، والدعم الغربي لدولة الصهاينة يتفاقم ، والهيئات والمنظمات الدولية تتفرج ، بل ربما تتلذذ بمشاهدة المسرحيات وهي تُنفذ وهم خلف الستار .

أجل لا يسوغ لأمة ولدت أطفالاً يقاومون بالحجارة أن تظل تتفرج على هؤلاء الأطفال وهم يقضون نحبهم ـ كما يتفرج غيرهم ـ دون أن ينصروا مظلوماً أو يردعوا ظالماً ؛ وماذا سيكون موقف الحكومات الإسلامية التي تورطت بعلاقات واتفاقات اقتصادية أو ثقافية أو عسكرية أو نحوها مع إسرائيل وهي تفعل اليوم ما تفعل بأبناء فلسطين ومقدسات المسلمين وإخوانهم المسلمين؟! إنها مأساة حين يتفرج أبناء الملل الأخرى على ما يحصل لأبناء المسلمين ولسان حالهم يقول : أين أهل هؤلاء؟ أين أبناء ملتهم؟ أليس دينهم يقول لهم : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أليس بينهم من يقول لهم : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] ، فأين حقوق الأخوة؟ وأين وسائل النصرة؟

البعد الديني في القضية الكبرى:

قضيتنا في فلسطين وحربنا لليهود لها بُعدٌ ديني ليس فقط عندنا معاشرَ المسلمين ، بل وعند اليهود والنصارى ، ولكن الفرق أن لنا وعداً حقاً ولهم وعدٌ مفترى ، أما وعدنا الحق فأساسه الكتاب المحفوظ وبشارات المصطفى ﷺ بقتل اليهود وبمساعدة الشجر والحجر على قتلهم إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود ، وأحاديث نزول المسيح ـ علية السلام ـ في آخر الزمان ، وأنه سيقتل اليهود والنصارى ويحكم بالإسلام ، وما ورد أن بلاد الشام ستكون معقلاً للمسلمين ، ومنها يقاتلون الروم ، إلى غير ذلك من وعودٍ صادقة تؤكد أهمية بلاد الشام للمسلمين ومنها فلسطين ، وما سيكون فيها من ملاحم بينهم وبين أعدائهم هذا كله فضلاً عن تعلُّق المسلمين بالمقدسات هناك وشعورهم بضرورة حمايتها من الخطر اليهودي والنصراني .

أما الوعد المفترى لليهود فيقوم على نصوص محرفة في التوراة يقول أحدها ـ كما في الإصحاح الخامس عشر ـ : «يقول الرب ـ تعالى عما يقولون ـ لنسلك (يعني يعقوب) أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» .

وفي الإصحاح السابع والعشرين تتمة ذلك : «يُستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين» ، ومن هنا قال بن جوريون (رئيس أول حكومة يهودية) : «تستمد

---

(١) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، د . يوسف الحسن ، ص ٧٦ .

الصهيونية وجودها وحيويتها من مصدرين: مصدر عميق عاطفي دائم، وهو مستقل عن الزمان والمكان، وهو قديم قدم الشعب اليهودي ذاته وهو: الوعد الإلهي والأمل بالعودة...» والملاحظ أن هذا البعد الديني لا ينفرد به اليهود بل يشاركهم فيه النصارى، ولا يقتصر الأمر فيه على بني صهيون بل يصرح به ساسة الأمريكان، يقول كارتر: «لقد آمن سبعة رؤساء أمريكيين وجسدوا هذا الإيمان بأن علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل هي أكثر من علاقة خاصة، بل هي علاقة فريدة؛ لأنها متجذرة في ضمير الشعب الأمريكي نفسه وأخلاقه ودينه ومعتقداته، لقد شكّل إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية مهاجرون طليعيون، ونحن نتقاسم ميراث التوراة»[1].

ويقول الأصولي النصراني (مايك إيفانز) ـ وهو صديق الرئيس (بوش) وصاحب علاقات حميمة معه ـ يقول: «إن تخلي إسرائيل عن الضفة الغربية سوف يجر الدمار على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة الأمريكية من بعدها، ولو تخلت إسرائيل عن الضفة الغربية وأعادتها للفلسطينيين فإن هذا يعني تكذيباً بوعد الله في التوراة، وهذا سيؤدي إلى إهلاك إسرائيل، وهلاك أمريكا من بعدها إذا رأتها تخالف كتاب الله وتقرها على ذلك»[2].

ومن هنا يلتقي اليهود والنصارى على هذا الوعد المفترى، ويتكئون على البعد الديني في سياستهم مع المسلمين؛ فهل يفقه المسلمون هذا؟ بل وهل يدركون تخطيط اليهود والنصارى وخطواتهم في إيجاد إسرائيل أصلاً، ذلكم بُعدٌ آخر يمكن أن نسميه: (أساس المشكلة) فكيف وجدت وقامت إسرائيل؟ إنها ربيبة الغرب، خاض من أجلها الحروب وعقد لها الاتفاقات والتزم لها بالوعود؛ ودونكم هذا التحليل للحروب الكونية فتأملوه وانظروا في آثاره؛ فالحرب العالمية الأولى كان من آثارها بل من أغراضها تقسيم الدولة العثمانية، والقضاء على الخلافة الإسلامية، وإعلان حق اليهود في تأسيس دولتهم رغم أنف عبد الحميد (البطل) الذي رفض عروضهم المغرية، وتأسيس دولة عظمى على العقيدة اليهودية الشيوعية، وحينها دخل الجنرال اللّنبي أرض الشام وركز الراية قائلاً: «الآن انتهت الحروب الصليبية»، وأصدر الإنجيلي المتعصب (بلفور) وعده المشؤوم بإنشاء وطن قومي لليهود.

أما الحرب العالمية الثانية فكان من أغراضها ونتائجها القضاء على النازية منافسة الصهيونية، وإعلاء شأن الحكومة اليهودية الخفية (الشيوعية)، وإعلان ميلاد إسرائيل.

أما الحدث الثالث فهو الوفاق الدولي (اليهودي والنصراني) حيث تقرر انتهاء دور العقيدة الشيوعية، ليعود اليهود والنصارى عصا غليظة وأداة لتهشيم رأس العدو المشترك (المسلمين) ويفتح الباب لهجرة أكبر تجمُّع يهودي في العالم بعد أمريكا، وليصبح جيش الدفاع الإسرائيلي بوليس المنطقة كلها، وتبعاً لذلك فلا بد من إجهاض أية

(١، ٢) القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، ص ٤٢.

محاولة عربية وإسلامية للحصول على السلاح النووي أو بديله المحدود الكيميائي، والعمل على تمزيق الأمة، ومن هنا جاء سيناريو حرب الخليج ليقضي على قوة العرب وليقضي معه على تجمع العرب ووحدة المسلمين، ولا تزال التهديدات الغربية لباكستان المسلمة جارية، وكأن العرب والمسلمين سفهاء لا بد من الحَجْر عليهم ومنعهم من صناعة أسلحة نووية أو حيازتها، والهدف حماية اليهود والنصارى من الخطر المستقبلي؛ فهل نفقه اللعبة؟ وهل ننطلق في قضيتنا من البعد الديني والتخطيط المستقبلي، أم أن ذلك حلٌّ لأصحاب الديانات المحرفة حرام على أصحاب الدين الحق؟!

سقوط الشعارات الخادعة

إن وعينا - معاشرَ المسلمين - بهذا التاريخ ومعرفتنا بهذه المسرحيات يجعلنا لا ننخدع بالشعارات البراقة التي يروجها ويصدرها الغرب لنا، بل إن رؤيتنا للواقع السيئ اليوم يكشف لنا زيف هذه الشعارات الوافدة كالعنف والتطرف والأصولية، وما يسمى بحقوق الإنسان.

فماذا يقول الغرب عامة - وأمريكا على وجه الخصوص وهي تتبنى فكراً عالمياً ضد التطرف والعنف؟ ماذا تقول وهي ترى، والعالم من حولها يتابع عنف إسرائيل وتطرفها واستهانتها بأبسط حقوق الإنسان؟ أم أن هذه المصطلحات لازمة للمسلمين فقط، فيقال: العنف الإسلامي، والتطرف الإسلامي، والأصولية الإسلامية... وهكذا تقوم الدنيا ولا تقعد على من يسمونهم بالإرهابيين المسلمين حين يدافعون عن حقوقهم، بينما يُغض الطرف عن الصهاينة وهم يعتدون على غيرهم، ويندد بالأصولية الإسلامية حين يعود المسلمون إلى دينهم ويرفضون التبعية للأمم الكافرة؟ وهكذا تقصر حقوق الإنسان على اليهودي والنصراني وإن كانوا في ميزان الحق مغضوباً عليهم وضالين.

إنها شعارات مكشوفة من قبل لمن نور الله قلوبهم بالوعي والإيمان؛ وأحداث اليوم تزيد في كشفها لمن في قلبه مرض أو على عينيه غشاوة.

إن واقع اليوم نكسة على العلمانيين والليبراليين أدعياء العلمنة ودهاقنة العلمانيين، وضربةٌ على الليبراليين الغربيين الذين ما فتئوا يقتاتون مما يوضع في أفواههم من الغرب؛ فهل يستسيغون اليوم هذا الطعم المرَّ النكد؟ أم يتجرعونه ولا يكادون يسيغونه، لا كثَّرهم الله في الأمة إن ظلوا على غيهم!

صيحات أطلقناها ونشيد حفظناه:

سبق أن أطلقنا: «ادفع ريالاً تنقذ عربياً» فماذا نقول اليوم، والأقصى برمته ومن فيه من المسلمين يتعرض للخطر، بل ويطال التهديد الإسرائيلي دولاً مجاورة أخرى؟

وما رَجْع الصدى لنشيد حفظناه ورددناه أطفالاً وكباراً، وبه استصرخ الشاعر عواطفنا حين قال:

أخي جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدى
وليسوا بغير صليل السيوف
يجيبون صوتاً لنا أو صدى

ثم ردد مع الشاعر الآخر قوله :

وتُردُّ بالدم بقعةٌ أخذت به
ويموت دون عرينه الضرغام

انحياز الأمم وحرب المستقبل:

لقد أصبح واضحاً - أكثر من ذي قبل - انحياز الأمم بحسب معتقداتها وفكرها ومصالحها ، ثم تُظهر الدول النصرانية والشيوعية امتعاضاً يُذكر لما يصنعه اليهود بالمسلمين.

بل انسحبت أمريكا وامتنعت عن التصويت لإدانة (إسرائيل) مع أنها راعيةُ السلام المزعوم، والمناديةُ بعالم لا عنف فيه ولا حرب؛ فماذا يعني ذلك؟ وجاء قرار مجلس الأمن بشكل عام بارداً وضعيفاً. وحري بالأمة المسلمة أن ينحاز بعضها إلى بعض، وتردم الخلافات الفرعية بين أبنائها لمواجهة الأمتين اليهودية والنصرانية؛ فحرب المستقبل ليست صراعاً على النفوذ فحسب بل هي حرب وجود، حرب عقائد وإن سُيِّست، والمعركة القادمة لن تكون نزاعاً بين الفلسطينيين أو حتى العرب مع إسرائيل، بل هي حرب بين المسلمين وأعدائهم من اليهود والنصارى، فلينتبه المسلمون لهذا، وليستعدوا للمعركة بما استطاعوا من قوة ليرهبوا عدو الله وعدوهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثمن الانتفاضة:

لقد نجح الفلسطينيون في التعبير عن مشاعرهم، وأثبتوا لأنفسهم وللعالم أنهم لن يستسلموا لبني صهيون وإن لم تكن قوتهم مكافئة أو مقاربة لقوة عدوهم، وصدق المسلمون في صدق مشاعرهم ومؤازرتهم لإخوانهم، وجددوا أمام العالم حرصهم وانتماءهم لعقيدتهم ومقدساتهم، ولكن هذه الانتفاضة التي راح ضحيتها عدد من أبناء فلسطين قتلى وجرحى، وما نتج عنها من ألم وشكوى، وهذه الانتفاضة والمشاعر الإسلامية المعبرة، ما ثمنها؟ لا سيما أنه يُراد لها أن تنتهي هذه الأيام؛ أفتنتهي بحلول بسيطة ومكاسب محدودة لا تساوي نزيف الدماء ولا تأوهات الجرحى ولا صيحات المسلمين هنا وهنا؟!

وحين يرقب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها نتائج مؤتمر القمة فهل كان هدف المؤتمرين امتصاص الغضبة وسحب الغليان، والرضى بالبيانات المجردة.. أم أنهم كان ينبغي أن يتجاوزوا ذلك ويكونوا عند أو فوق تطلعات شعوبهم؟ فما عاد العهد مع اليهود، ولا الوعود مع بني صهيون تجدي فتيلاً لا بد من المطالبة بحلول عملية والانتهاء إلى قرارات جادة تكفي ثمناً لهذه الانتفاضة، وتتجاوب مع هذه العواطف الجياشة، وعلى المسلمين جميعاً ألا يفتُروا ما دام الفتيل أشعل حتى يضيء الحق في أرضنا ويُجلى اليهود عن مقدساتنا.

القضية أمانة وليست للمزايدة:

نعم إن قضية فلسطين مسؤولية إسلامية لا

تقبل المزايدة! وسيحتفظ التاريخ بسجلات مواقف البطولة المعاصرة كما حفظ البطولات والمواقف السابقة، وسيسجل في مقابل ذلك كل موقف متخاذل، وكل مزايدة على هذه القضية العالمية المشروعة، وعلى العرب والمسلمين شعوباً وحكومات أن يختاروا نوعية المداد وطبيعة الموقف الذي يسجلونه ويتخذونه لقضية فلسطين، وما يخفى اليوم يظهر غداً، وما يظل غائباً عن أعين البشر فسينكشف يوم التلاق.

إن العالم بملله وأديانه يسخر بالمتزيدين، ويرفض المتاجرة بقضايا الآخرين، ولا تزال الشخصيات الإسلامية ذات الموقف الإسلامي البطولي من قضية فلسطين لا يزالون يُذكَرون بخير وهم محل الحفاوة والتقدير، ليس من المسلمين فحسب بل ومن غيرهم، وذكرى هؤلاء محفورة في أذهان المسلمين، وستظل كذلك وسينضاف إليها من سار على نهجهم فنصح لنفسه ولأمته وأخلص لقضيته ودافع عن مقدسات المسلمين.

جذوة الإيمان وإحباط الأعداء:

وعلى الرغم من سياسات تغريب الأمة المسلمة ومحاولة طمس هويتها واستخدام العولمة للتغريب إلا أن الواقع أثبت بقاء جذوة الإيمان في تكوين المسلمين، وما تزال العواطف والمشاعر الإسلامية مختزنة إذا ما استُجيشت جاشت؛ وهذه وتلك تمثل رصيداً للأمة يمكن أن تستثمره في الوقت المناسب.

وتؤكد هذه الانتفاضة أن تعبئة الأمة ليست بالأمر العسير ولا المستحيل ولا يحتاج لمزيد وقت، وحين تتوفر القادة الذين يصدقون مع الأمة ويأخذون بأيدي أبنائها فسيجدون من يسير خلف رايتهم ويشد من أزرهم.

وهكذا تبقى أمة الإسلام أمة فيها خير، يتجدد الإيمان في نفوسها كلما تعاظم الأعداء واشتدت الحاجة وادلهمَّ الظلام، وهذا كله محبطٌ للأعداء، ومشعر لهم بإفلاس وسائلهم في الإفساد، ومؤشرٌ إلى أن النصر في النهاية لهم.

استدامة الشعور ويقظة المشاعر:

ينبغي ألاَّ نضيِّع هذا الرصيد من المشاعر بتفريغه في ساعات المحنة ثم تغيب القضية عن أذهاننا؛ بل إن من أبرز مكاسب هذه الانتفاضة أن تظل قضية فلسطين حُلماً ماثلاً في أذهاننا، وأن تظل المقدسات الإسلامية هدفاً مهماً نسعى جاهدين لتخليصها ممن غضب الله عليهم ولعنهم، وأن يستمر دعمنا لإخواننا في فلسطين بأموالنا وعواطفنا وأنفسنا حتى يرفع الظلم عنهم ويُجلى العدو من أرضهم؛ ذلك درس مهم، وذلك تحدٍ يواجه المسلمين في المستقبل؛ فهل يستمرون في حماسهم لقضيتهم حتى يقضي الله بينهم وبين عدوهم؟ ذلك ما نرجو ونأمل.



مقترحات للتفاعل الإيجابي مع قضية فلسطين

نبيل أبو صالح

أحداث الأسابيع السابقة في فلسطين أججت مشاعر قطاع كبير من شعوب العالم الإسلامي، فخرجت المظاهرات والمسيرات المؤيدة للانتفاضة، والغاضبة من ممارسات اليهود وأعوانهم، وواكبت الأحداثَ كثيرٌ من الفضائيات، وقامت بتغطية شاملة لها، وعقدت الحوارات والندوات والمقابلات المختلفة، وأتيح لكثير من المشاركين التعبير عن آرائهم ومشاعرهم، وقامت حملات لجمع التبرعات؛ فجمع من خلالها عشرات الملايين من الدولارات، ثم عقد لقاء القمة، فلم يشف الغليل ـ ولم يكن متوقعاً له ذلك ـ فسبَّب ذلك إحباطاً عند شرائح عريضة من الجماهير، ترى إخوانها يُقتلون ويقصفون ولا حول ولا قوة لهم في نصرتهم.

وأمام فقدان كل بارقة أمل في الخروج من الأزمة ـ عند أولئك الذين علَّقوا آمالاً عريضة على لقاء القمة ـ رجع الناس كالشياه التائهة في الليلة الشاتية يسالون: ما الحل؟

وقبل الدخول في محاولة الجواب على هذا السؤال نذكِّر بأن الوضع الذليل الذي وصلنا إليه ليس وليد الساعة، بل هو تراكمات لكثير من الأوضاع الخاطئة، ونتيجة طبيعية للانحرافات الخطيرة التي استشرت في الأمة، وتحقيق للسنة الربانية: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

كما أن التسلط والعلو الذي بلغه اليهود لم يبلغوه بين يوم وليلة، بل عملوا الكثير من أجله، وساندهم في ذلك أعوان الشياطين.

ومن ثم فإن تغيير هذه الأوضاع لن يتم بعصا سحرية، بل بطريق طويل لبناء مقومات النصر والتمكين التي ضيعناها على مدى أكثر من قرن، بل ولا تزال طائفة كبيرة من بني جلدتنا تُعمل معاولها في البقية الباقية منها.

إن اجتراء اليهود على الشعب الفلسطيني وعجز المسلمين عن

---

(١) أخرجه أحمد، ح/٤٥٩٣، ٤٧٦٥، وأبو داود، ح/٣٠٠٣.

نصرتهم إنما سببه ما آلت إليه أوضاعنا بعد إقصاء حكم الشريعة. فلماذا نعالج العَرَض وندرك المرض؟

فلا بد من معالجة أصل المرض، دون اكتفاء بالعرض.

لقد أفرزت الأحداث الأخيرة مستجدات كثيرة ومكاسب جليلة ما كانت لتوجد لولا هذه الأحداث التي قدرها الله، وهي تحتاج من الدعاة جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً لتوظيفها واستثمارها؛ فهي تحوي فوائد وإيجابيات لم تكن موجودة؛ بل إن منها ما كان تحت قائمة المنع، فلم يكن للدعاة أن يطرقوه دون أن يخاطروا بأنفسهم. ومن ذلك اقتناع جماهير المسلمين ـ بل وغير المسلمين ـ أن اليهود لا يريدون السلام. ومما أفرزته الأحداث أيضاً العودة بالدعوة إلى التطبيع إلى نقطة الصفر، وتجديد الكراهية لليهود، وفضح مواقف المتخاذلين، وزيادة القناعة بأن الجهاد هو الحل، وتشويش العلاقات مع أمريكا، وظهور صور التفاعل الشعبي مثل الدعوة إلى المقاطعة الاقتصادية الشعبية، وبروز الخير في شرائح من الأمة لم يكن يظن بها ذلك، إلى جانب أن الزَخْم الجماهيري يستطيع أن يؤثر على الإعلام والمواقف السياسية إلى حد ما. وكل هذه مكاسب جليلة تدعو إلى الاستبشار بالحدث.

أما ثمن هذه المكاسب فهو الدماء الزكية الطاهرة، والإصابات الجسيمة لعشرات من أبطال الانتفاضة؛ وهو ثمن باهظ ولكن لا بد من تحويله إلى مكاسب للقضية برمتها حتى لا تضيع دماء الشهداء سدىً، وهي لن تضيع على كل حال في الآخرة؛ فلهؤلاء الأبطال أجر الشهادة، والكَلْم في سبيل الله وأعظم به من أجر لم يكونوا ليبلغوه بغير ذلك، ولكن الاستفادة بذلك من أجل القضية التي استشهد الشهداء من أجلها هو أعظمُ وفاء وتكريم لهم، والإنسان يموت على كل حال؛ ولكن شتان بين من يموت فلا يشعر بموته أحد، ومن يموت فيحيي بموته أمواتاً.

إن الدماء الزكية التي سفكت في البوسنة وكوسوفا والشيشان وكشمير وفلسطين وغيرها لم تذهب هباء، بل أثمرت ثماراً يانعة، فأبقت جذوة الجهاد متقدة في الأمة، وعرفتها بأعدائها، وفضحت المنافقين، وردت كثيراً من المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

لقد جعل الله شرط نصرتنا وتمكيننا وأمننا أن نعبده لا نشرك به شيئاً، وأن ننصره بنصرة شرعه وحين لا نقوم بالشرط حق قيامه لا يبالي الله بنا، ومجتمعات المسلمين اليوم نعج بصور من الشرك الأكبر في الاعتقاد والعمل وتحكيم القوانين الوضعية.

إن شعوب المسلمين حين تُحكم بغير شرع الله فتخنع، يستخف بها حكامها، فإذا رأى أعداؤها ذلك نزع من صدورهم هيبتها، ولم يحسبوا لها أي حساب؛ فإذا هم يعيثون فيها قتلاً وسفكاً ونهباً لا يخافون نقمة ولا ردة فعل؛ فعلى الشعوب أن تلوم نفسها على تقصيرها في نصرة دين الله كلما مرت بهم مثل أحداث فلسطين أو الشيشان أو البوسنة أو غيرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وينبغي أن نذكر هنا أن التعادل في التفوق التقني بين المسلمين وأعدائهم ليس شرطاً في النصر، فلا يخوفنا الشيطان بكثرة سلاح العدو وتنوعه وتعقُّد تقنيته وتحكُّمه في الإعلام، ودعمه من قبل القوى الكبرى؛ فنرى أن إدراك ذلك من المحال، وأن البون شاسع، فنؤتى من قِبَل أنفسنا.

إن الله جعل شرط النصر واحداً فقط، وهو أن ننصره. أما عن العتاد والعدة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فالتكافؤ في الإمكانات المادية والبشرية ليس شرطاً للنصر، وشواهد التاريخ من عصر الرسول ﷺ إلى فترة قريبة أوضح من أن تذكر.

وها هنا مسألة جديرة جداً بالتأمل، وكثيراً ما تنسى في غمرة الأحداث، وهي أن الله خلقنا ليبتلينا، والأحداث التي تمر في حياة الفرد هي مفردات هذا الابتلاء، وسيقف كل منا بين يدي ربه للحساب، وسيسأله عن التزامه بدين الله وتطبيقه لشرعه فيما كان في استطاعته.

ولن ينفعه أن يكون عاش في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو مفرط في دين الله، كما لن يضره أن يكون عاش في زمن هولاكو وهو مقيم على شرع الله. بل إن أجره على التزامه بدين الله في الزمن الصعب أعظم، ولن يسألك الله: لماذا لم تذهب إلى فلسطين لنصرة إخوانك؟ وأنت لا تجد إلى ذلك سبيلاً!

ولكنه سيسألك: لماذا لم تنكر المنكرات التي تراها حولك، على قدر طاقتك في الإنكار؟ إن قلوب كثير من المسلمين تكاد تكون خلواً حتى من درجة الإنكار القلبي لتحكيم القوانين الوضعية.

فلا فائدة من «النياحة» التي يمارسها كثير من أفراد المسلمين تجاه الأحداث، وإنما عليهم أن يقوموا بعمل إيجابي يحتجون به بين يدي ربهم.

إن بلالا كان يعذب، ويلقى على الرمال الملتهبة عاري الظهر، ويوضع الحجر على بطنه، والمسلمون القلائل لا يستطيعون نصره؛ لأنهم أضعف من ذلك.

وابن مسعود يجهر بالقرآن ليغيظ الكفار فينال الكفار منه ضرباً وشتماً، ولا يتحرك لنصرته أحد، بل يوضع على رأس رسول الله ﷺ سلا الجزور وهو ساجد، فلا يملك المسلمون حينذاك حولاً ولا قوة لدفع ذلك عنه، ويأتي خباب بن الأرت يشتكي إلى رسول الله ﷺ من شدة ما يلاقونه من الكفار ويستحثه أن يدعو لهم ويستنصر لهم، لا أكثر، ثم تمر السنون والصحابة يقيمون على شرع الله، يعبدون الله لا يشركون به شيئاً، يحققون شرط التمكين حتى هزموا المشركين شر هزيمة في بدر، ورقى ابن مسعود على صدر أبي جهل، ثم تمر سنون أخرى فيفتح الله مكة ولا يبقى فيها كافر.

فلا بد أن نستثمر الأحداث الراهنة الاستثمار الأمثل من أجل عودة الناس إلى دينهم - بالمفهوم الشامل - وهذا تتضافر عليه عدة عوامل، منها جهود المصلحين والدعاة المنتظرة، ومنها الأحداث التي يجريها الله في الناس والكون، ويجب ألاَّ ننسى أن بعض الأحداث أحياناً هي ثمرة سنين من الدعوة والوعظ والتعليم.

لقد كاد أن يكون الحديث عن اليهود والنصارى، والتذكير بالجهاد محرماً في كثير من بلاد المسلمين قبل اندلاع هذه الأحداث؛ أما بعد هذه الأحداث فقد فتح الباب على مصراعيه، بل أصبحنا نسمع من كبار المسؤولين كلاماً ما كنا نسمعه من قبل، وعادت عبارات العدو الصهيوني، والأراضي المحتلة، وتحرير كامل فلسطين، وغيرها مما غاب عن ساحات الإعلام العربي سنوات طوالاً.

إن الناس الآن مهيؤون لأن نحفر فيهم المبادئ والعقائد الإسلامية ذات الصلة بالأحداث ومن ذلك:

أ - أن اليهود عدو أبدي أخبرنا الله بذلك في كتابه، بما لا يقبل التأويل، أو الحصر في طائفة يهودية معينة، أو فترة زمنية محددة.

بل كل طوائف اليهود، في كل الأزمنة، عدو لنا. كيف يمكن أن يسالمنا ويوادنا اليهود؟ أفلا يعلم الله من خلق؟ أفيخلف كلامه سبحانه وتعالى؟

ب - أن لب الصراع عقدي، وليس صراعاً على الأرض؛ ولذلك فالقضية إسلامية وليست عربية. العرب فيهم المرتدون وفيهم النصارى، وهؤلاء ليست لهم مشكلة عقدية مع اليهود، ولذلك فهم - وإن بدا هناك اتفاق ظاهري بيننا وبينهم في بعض المصالح والأهداف المرحلية - ليسوا شركاء لنا في صراعنا مع اليهود. وللأسف فإن الإعلام العربي - مع دوره الإيجابي في إبراز أحداث الانتفاضة - يصر على إعطائها الوجه العربي، ويحرص في كل مناسبة على التذكير بالنصارى، والحديث عن المساجد والكنائس، وعقد ندوات لمشايخ وقسيسين، وبث أغاني النصرانية فيروز، وهل يشارك النصارى في الانتفاضة وإلقاء الحجر؟ المسلم وإن كان طفلاً فإنه يؤمن بالشهادة ويسعى إليها، فما الذي يحرك النصراني إلى الموت؟

إننا في الوقت الذي ندعو فيه إلى العدل والإنصاف مع النصارى والتفريق بين المحارب وغيره، نرفض أن تميع إسلامية القضية.

ج - أن الجهاد هو الحل، هذا أمر شرعي واضح لا جدال فيه، وهو أمر تؤكده الحادثة تلو الحادثة، والمأساة تلو المأساة.

ونحن - المسلمين - يعلمنا ديننا أن الصلة بيننا وبين أعدائنا تدور بين الإعراض عنهم، أو عقد هدنة مؤقتة حين الضعف، أو جهادهم حين القوة، وعقد الذمة حين التمكين.

والسلام الذي يرجوه أعداؤنا منا هو فقط حين يكونون أهل ذمة، يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون، حينها فقط لهم منا السلام والحماية والرعاية والكفالة، ولقد أثبت التاريخ ذلك؛ فإن أكثر عصور اليهود سلاماً وأمناً هي تلك التي كانوا فيها تحت الحكم الإسلامي.

أما أي سلام آخر فلا حاجة لنا به ولن يقبله الله منا. والله لم يخلقنا لنعيش بسلام، بل خلقنا لنعبده، ونجاهد في سبيله، وفي أفضل حالات التمكين للأمة كانت المعارك دائرة في الثغور.

الدار الدنيا دار امتحان، وهي للمسلم كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، فلا يعنيه أن يعيش فيها بسلام أو جهاد، إنما يعنيه أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

د - إعطاء الثقة للشعوب أنها بتحركاتها وضغطها تستطيع أن تفعل شيئاً كثيراً فعلها أن تزيد من وعيها، وحساسيتها تجاه الأخطاء والانحرافات، فتواجهها أولاً بأول، ولا ترضى أن تمرّر عليها القرارات والأنظمة الجائرة، بل تعبر عن استنكارها لكل منكر بكل وسيلة شرعية للتعبير، وأن تستعد لشيء من التضحية واحتمال الأذى مقابل ذلك؛ فالجماهير قوة فاعلة، وقد رأينا أثر غليانها على مر التاريخ في الواقع المعاصر، ومن الأمثلة القريبة جداً غليان الشعب اليوغسلافي والجائه رئيسه المجرم إلى التنحي، وقبله سلسلة من التمردات الشعبية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، أفيُظَن بأهل لا إله إلا الله أنهم أعجز من أولئك وأقل أثراً؟ وهل القوة والبأس حكر على أولئك العلوج؟

استمرارية التفاعل:

إن أحد مشاكلنا الجسام تكمن في أننا نتفاعل مع الأحداث وهي جديدة، فإذا قدم العهد وطال أمدها خبا أوار التفاعل معها تدريجياً حتى ينطفئ، كما أن المصيبة التي تصيب المسلمين تنسيهم سابقاتها، وإن كانت لا تزال قائمة؛ فأحداث الأقصى انست الكثير كأحداث الشيشان وغيرها وهكذا، وأحد أسباب هذه الظاهرة أن عواطف قطاع كبير من المسلمين مُسلَّمةٌ إلى الإعلام وتبع له، فيكون حجم تفاعلها وزمنه مرتبط بحجم التغطية الإعلامية وزمنها.

وأحد الوسائل الفعالة لاستمرارية التفاعل مع الحدث هو تحويل التفاعل الفردي العشوائي إلى فعل جماعي منظم ينشأ عنه عمل المؤسسات والجمعيات لتلقُّف الأفكار الجيدة ورعايتها والاستمرار بها.

فقد طُرحت ـ على سبيل المثال ـ من خلال الأحداث فكرة المقاطعة الشعبية للمنتجات الإسرائيلية والأمريكية. وهي فكرة جديرة بالاهتمام وقد تكون لها آثار على المدى الطويل أبعد من الآثار الظاهرة للعيان. ومع أن ما يرجى من هذه المقاطعة من التأثير على اقتصاد هاتين الدولتين محدود جداً؛ إذ إننا لا نطيق في الوقت الراهن المقاطعة الكلية، لكن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه، كما أن في المقاطعة مصالح أخرى منها:

أ - رفع معنويات الشعوب بأنها استطاعت أن تقدم شيئا.

ب - صورة من صور اتحاد الشعوب، تكون نموذجا لصور أخرى من الاتحاد.

ج - تحذير الدول الأخرى التي لا تشملها المقاطعة وحملها على أن تتخذ سياسة منصفة تحفظ مصالحها.

د - إعطاء الثقة للشعوب أنها تستطيع أن تستغني عن الاعتماد على غيرها.

هـ - تعطي للشعب قيمة مستقلة عن قيمة حكومته في نظر الآخرين. فيحسب العدو حساب الشعوب، ويدرك أن استحواذه على الحكومات لا يعني استحواذه على الشعوب.

و - تشجيع فرص الاستثمار المحلي أو الإسلامي على حساب الفرص التي فقدتها الشركات المقاطعة.

ز - التذكير الضمني بمبدأ المعاداة الذي بنيت عليه هذه المقاطعة مع كل عملية شراء، وبث هذه الروح في الأطفال والنساء والأجيال القادمة.

وربما غير ذلك مما يظهر للمتخصصين في قضايا التجارة والاقتصاد، ولكن حتى تؤتي هذه الفكرة أكلها لا بد من تبنيها بصورة جماعية مؤسسية، ولا يكفي أن تبقى محاولات فردية، ووسائل متناثرة بالبريد الإلكتروني هنا وهناك.

وهذا الأمر ليس خاصاً بقضية فلسطين؛ فإن المؤسسات التي تحتاجها الأمة متنوعة، بل إن غياب الدور الإسلامي الذي كان ينبغي أن يضطلع به من نصَّبوا أنفسهم قادة للمسلمين في أكثر البلدان يوجب على الشعوب أن تسعى لإنشاء جميع أنواع المؤسسات الإسلامية، من المدرسة إلى البنك إلى الإعلام إلى المستشفيات.

خاتمة:

هذا بعض ما يتوجب علينا فعله؛ وإنما نفعله إنقاذاً لأنفسنا من النار، وإعداداً للجواب حين الوقوف بين يدي الله، وإلا فإن الله ناصر دينه بنا أو بغيرنا.

وسياتي اليوم الذي يقول فيه الحجر والشجر: «يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»[1].

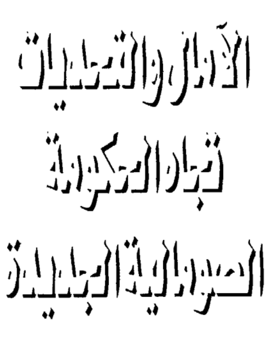
وإن غداً لناظره قريب.

---

(١) أخرجه البخاري، ح/ ٢٩٣٦، ومسلم، ح/ ٥٢٠٣، واللفظ له.





عوامل نجاح مبادرة الرئيس الجيبوتي في حل المعضلة الصومالية

محمد عبده آدم

بعد انقضاء عقد كامل ـ تقريباً ـ منذ الإطاحة بحكومة سياد بري في ١٩٩١/١/٢٦م وما نجم عن ذلك من اندلاع عمليات الاقتتال الواسعة بين العشائر المتناحرة في الصومال، واستمرار تردي الأوضاع والانقسام الوطني، وانعدام الأمن والاستقرار؛ يعيش الصومال بدون دولة وبدون كيان وبدون سيادة؛ حيث انهارت جميع المرافق العامة والبنية التحتية من المستشفيات والمدارس والجامعات والوزارات والمؤسسات الخدمية الأخرى، كما نهبت وأتلفت المكتبات العامة والوثائق الحكومية من جراء الحروب الأهلية التي أكلت الأخضر واليابس.

لماذا أخفقت مؤتمرات المصالحة السابقة؟

لقد تم عقد ١٢ مؤتمراً للمصالحة الوطنية وتشكيل حكومة مركزية للصومال خلال عقد الفوضى، وقد تم عقد هذه المؤتمرات في كل من جيبوتي وأديس أبابا ونيروبي والقاهرة، وكانت النتيجة لتلك المؤتمرات الإخفاق الذريع والوصول إلى باب مسدود، بل كانت الأوضاع تتأزم بصورة أكثر بعد كل مؤتمر من هذه المؤتمرات، ويرجع عدم نجاح هذه المؤتمرات إلى عوامل عديدة يطول شرحها؛ ولكن يمكن إجمال أهمها في النقاط الآتية:

١ - طغيان نزعة المصلحة الشخصية والقبلية على المصلحة العامة، وغياب الحس الإسلامي والوطني؛ حيث كان المجتمعون في هذه المؤتمرات من رؤساء الجبهات العشائرية الذين ساهموا في إسقاط الحكومة الصومالية، فيحضر كل واحد من هؤلاء إلى قاعة المفاوضات وهو يفكر في أن يتاح له الجلوس على كرسي الرئاسة أو ينال نصيب الأسد في توزيع التركة الصومالية. وبطبيعة الحال فإن الكرسي

الرئاسي لا يتسع لأكثر من واحد، ولذلك كان ينسحب كل من يشعر بالغبن في توزيع التركة.

٢ - العداوات والثارات القبلية بين الفصائل المتفاوضة؛ فمن المعروف أن هذه الاجتماعات كانت تضم رؤساء الفصائل أو أمراء الحرب الذين قادوا البلاد إلى خوض معارك بشعة لا يتحمل وصفها العقل السليم، فكانت مفاوضاتهم عبارة عن نقلهم من جبهات القتال؛ حيث تبادل مدافع الهاون والرشاشات إلى قاعة الاجتماعات مما جعل المفاوضات عبارة عن مواصلة خوض المعارك الدائرة في جبهات القتال باستثناء عدم استخدام الذخيرة الحية.

٣ - غياب دور المجتمع المدني من العلماء والمثقفين وسلاطين القبائل والوجهاء ممن يفكر بالعقل السليم ويوازن الأمور بموازين شرعية سليمة بعيداً عن المصالح الشخصية لشخص معين أو لفئة معينة، وإنما ينظرون إلى مصلحة البلاد والعباد التي تهدمت وتعطلت منذ عشر سنين.

٤ - كثرة التدخلات الأجنبية: يذهب البعض إلى القول بأن الحرب الدائرة في الصومال منذ عقد من الزمن تدار من قبل جهات خارجية، وأن دور القوى المحلية لا يتجاوز طور التنفيذ فقط أو الضغط على الزناد مما يجعل هذه الحرب حرباً بالوكالة، وهذه المقولة تعتبر صحيحة إلى حد كبير وإن كنا لا نبرئ الصوماليين؛ فهم المتحملون مسؤولية تدمير بلدهم أولاً وأخيراً؛ حيث انصاعوا لمخططات الأعداء.

ومما يلاحظ بصورة جلية أنه كلما تقاربت وجهات النظر وكادت الجهود المبذولة أن تنجح في رأب الصدع ولمّ الشمل فإن أيدياً خفية وجهوداً شيطانية تتدخل في الظلام الحالك لتصطاد في الماء العكر وتشتت وتفرق ما لمته الجهود؛ فنمد بالشحنات العسكرية هذا، والشيكات المفتوحة ذاك، والوعود الكاذبة آخر بأن فصيله سيتوج وتسلم إليه مقالبد الحكم في البلاد. وتعتبر الحكومة الإثيوبية أكبر قوة إقليمية تتدخل في شؤون الصومال منذ الإطاحة بالحكومة الصومالية من الجبهات المسلحة والمدعومة من قبلها في عام ١٩٩١م[1]؛ حيث لم يقتصر دورها فيما بعد على الدور الراعي والداعم بل قامت بهجمات وغارات متتالية لأجزاء واسعة من الصومال، ودمرت مراكز ومدارس ومساجد كانت تدار وتُدعم بجهود ذاتية من بعض المخلصين وذلك مثل ما حصل في إقليم جدو.

٥ - التفاوض حول مكاسب السلطة التنفيذية وتوزيع الحقائب الوزارية بين زعماء الفصائل المتناحرة قبل تكوين المجالس النيابية التي تعتبر المرجعية وحجر الأساس الذي تستند إليه السلطة التنفيذية، وهو ما تنبه إليه الرئيس الجيبوتي في مبادرته، فبدأ بتكوين مجلس الشعب الذي يُطلق عليه: السلطة التشريعية.

مبادرة الرئيس الجيبوتي إسماعيل عمر جيلة:

في هذه الأثناء وحال الصومال على ما وصفنا من الفوضى والتشتت، وحيث لا يظهر في الأفق أدنى أمل أطلق الرئيس الجيبوتي مبادرته الشهيرة في رعاية مؤتمر للمصالحة الصومالية منسقاً مع الجهات الدولية والإقليمية، وألقى خطابه الشهير في القمة الأممية في سبتمبر من العام الماضي التي سبقت القمة الألفية التي انعقدت في نيويورك، وأوضح في خطابه أمام الأمم المتحدة ورسالته إلى رئيس مجلس الأمن ضرورة تغيير

---

(١) انظر لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع مقالي: (الصومال بعد رحيل سياد بري)، المنشور بمجلة البيان في عددها (٣٩) عام ١٩٩١م، محمد حاج يوسف: (الاعتداءات الإثيوبية على الصومال)، المنشور بمجلة البيان في عددها (١٥٣) عدد جمادى الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، عبد يوسف فارح: (إثيوبيا وأكذوبة الوسيط النزيه بين الفصائل الصومالية)، المنشور بجريدة المستقلة في عددها (١٩٠) بتاريخ ٢٢ شعبان ١٤١٨هـ - ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م.

رؤيه العالم للمأساد الصوماليه عبر الإقناع بأن الاعتراف بأمراء الحرب أو التعامل معهم بالنظر إلى مصالحهم الذاتيه الضيقة هي التي أفسدت كافة مبادرات السلام، وتعهد بأن يبذل قصارى جهده في إنهاء المعضلة الصومالية التي قد تتطور إلى احتمالات أسوأ قد تنعكس على العالم سلباً، وأخذ الرئيس الجيبوتي الضوء الأخضر من المجتمع الدولي الذي لزم دور المتفرج منذ انسحاب القوات الأمريكية في عام ١٩٩٥م، وقد دعم الرئيس الجيبوتي مبادرته بالخطوات الآتية:

١ - أخذ ضوءاً أخضر من المجتمع الدولي في إلقائه الخطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، كما أشرنا في الفقرة السابقة، كما نسّق مع المنظمات الإقليمية ودول الجوار وخاصة منظمة (إيجاد) التي تضم دول القرن الإفريقي، بالإضافة إلى جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي في شأن تسلم ملف المصالحة الصومالية من الحكومة الإثيوبية التي احتكرته منذ انهيار الصومال بمباركة القوى العالمية وخاصة الولايات المتحدة بحجة أن المشكلة لها ارتباط بالأمن والمصالح الإثيوبية.

٢ - جعل الرئيس إسماعيل عمر جيلة ركيزة مبادرته المجتمع المدني من المثقفين وسلاطين القبائل والوجهاء والجمعيات المحلية وغيرها من فئات المجتمع المختلفة، وهمَّش دور أمراء الحرب، بل وجه إليهم في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة إنذاراً شديد اللهجة، وذكر أن الشعب الصومالي لا يمكن أن يكون أسيراً لشلة لا تفكر إلا في مصالحها الشخصية وأكد أن أي أمير حرب يحاول عرقلة جهود المصالحة سوف يحاكم كمجرم حرب.

مؤتمر المصالحة والسلام الصومالي الأخير في (عرتا) بجمهورية جيبوتي:

بعد تلك الجهود الحثيثة أقام الرئيس الجيبوتي إسماعيل عمر جيلة خيمة كبيرة في مدينة (عرتا) التي تبعد عن جيبوتي العاصمة نحو ثلاثين كيلو متراً، وقد بدأت بدايات المؤتمر في ٢ مايو (أيار) ٢٠٠٠م، وسبق المؤتمر الفعلي سلسلةٌ من الخطوات أهمها:

١ - جنّد الرئيس الجيبوتي جميع إمكانات حكومته المادية والمعنوية لدعم مؤتمر المصالحة الصومالي، فافتتح قناة تلفزيونية خاصة وموقعاً على الإنترنت لنقل وقائع المؤتمر بصورة مباشرة إلى أنحاء العالم، واستدعى جميع الفرق الإعلامية الصومالية والجيبوتية بالإضافة إلى بعض العلماء البارزين لاستثارة الحماس الديني والوطني وتحرير الشعب من بوتقة دائرة القبيلة الضيقة؛ بالإضافة إلى إقامة ندوات وحوارات بين المثقفين الصوماليين في كيفية الخروج من النفق المظلم وكيف يكون شكل الحكومة المرتقبة.

٢ - أقام ملتقى يضم كلاً من المثقفين والأساتذة في الجامعات الخارجية والدبلوماسيين من الوزراء والسفراء في الحكومات الصومالية السابقة لأخذ مشورتهم ورأيهم في حل المشكلة الصومالية.

٣ - أرسل طائرات إلى المناطق الصومالية لنقل شيوخ القبائل والوجهاء والسياسيين من كل قبيلة، وعقد اجتماعات خاصة بشيوخ القبائل وسلاطينها لتسوية الصلح بين القبائل المختلفة قبل بدء أي خطوة أخرى، فأصدر شيوخ القبائل بياناً يؤكدون فيه أنهم تصالحوا ونبذوا جميع الخلافات الجانبية وأنهم ينسون جراحات الماضي لبناء مستقبل مشرق للصومال وذلك بتاريخ ١٣/٦/٢٠٠٠م.

٤ - كلف شيخ كل قبيلة أن يرشح الأعضاء الذين يشتركون في مؤتمر المصالحة السياسي، وقدم السلاطين الأسماء المرشحة لتمثلها في طاولة المفاوضات ضمن التشكيلة القبلية التي قسمت الصومال إلى خمسة قبائل كبيرة.

٥ - اجتمعت الوفود المختارة التي يفوق عددها ألف شخص، وافتتح المؤتمر في طوره الثاني، وتم تشكيل

لجان مختلفة من بينها لجنه صياغة الدستور ولجنة الأمن والأمان.

٦ – تم صياغة دستور أطلق عليه. (الدستور الوطني المؤقت)، وهو مكون من ٣٨ بنداً يتناول كيفية تكوين مجالس وسلطات الدولة الصومالية المنهارة من جديد، وكيفية تسيير سياستها الداخلية والخارجية.

٧ ـ بعد إجازة الدستور تم توزيع أعضاء البرلمان المكون من ٢٤٥ عضواً علي القبائل الكبيرة الخمسة، وقد كانت هذه الخطوة أكبر عقبة واجهت مؤتمر المصالحة في عرتا؛ حيث حاولت كل قبيلة وكل فرع في داخل القبيلة أن يحظى بنصيب الأسد في البرلمان، وقد انسحبت بعض القبائل من قاعة المفاوضات احتجاجاً على قلة حصتها في عضوية البرلمان، إلا أنه ـ بفضل الله ثم بفضل الجهود التي بذلها الرئيس الجيبوتي وضغط الشعب الصومالي في الداخل والخارج الذي نسي جميع الاعتبارات الأخرى عدا استعادة كرامته وإيجاد حكومة ترعى مصالحهم ـ تجاوز المؤتمر هذه العقبة وجميع العثرات الأخرى. والجدير بالذكر أن البرلمان يضم بين أعضائه ٢٥ امراة! حيث اقترح الرئيس الجيبوتي تخصيص هذا العدد من كراسي البرلمان للنساء، ولعله يهدف بهذه الخطوة أن تحظى مبادرته بدعم من الغرب الذي يكرس جهوده في إظهار دور المرأة كشريكة للرجال في صنع القرارات وإخراجها من بيتها، ووظيفتها الأساسية في تربية الأجيال(*).

٨ – عقد البرلمان أول جلسة له في يوم الأحد بتاريخ ١٤٢١/٥/١٣هـ الموافق ٢٠٠٠/٨/١٣م، وأدى أعضاؤه اليمين الدستورية؛ كما انتخب في اليوم الثاني رئيس البرلمان ونوابه وبقية أعضاء مكتب رئيس البرلمان من سكرتارية وغيرها.

٩ – اختيار رئيس الصومال: في يوم الجمعة ١٤٢١/٥/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٠/٨/٢٥م، تم اختيار رئيس الصومال في جلسة مغلقة لأعضاء البرلمان في ثلاث جولات متتالية بجلسة واحدة استمرت أكثر من عشر ساعات، فاز فيها الدكتور عبدي قاسم صلاد حسن لحصوله على ١٤٥ صوتاً من بين أعضاء البرلمان البالغ عددهم ٢٣٨ عضواً، بينما حصل منافسه عبد الله أحمد عدو على ٩٢ صوتاً.

١٠ – حفلة تنصيب الرئيس الجديد: في يوم الأحد بتاريخ ١٤٢١/٥/٢٧هـ الموافق ٢٠٠٠/٨/٢٧م، اقيم حفل رسمي كبير على شرف الرئيس الجيبوتي إسماعيل عمر جيلة لتنصيب الرئيس الصومالي الجديد حضر فيه رؤساء مجموعة دول منظمة إيجاد ومن بينهم الرئيس السوداني عمر حسن البشير، ورئيس الوزراء الإثيوبي ملس زيناوي، والرئيس الإرتيري أسياس أفورقي؛ بالإضافة إلى الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، وعدد من ممثلي المنظمات الدولية والإقليمية، وقد أدى الرئيس الصومالي الجديد اليمين الدستورية بحضور هؤلاء الرؤساء والوفود الأخرى أمام أعضاء البرلمان الصومالي.

موقف المجتمع الدولي والإقليمي من مبادرة الرئيس الجيبوتي:

لم يكن الموقف العالمي والإقليمي واضح المعالم تجاه مبادرة الرئيس الجيبوتي وما انبثق عنها من مؤتمر المصالحة الصومالي في عرتا؛ بل يمكن القول إن موقف العالم أجمع كان في وضع المشاهد تجاه هذا المشروع الكبير الذي يرمي إلى انتشال الصومال من المستنقع الذي يخوض فيه منذ عشر السنوات الماضية، وهذا يتضح من التعتيم الإعلامي الذي فرض على وقائع المؤتمر الذي يعتبر أكبر مؤتمر من مؤتمرات المصالحة الصومالية؛ حيث اشترك فيه ما يزيد عن ألفي شخص منتخبين من جميع شرائح المجتمع الصومالي، بخلاف

(*) نعتقد أن جر النساء للعمل السياسي مهما كانت الأسباب إخراج لها عن فطرتها وانحراف بها عن رسالتها.

المؤتمرات السابقة التي كانت تضم فقط مجموعة من أمراء الحرب، وهذا الموقف ينطبق على المستوى الدولي والإقليمي بما فيه البلدان الإسلاميه والعربية، ولعل هذا الأمر يعود إلى بعض الأسباب، ومن أهمها:

١ - فقدان الأمل لدى المجتمع الدولي والإقليمي وإصابته بالخيبة تجاه مبادرات الصلح الصومالية إثر إخفاق جميع تلك المحاولات السابقة إلى جانب الإعراض عن الملف الصومالي ورميه في سلة المهملات، والتفرغ للصراع العربي الإسرائيلي، وتحويل العاصمة اليهودية إلى القدس المحتلة ونقل السفارة الأمريكية إليها.

٢ - كان كثير من المحللين يرون أن السيناريو الصومالي لم ينته بعد؛ فالتحدث عن إقامة حكومة صومالية ما زال مبكراً بدليل أنه لم تقم أي محاولة جادة سواء كانت دولية أو إقليمية في إنهاء المشكلة الصومالية التي لا تتجاوز كونها تهارجاً بين العشائر حول مكاسب معينة باستثناء مبادرة جيبوتي الأخيرة التي حظيت بالنجاح الكبير في غضون شهور. ويضيف هؤلاء المحللون أن هناك مخططاً كان يرمي إلى تقسيم الصومال إلى عدة دويلات كرتونية ملحقة بإثيوبيا أو تعيش تحت رحمتها وتدور في فلكها.

٣ - تولد شعور لدى الشارع الصومالي بأن إخوانهم العرب لم يؤدوا واجبهم تجاه بلدهم الصومال، ولم يدعموا مبادرة الرئيس الجيبوتي كما ينبغي؛ بل تعدى الأمر إلى أن اتهم بعض البلدان العربية أنها ضد المصالحة الصومالية في جيبوتي؛ حيث تظاهر آلاف من الصوماليين ضد الدور المصري في المصالحة الصومالية، وقد وصل الأمر إلى إحراق المتظاهرين العلم المصري إثر اتهام السفير المصري في مقديشو بحثّ العديد من زعماء الفصائل ومن بينهم حسين عيديد على عدم المشاركة في مؤتمر السلام بعرتا، ولعل التحفظ المصري ينطلق من هاجس أن المبادرة الجيبوتية تعتبر امتداداً للمبادرة الإثيوبية التي كانت مضادة للمبادرة المصرية في مؤتمر القاهرة الذي ضم ٢٦ من رؤساء الفصائل في ٢٢/١٢/١٩٩٧م.

وصدر عنه إعلان القاهرة الذي كان من أهم بنوده تشكيل حكومة وحدة وطنية، إلا أن المبادرة المصرية ماتت بسبب التدخلات الإثيوبية التي استقطبت عدداً كبيراً من رؤساء الفصائل.

وفي هذه الأثناء أطلق الرئيس الجيبوتي الذي يتمتع بعلاقات جيدة في الظاهر مع إثيوبيا - مبادرته، فتم تصنيفها على أنها مكملة للدور الإثيوبي، وكانت كثير من القوى المحلية الصومالية قد أخذت هذا الانطباع في بداية الأمر، ولم تكن متفائلة باعتبار أن أي مشروع له ضلع أو علاقة مع إثيوبيا لا يمكن أن يقود الصومال إلى بر الأمان، لكن مع مرور الأيام ومع بدء المؤتمر أثبت الواقع خلاف تلك التوقعات حيث التزمت الحكومة الإثيوبية نوعاً من التحفظ وعدم الارتياح تجاه سير الأمور في مؤتمر عرتا؛ فهي بطبيعة الحال غير راضية عن إقامة حكومة صومالية تمارس دورها وثقلها الإقليمي، وتفضل استمرار الصومال على ما هو عليه حتى تستخدمه كحزام أمني ضد الحركات التحريرية في أوجادين وضد ما يسمونه (الأصولية) في الصومال، وحتى تدخله وتغير عليه متى شاءت وتنسحب منه متى شاءت، وحتى لا تقوم للصومال - العدو التاريخي لإثيوبيا - أي قائمة.

وفي مقابل ذلك ظهر بصورة جلية حسن نوايا الرئيس الجيبوتي، وأنه ما يهدف من مبادرته وسعيه الحثيث في لمِّ شمل البيت الصومالي ورأب الصدع بين الأشقاء الفرقاء إلا أن يستعيد الصومال دوره الإقليمي والدولي. وفوق هذا يشير بعض المحللين إلى أن الرئيس الجيبوتي الذي يرأس دولة لا يتعدى عدد سكانها نصف مليون نسمة يشعر بنوع من التهديد والخطورة تجاه جارتيه الإثيوبية والإرترية، فعزم على هذه الخطوة الشجاعة حتى يعود التوازن الإقليمي في المنطقة؛

وخاصة أن جيبوتي تعتبر جزءا مكملا للصومال ضمن ما يعرف بالصومال الكبير الذي يأمل الصوماليون أن يروه يوماً ما وقد اتحد تحت سقف واحد، كما أنه اعتبر هذه الخطوة نوعاً من رد الجميل عن التضحيات الغالية التي قدمها الصومال في سبيل تحرير جيبوتي من الاستعمار الفرنسي في عام ١٩٧٧م.

الموقف الدولي والإقليمي بعد تشكيل البرلمان وانتخاب الرئيس:

ما ذكرناه في الفقرات السابقة كان قبل أن تظهر نتائج مؤتمر عرتا ولكن بعد أن انتهى المؤتمر بنجاح، وتم تشكيل برلمان وانتخاب رئيس حظيت الحكومة الجديدة بتأييد إقليمي ودولي، وإن كانت دون المستوى المطلوب؛ فعلى الصعيد الدولي أصدر الاتحاد الأوروبي بياناً يحث فيه الصوماليين وقادة الفصائل على دعم حكومتهم الجديدة، كما صرحت وزارة الخارجية الأمريكية بأنها متفائلة بنتائج مؤتمر السلام الذي عقد في جيبوتي وتشكيل الحكومة الانتقالية للصومال بما فيها انتخاب الرئيس، وعلى الصعيد الإقليمي؛ فقد اعترف بالحكومة الصومالية الجديدة عدد من الدول العربية والإفريقية، كما سمح للرئيس الصومالي الجديد أن يجلس على كرسي الصومال في الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية اللذين ظلا شاغرين طيلة السنوات العشر الماضية، ولكن يغلب على بعض تلك التأييدات لغة الدبلوماسية والتحفظ خوفاً من تلك الدول بأن تعود الأمور إلى ما كانت عليه وخاصة في ظل التهديدات التي يطلقها زعماء الحرب في الصومال تجاه الحكومة الجديدة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل لدى تلك الفصائل ما يمكنها من عرقلة جهود السلام وتعطيل الحكومة المنتخبة في الصومال؟ هذا ما سيتضح بمشيئة الله فيما يأتي:

الموقف المحلي:

يمكن تقسيم الموقف المحلي إلى موقف الشعب الصومالي من الحكومة الجديدة، وموقف أمراء الحرب؛ فموقف الشعب في الداخل والخارج بجميع قبائله وفئاته وطبقاته يؤيد الحكومة الجديدة بصورة كبيرة يمكن الإطلاق عليها أنها جنونية، ومستعد لأن يضحي في سبيل إنجاحها بالنفيس والغالي بغضِّ النظر عن المكاسب التي تحققها كل قبيلة في ظل التشكيلة الجديدة؛ ذلك أن الشعب هو الذي تلظى بنار الحروب الأهلية، وذاق ويلاتها، وأصبح محروماً من جميع الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، ونشأ جيل جديد لا يعرف الكتابة ولا القراءة وسلبت الكرامة والسيادة الصومالية، وأغلقت الأبواب أمامهم، وبجانب هذا أدركت كل قبيلة أنها مهما أوتيت من قوة فإنها لا تستطيع أن تنتصر وتحسم الصراع لصالحها؛ فلا غالب ولا مغلوب في الحرب الدائرة؛ ولذلك أصبح الشعار لدى الصوماليين في الآونة الأخيرة: (فليحكم من شاء، وإنما يهمنا إيجاد كيان وحكومة تعيد لنا الكرامة وتفكنا من أسر أمراء الحرب).

أما موقف أمراء الحرب فيتضح في الفقرة الآتية التي تتناول التحديات والعقبات أمام الحكومة الجديدة.

التحديات والآمال أمام الحكومة الصومالية الجديدة:

مما لا شك فيه أن الحكومة الصومالية الجديدة تواجه عقبات كبيرة وعديدة لا يستهان بها، كما أن هناك عوامل نجاح وفرصاً مواتية لها، وفي السياق الآتي نتناول هاتين النقطتين بشيء من الاختصار:

أولاً: العقبات أمام الحكومة الجديدة:

١ - المعارضة الداخلية: تتمثل في رؤساء الفصائل وأمراء الحرب الذين قاموا بإسقاط الحكومة الصومالية السابقة ولم ينجحوا في تشكيل حكومة جديدة، وقادوا البلاد إلى الحرب الأهلية التي أكلت الأخضر واليابس،

واستمرت منذ عشر سنوات، وراح ضحيتها آلاف الأشخاص من المدنيين الأبرياء؛ ويمكن تصنيف هؤلاء حسب مناطقهم على النحو الآتي:

● زعماء الفصائل في مقديشو: وعلى رأسهم حسين عيديد، وعثمان علي عاتو، وحسين بود الذين لم يشتركوا في مؤتمر السلام في عرتا بل ناصبوه العداء واعترضوا عليه بشدة؛ حيث اعتبروا أن هذا المؤتمر يعتبر تعدياً على حقوقهم الخاصة؛ حيث إنهم الممثلون الشرعيون كما يزعمون، وشعروا منذ البداية أن مبادرة الرئيس الجيبوتي همشت دورهم؛ حيث سمح لهم أن يشتركوا في المؤتمر بصفة شخصية فقط، وقد ساعدهم على هذا التمرد على المؤتمر الهالة الإعلامية في الخارج التي تعظم دور هؤلاء وخاصة حسين عيديد والتي تروج أنه بغير وجودهم فإن المؤتمر لن يحقق أي نجاح يذكر، كما يعتقد أن الأيدي الخفية التي تنشط في مثل هذه الأوقات تعمل على قدم وساق لاستخدام هؤلاء في إخفاق الحكومة الصومالية الجديدة كما فعلوا في مؤتمرات السلام السابقة؛ ولكن غاب عن هؤلاء الذين يعظمون دور أمراء الحرب ويعولون عليهم حقائق كبيرة في الساحة الصومالية يمكن إيضاحها بما يلي:

إن هذه الفصائل وخاصة عيديد الذي يضخم دوره ليس عيديد الموجود في بداية التسعينيات الذي كان يحظى بتأييد وظروف مواتية له، كما أن الشعب الصومالي ليس هو ذاك الشعب الذي يجري وراء عيديد وغيره من أمراء الحرب مثل الرعاع؛ فالأمر قد اختلف تماماً عما كان عليه في تلك الأيام؛ فعيديد (الأب) عندما حارب حكومة على مهدي المكونة في أول مؤتمر للمصالحة الصومالية الذي عقد في جيبوتي عام ١٩٩١م وتمكن من الحجر عليها، وعندما حارب القوات الأمريكية وأجبرهم على الانسحاب من الصومال ـ لم يكن يخوض هذه الحروب وحده وبشخصه وإنما كانت قبيلته بكل أفرادها بدءاً من سلاطينها وتجارها وميليشياتها بل ونسائها وبكل إمكانياتها تقف وراءه وقفة الرجل الواحد.

ولكن هل بقي الأمر لعيديد (الابن) كما كان لعيديد (الأب)؟ الجواب بالنفي التام؛ حيث إن هذه القبيلة وبكل فئاتها التي ذكرناها أصبحت تساند وتشترك بصورة فعالة في مؤتمر المصالحة في عرتا بدليل أن الرئيس الجديد اختير من بينها، بل الأشد من ذلك أن البقية الباقية من ميليشيات عيديد ساهمت بصورة فعالة في الترحيب بالرئيس الجديد عبدي قاسم صلاد حسن في زيارته الأخيرة إلى مقديشو؛ ولذلك ليس هناك خيار آخر أمام حسين عيديد إلا أن ينضم إلى الحكومة الجديدة، أما بقية أمراء الحرب فليسوا أفضل حالاً من عيديد؛ بل ينطبق عليهم الكلام الذي قيل في عيديد؛ فالبساط سحب من تحتهم جميعاً.

● منطقة الشمال الغربي التي أطلقت على نفسها: (جمهورية أرض الصومال) إثر إعلانها الانفصال عن بقية أجزاء الصومال من جانب واحد في ١٨/٣/١٩٩١م والتي تتمتع باستقرار وهدوء بخلاف المناطق الجنوبية، كما أن رئيسها محمد إبراهيم عقال نجح في تكوين إدارات وأجهزة فعالة، وتغلب على خصومه من الناحية السياسية والعسكرية، هذه المنطقة تعارض الحكومة الجديدة بشدة لدرجة أنها قامت بمظاهرات مضادة لمؤتمر عرتا وأشعلت النيران في العلم الصومالي، ولكن المعتقد أن معارضتها لا يمكن أن تقف في وجه الحكومة الصومالية الجديدة لأسباب عديدة من بينها: أن هذه المنطقة التي أطلقت على نفسها: (جمهورية أرض الصومال) لم تحظ بأي اعتراف من المجتمع الدولي منذ إعلانها الاستقلال، كما أن هناك قبائل عديدة داخل المنطقة أيدت وشاركت بصورة فعالة في مؤتمر المصالحة في عرتا، ويرى بعض المحللين أن امتناع عقال عن الاشتراك في مؤتمر المصالحة يعتبر مجرد مناورة سياسية وتكتيكاً مرحلياً؛ حيث يهدف أن يتفاوض مع الحكومة الصومالية الجديدة على أساس شمال وجنوب

انطلاقاً من فلسفة أن الشمال كان مستعمرة بريطانيه، والجنوب كان مستعمرة إيطاليه، للحصول على مكاسب سياسية كبيرة.

● منطقة الشمال الشرقي (بونتلاند): تعتبر هذه المنطقة هي الأخرى من المناطق التي تتمتع بهدوء واستقرار، وتنشط فيها تجارة المواشي وتصديرها إلى بلدان الخليج العربي، واستيراد السلع. وفي ١٩٩٨/٧/٢٣م تمكنت هذه المنطقة من إقامة بناء إداري محلي للمناطق الشمالية الشرقية برئاسة العقيد عبد الله يوسف الذي تمكن من إقامة بعض الأجهزة الإدارية وتكوين ميليشيات بمساندة من إثيوبيا؛ حيث يتمتع بعلاقات ودية معها أكثر من أي أمير حرب آخر، ويعارض عبد الله يوسف مؤتمر المصالحة في عرتا والحكومة المنبثقة منه بشدة؛ فقد قال في مقابلة مع هيئة الإذاعة البريطانية بتاريخ ٢٠٠٠/٧/١٦م: «إن مؤتمر عرتا يهدد باندلاع حروب أهلية في البلاد تستمر هذه المرة عشرين سنة قادمة وليس عشر سنوات!!»، واتهم أعضاء الحكومة الجديدة بانهم أعضاء حكومة سياد بري التي ارتكبت جرائم ضد الشعب الصومالي، كما وجه نداءاً إلى محمد إبراهيم عقال رئيس منطقة الشمال الغربي لإيجاد تعاون مشترك بين المنطقتين حتى ولو يصل هذا التعاون إلى درجة الاندماج بين المنطقتين اللتين كان يسود بينهما التوتر طيلة الفترات الماضية.

ومن جهة أخرى وفي ظل التنسيق بين أمراء الحرب لمواجهة خطورة الحكومة الجديدة خوفاً من اقتلاع نفوذهم؛ فقد استقبل عبد الله يوسف خمسة من رؤساء الفصائل على رأسهم حسين عيديد وعثمان عاتو بتاريخ ٢٠٠٠/٩/٢م، وأصدروا بياناً مكوناً من ست نقاط يؤكدون فيها رفضهم نتائج مؤتمر عرتا وما تمخض عنه من تكوين الحكومة الصومالية؛ والشيء الغريب في هذا البيان أنهم ينادون بإقامة مؤتمر مصالحة جديد عن طريق رؤساء الفصائل (أمراء الحرب)، فهل سيختلف هذا المؤتمر الذي ينادون إليه عن مؤتمراتهم السابقة التي كانت تنتهي بالإخفاق إثر تبادل الشتم واللعن بين أمراء الحرب؟ وما الذي جعل العقيد عبد الله يوسف الذي كان يقول إنه لن يستقبل بعض رؤساء الفصائل مثل حسين عيديد فإذا به يستقبلهم ويرحب بهم في عقر داره؟ إنه الشعور بالضغط الداخلي والخارجي وتقلص دور قادة الحرب ونفوذهم في الصومال.

بقي في هذا الصدد أن نشير إلى أن موقف عبد الله يوسف أضعف بكثير من موقف عقال؛ فغالبية الشعب في مناطق الشمال الشرقي تؤيد مؤتمر عرتا ونتائجه؛ كما أن حضور هذه المنطقة في مؤتمر عرتا كان قوياً وفعالاً رغم محاولة عبد الله يوسف منع اشتراك الوفود وعرقلة وصولهم إلى جيبوتي؛ حيث انعقد مؤتمر المصالحة.

٢ - تحقيق الصلح بين العشائر المختلفة، وإعادة الثقة فيما بينها، وإزالة المظالم وإعادة الممتلكات إلى أهلها، فهذه العناصر تعتبر محكاً واختباراً لدولة الرئيس الجديد عبدي قاسم الذي ذكر في برنامجه الانتخابي أنه يكرس جهوده لعلاج هذه المشكلات؛ فالجراحات التي تحتاج إلى الضماد كثيرة ومتشعبة؛ فهناك العديد من الممتلكات من البيوت السكنية والعمائر والمزارع أخذت من أيدي أصحابها واستولت عليها ميليشيات من عشائر أخرى، كما أن بعض المناطق يشعر أهلها أنهم محتلون من قبل ميليشيات غزتهم من مناطق بعيدة؛ وذلك مثل مدينة كسمايو الاستراتيجية التي تعتبر بؤرة المشاكل في جنوب الصومال حيث واجهت صراعاً مريراً حول السيطرة عليها طيلة سنوات الحرب الماضية؛ فنجاح الرئيس منوط بكيفية علاجه لهذه المشكلات التي نجمت عن الأوضاع المأساوية التي يأكل القوي فيها الضعيف طيلة السنوات العشر الماضية؛ حيث كان نظام الغابة هو المعمول به في الصومال، وأعتقد أنه ليس لدى الرئيس الجديد أداة حاسمة لعلاج

هذه المشكلات بن عشيه وضحاها، ولكن الأمر يتطلب تعاوناً مشتركاً من الجميع، وصبراً طويلاً إلى أن يستعيد الصومال عافيته.

٣ - تكوين مؤسسات الدولة وإقامه البنية التحتية: عندما يأتي رئيس معين إلى رئاسة دولة ما فإنه يأتي إلى جهاز قائم متكامل بدءاً من الموظف الصغير وانتهاءاً إلى الوزير بالإضافة إلى المعدات والأجهزة والمكاتب المختلفة؛ مما يجعل مهمة هذا الرجل سهلة وطبيعية، ولكن مهمة الرئيس الصومالي الجديد تختلف عن هذا بكثير؛ حيث يأتي إلى حكومة لا يتوفر لها مكتب مؤثث واحد ولا سجلات ولا أرشيف عدا تلك الأوراق التي في محفظة الرئيس من نتائج مؤتمر المصالحة في عرتا، وكما أشرنا سابقاً فإن البنية التحتية والمرافق العامة التي تقدم الخدمات الاجتماعية للشعب منهارة تماماً وسوف تؤسس من الصفر، ومع هذا إذا تضافرت الجهود ونسيت آلام الماضي لبناء آمال المستقبل، وخلصت النيات فإنه يمكن تجاوز هذه العوائق في فترة زمنية محدودة بمشيئة الله.

٤ - تغيرت تركيبة المجتمع في خلال فترة الحروب الأهلية؛ فالطبقة المدنية من سكان المدن المتعلمين والحرفيين وغيرهم هاجروا إلى خارج الصومال وخاصة إلى بلاد الغرب، وحل محل هؤلاء سكان الأرياف والبوادي الذين نزحوا إلى المدن بحثاً عن مصدر المعيشة، ولما كان هؤلاء لا يجيدون أي حرفة، ولانعدام المؤسسات الحكومية التي تستطيع أن تؤهلهم لأي عمل، فقد التحقوا بصفوف الميليشيات القبلية وانخرطوا فيها؛ فالعقبة أمام الحكومة الجديدة هي كيف تعيد الكوادر والعقول المهاجرة إلى البلاد لتشترك في بناء الصومال الجديد؟ وكيف تؤهل الطبقة النازحة من الأرياف التي حلت محل أهل المدن سابقاً حتى لا يكونوا عالة على المجتمع؟

٥ - عدم وجود جيش وجهاز شرطة يقوم بتنفيذ مهمات الحكومه الجديدة من استتباب الأمن الداخلي والخارجي؛ حيث كان الجيش والشرطة أول مؤسستين انهارتا في البلاد؛ فهل ترى تتمكن الحكومة الجديدة من تكوين الجيش والشرطة، أم هي بحاجة إلى الاستعانة بقوات حفظ سلام خارجية؟ أعتقد أن بإمكان الحكومة الجديدة تكوين هاتين القوتين في فترة وجيزة إذا توفر لها الدعم اللازم؛ وقد خطت اللجنة التي كونها الرئيس الجديد من بعض الجنرالات بعض الخطوات الإيجابية في هذا الصدد في مقديشو العاصمة.

٦ - الملف الصومالي الإثيوبي: تناول هذا الموضوع قد يكون سابقاً لأوانه حيث إن الحكومة الصومالية الجديدة لا تستطيع الالتفات إلى اليمين أو اليسار عدا ترميم الدولة الصومالية ومؤسساتها إلا أن المشكلة (الصومالية الأثيوبية) أكبر من أن تتناسى ولا يشار إليها في مثل هذا التقرير الذي خصص لتناول العقبات أمام الحكومة الصومالية الجديدة؛ إذ من المعروف أن الحكومة الإثيوبية هي التي أسقطت الحكومات الصومالية السابقة من خلال الجبهات الصومالية المنطلقة والمدعومة من قبل إثيوبيا بدءاً من العقيد عبد الله يوسف الذي يعتبر أول من خرق الإجماع الصومالي وسن سنة اللجوء إلى إثيوبيا في إثر المحاولة الانقلابية التي قام بها هو ومجموعة من الضباط عقب العودة من حرب أوجادين عام ١٩٧٨م، وانتهاءاً بسيلانو وعبد الرحمن تور والجنرال عيديد والعقيد أحمد عمر جيس في بداية عقد الثمانينيات ونهايته من القرن العشرين، وقد كان هذا في عهد رئيس إثيوبيا السابق منجستو وانطلاقاً من القومية الأمهرية. وفي حديث لمنجستو في منفاه في زيمبابوي قال: «سيذكرني أبناء إثيوبيا بالدور الذي قمت به للقضاء على عدو إثيوبيا التاريخي الذي كان الخطر الأكبر لوجودنا» ويقصد بذلك الصومال، وعندما تسلمت حكومة ملس زيناوي مقاليد الحكم في إثيوبيا واصلت مسيرة العداء والكيد للشعب

الصومالي ولكن بأسلوب يختلف عن أسلوب الحكومات الإثيوبية السابقة؛ حيث حاولت أن تقدم السم في خططها التدميرية بطبق من ذهب وكوب من عسل في هذه المرة، فاستلمت ملف السلام الصومالي ورعت مؤتمرات السلام في عاصمتها - كرعي الذئب للغنم - ولكن سرعان ما كشفت عن أنيابها فغارت على أقاليم صومالية آمنة بحجج واهية، كما قامت بتوزيع السلاح بشكل عشوائي على الفصائل المتحاربة في خطوة لا تهدف إلى حسم الصراع لطرف معين بقدر ما تهدف إلى استمرار الحرب المستنزفة واستمرار حالة الفوضى وتغييب دور الصومال الإقليمي والدولي؛ وحتى لا تتكرر المطالبة الصومالية بالأراضي الصومالية المحتلة (أوجادين) من قِبَل إثيوبيا، وحتى لا تحظى الجبهات التي تقاتل ضد الحكومة الإثيوبية في أوجادين بتقرير مصيرها بدعم من الحكومة الصومالية كما كان يحصل سابقاً.

والمعروف أن القضية الأوجادينية تعتبر من أعقد القضايا في القرن الإفريقي ولب الصراع الديني فيه؛ فهي امتداد للصراع والعداوات بين الصومال وإثيوبيا التي تمتد جذورها إلى القرن التاسع الهجري في أيام الإمام (أحمد جري) ومَن قبله من دول الطراز الإسلامي كإمارة الزيلع وإمارة هرر.

وهناك سؤال يطرح نفسه في هذا المجال هو: هل الحكومة الصومالية الجديدة ستواصل سياسة الحكومات الصومالية السابقة في المطالبة بإقليم أوجادين ودعم جبهاته التحريرية، أم تتنازل عن هذه القضية وتترك شأنها، أم تعالجها بطرق أخرى؟ البحث في هذه المسألة سابق لأوانه كما أشرت سابقاً حتى يستعيد الصومال كيانه وعافيته، ولكن تبقى مشكلة الشعب الصومالي في أوجادين قائمة؛ فهي أم المشكلات في القرن الإفريقي، وما لم تحل بطرق عادلة فإن الحروب والقلاقل لا تزال تندلع في هذه المنطقة الحساسة من حين لآخر.

ثانياً: مظاهر الآمال في نجاح الحكومة الصومالية الجديدة:

ما تناولناه سابقاً يعتبر جزءاً من العقبات التي تعترض الحكومة الصومالية الجديدة، ومع كثرة هذه العقبات إلا أن فرص النجاح لهذه الحكومة أكثر من عدم نجاحها، وفيما يلي نشير إلى بعض تلك الفرص:

١ - ما تحظى به هذه الحكومة من تأييد شعبي واسع في الداخل والخارج؛ حيث يمكن القول إن أكثر من ٩٥٪ من الشعب مؤيد لهذه الحكومة؛ حيث إن مؤتمر عرتا هو المبادرة الوحيدة التي حظيت بهذا التأييد المنقطع النظير من قبل قوى المجتمع المختلفة من العلماء والتجار وشيوخ القبائل والمثقفين والمحاكم الإسلامية والحركات الإسلامية والجمعيات الخيرية، ولا يعارضها إلا مجموعة من أمراء الحرب الذين نأمل أن ينضموا إلى المسيرة السلمية واحداً تلو آخر.

٢ - تجانس الشعب الصومالي: حيث تختلف الصومال عن المجتمعات الإفريقية لشخصيتها المتجانسة أساساً؛ فلا يوجد انقسام ديني، أو انقسامات عرقية، أو اختلاف في اللغة أو العادات والتقاليد وحتى في المذهب الفقهي، وإن ما يفرقهم بعد أن اتحدوا في جميع عوامل الاتحاد الأخرى هو العصبية القبلية فقط، والقبيلة قد تستخدم للخير كما استخدمها الرسول ﷺ في غزواته عند توزيع جيوشه على لواءات عشائرية؛ حيث هذا أدعى للثبات والإقدام على الجهاد، وقد تستخدم القبيلة للشر كالحالة الصومالية، وهي التي حذر منها الرسول ﷺ في أحاديث عدة.

٣ - هناك بعض التقارير تشير إلى أن المجتمع الدولي يحبذ إيجاد دولة ونظام في الصومال وإعادته إلى حظيرة الشرعية الدولية؛ وذلك خوفاً من ظهور حركات إرهابية وأصولية - حسب تعبيرهم - تسيطر على هذا الموقع المهم من القرن الإفريقي والبوابة

الجنوبية للبلدان العربية.

٤ - جميع العوامل التى ذكرنا أنها كانت سبباً فى إحباط جميع المبادرات والمؤتمرات السابقة والتي تحاشاها المؤتمر الحالي في عرتا وتجنب سلبياتها تعتبر عوامل نجاح بالنسبة للحكومة الصومالية الجديدة.

٥ - يتوقف نجاح الحكومة الجديدة إلى حد كبير على ما ستحظى به من دعم من المجتمع الدولي والإقليمي من الناحية السياسية والاقتصادية. ولكن إذا استعانت بالله، ووحدت الصف الداخلي للشعب الصومالي، وأخذت بالأسباب اللازمة لذلك فإن الحكومة الجديدة سيتحقق لها النجاح بمشيئة الله ولو لم تجد أي دعم من الخارج.

توصيات واقتراحات:

١ - أوصي الرئيس الجديد أن يتقي الله في الأمانة التي تحملها والتي امتنعت من قبولها السماوات والأرض والجبال ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢ - كما أوصي الرئيس الجديد أن يحقق ما تعهد به في برنامجه الانتخابي وتصريحاته السابقة في أن يطبق شريعة الله في الأرض، وألاَّ يكون مثل أولئك الذين يستخدمون الشريعة والدين ورقة انتخابية ثم إذا تمكنوا حاربوه وذبحوا أهله من العلماء والدعاة إلى الله وزجوا بهم في السجون. وتطبيق الشريعة الإسلامية هو المخرج الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ الصومال من ويلاته، والمعروف أن جميع الأنظمة الوضعية من الرأسمالية والشيوعية الاشتراكية والقبلية كلها أثبتت إخفاقها الذريع في الصومال، وأورثتنا ما نعاني منه الآن.

٣ - لا بد أن يحرص الرئيس الجديد على تولية الأكفأ والأصلح للوظائف والولايات المختلفة، وأن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأن يتوخى الصالحين في اختياره لأعوانه وبطانته، وأن يكون معياره في تقديم الرجال بعضهم على بعض اختيار القوي الأمين.

٤ - وليكن شعارك شعار خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في خطبته التي يقول فيها - عندما اختاره المسلمون وبايعوه البيعة العامة -: «إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وأن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه - إن شاء الله - والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

٥ - في مقابل ذلك أوجه نداءاً إلى أبناء الشعب الصومالي أن يتحدوا وينضموا وراء قائدهم الجديد، وأن يعينوه في الخير، وأن ينسوا مخلفات العصر الجاهلي، وأن يترفعوا عن أية حسابات شخصية من شأنها تعطيل مسيرة المصالحة، وأن يرموا أمراء الحرب عن قوس واحدة حتى لا يفسدوا هذه الفرصة النادرة التي قيضها الله للرئيس الجيبوتي إسماعيل عمر جيلة التي - لا قدر الله - إذا أحبطت فقد تكون آخر فرصة للسلام في الصومال مما يجعل هذا البلد الهام في ذمة التاريخ. وأملنا في الله كبير أن نرى الصومال قد استعاد عافيته وقُيِّض له رجال صالحون أكفاء يطبقون شريعة الله فيه ويقودون السفينة إلى بر الأمان.

هذا وبالله التوفيق، والله من وراء القصد.

يرصدها: حسن قطامش

qatamish100@hotmail.com

أبشر بطول سلامة يا باراك!

أكد الدكتور أسامة الباز المستشار السياسي للرئيس المصري حسني مبارك، أن القمة العربية ـ قبل اجتماعها ـ لن تجتمع لإعلان الحرب على (إسرائيل)، فالدخول في الحروب لن يؤدي إلى حل، بل سيزيد من تعقيدات العملية السلمية، وأشار إلى أن القادة العرب في قمة ١٩٩٦م اجتمعوا على اتخاذ السلام كخيار استراتيجي، ولن يتغير موقفهم بسبب الأحداث المأساوية التي وقعت!!. وكان الباز قد عقد مؤتمراً صحافياً مع المراسلين الأجانب بالقاهرة أعرب خلاله عن اعتقاده بأن تغييراً سيطرأ على الأحداث في الأيام القليلة القادمة، ولكنه أكد على أن الجروح الناتجة عن أحداث العنف الأخيرة ستحتاج وقتاً طويلاً لكي تندمل. وحول إمكانية أن تنطوي قرارات القمة العربية على التلويح بالحرب، قال الباز: «إن الحرب لا تحتمل أن تكون تلويحاً فإما إعلان حرب أو لا، وخيار الحرب سيفقدنا التعاطف الذي كسبه الفلسطينيون والعرب جراء العنف الذي اتبعته (إسرائيل)، وعندئذ سيقول الإسرائيليون إن العرب كانوا يدخلون في إرهاصات حرب مما يستوجب اتخاذها خيار العنف». وأضاف الباز: «إن المسألة ليست مسألة توجه نحو الحرب ولكن مخاطبة الجانب الإسرائيلي من موقع يقول لهم إن العرب لديهم خيارات كثيرة ولديهم خطوط حمراء لا يمكن أن تتخطاها». وأكد الباز على أن العرب لن يقوموا بإجراءات غير محسوبة؛ كما أن توسيع نطاق العنف سيؤدي إلى الدوران في دائرة مفرغة من العنف. وعادة عندما نواجه تراجعاً في موقف ما لا يمكننا أن نقابله بتغيير ١٨٠ درجة، ولكن يمكننا اتخاذ إجراءات من شأنها التأثير على الرأي العام الإسرائيلي ليفرض على حكومته اتخاذ مواقف أكثر تعقلاً. وأضاف أنه يمكن للقمة العربية أن توجه رسالة قوية من دون استخدام الإنذارات النهائية والتهديدات أو اتخاذ مواقف مجنونة!!

[صحيفة الشرق الأوسط، العدد: (٧٩٩٠)]

عالم الرفاهية

المصالح الفلسطينية تختلف كثيراً عما كانت عليه قبل جيل من الزمن، فإذا كان عرفات يوماً زعيم حركة سرية من المقاومة ينتقل خلسة من مخبأ إلى آخر في بيروت وطرابلس الغرب وتونس، فإنه اليوم يعيش كأحد الباشاوات، عائماً على بحر من بلايين الدولارات من المساعدات الغربية المقدمة إلى السلطة الوطنية الفلسطينية، ومتجولاً بحرية وبذخ في كافة أرجاء العالم. وقبل انهيار عملية السلام كان كبار أعوانه يتناولون الجمبري والنبيذ الفرنسي في مطاعم تل أبيب الفخمة، كذلك عقد بعضهم شراكات مربحة جداً مع رجال أعمال إسرائيليين، ثم إنهم رفعوا أعلامهم فوق أراضيهم، وأصدروا طوابعهم البريدية الخاصة، وكانوا يمرون دون عائق عبر نقاط التفتيش ومعابر الحدود بواسطة تصاريح المرور الإسرائيلية التي تمنح للشخصيات البارزة، حتى عندما كان مواطنوهم يساقون كالماشية من غزة وإليها..!

[الكاتب الأمريكي مايكل هيرش، صحيفة نيوزويك العربية، العدد(٢٠)]

حُماة اليهود

«عندما اقتحمت الحشود الغرفة استلقيت على أحد الجنود الإسرائيليين وحاولت أن أحميه بجسدي، ولكن الناس أبعدوني عنه بقوة هائلة باتجاه الحائط». هكذا وصف قائد شرطة رام الله كمال الشيخ في مقابلة في صحيفة «هآرتس» روايته حول حادثة الإعدام الميداني من غير محاكمة للجنديين الإسرائيليين فاديم نورجيتس ويوسي براهامي اللذين قتلا في رام الله. كما وصفتها الصحيفة». وفي مكتبه شبه المدمر من صواريخ الجيش الإسرائيلي في وسط المدينة بجانب الغرفة التي قتل فيها الجنديان اعتبر كمال الشيخ عملية القتل «الفشل الأكبر للسلطة الفلسطينية» وأنها «إهانة لشرطة رام الله ولي أنا شخصياً»! ومضى قائد شرطة رام الله يقول: «أؤكد بشكل قاطع أن أي فرد من أفراد الشرطة لم يشارك في عملية القتل أو الضرب!! ولو كان هناك أحد مشاركاً لكان الآن في الحجز، وهناك ١٣ شرطياً فلسطينياً أصيبوا واحتاجوا للعلاج الطبي إبان الحدث. لم نكن قادرين على وقف المهاجمين بعد أن اقتحموا بوابة المحطة الحديدية». وسوغ كمال الشيخ إحجام أفراد الشرطة عن إطلاق النار بقوله: «كان بين المهاجمين حوالي مائة مسلح، ولو أطلق أفراد الشرطة النار لتسببت في مذبحة فظيعة».

[صحيفة السبيل الأردنية، العدد : (٣٥٧)]

براءة من البداية

س: هنالك بعض الإشاعات تقول إنكم على صلة بالجماعات الإسلامية المتطرفة؛ فما حقيقة ذلك؟

ج: لست بصدد المناقشة حول عقيدتي. أي إنسان في العالم له عقيدته. والعلاقات بين الدول لا تحكم بالعقائد، ولسنا في القرون الوسطى، وعلاقات الدول الاقتصادية والسياسية مبنية على الواقعية. أنا مسلم، أؤمن بالله. لكنني ضد التطرف؛ فالإسلام حسب المفهوم الصحيح هو دين الاعتدال والتسامح، فأنا من المعتدلين وليست لي أي علاقة مع المتطرفين ولا أحب التطرف ولا أشجعه. ولا توجد في الصومال أي قوة متطرفة، ربما هنالك أفراد لهم مزاج تطرفي.

[الرئيس الصومالي : عبدي قاسم صلاد ، مجلة الوسط، العدد : (٤٥٣)]

غربان السلام!

الشرق الأوسط معقد.. معقد: لأنه ما زال محكوماً بجنون اللامعقول الذي يجعل الرموز والمباني أقدس من الحياة. معقد هو الشُرق؛ لأنه لم يعرف قط ثقافة السلام، أي التسامح والتسليم بالحق في الاختلاف والقدرة على وضع النفس موضع الآخر لفهمه وتفهمه للتفاوض معه لا مع النفس. مهما تكن سيناريوهات تأجيج الصراع، فاللوحة قاتمة، وجنون الهويات المتصارعة فاعل، والثأر ينادي الثأر، والقادة يتنافسون في استثارة غرائز جماهيرهم، مما يجعل الحديث بلغة العقل ضرباً من الدعابة السوداء. ومع ذلك فلا بد من إسماع صوت العقل البارد في هذا الوضع الملتهب؛ لأن من أولويات الكاتب مساعدة قارئه على التفكير في مشاكل مجتمعه وعصره برصانة وموضوعية. فماذا يقول صوت العقل لشعوب ونخب على شفير الحرب؟ إذن الخيار الوحيد هو السلام الصعب والضروري في آن ليس الفلسطينيون بأقل من الإسرائيليين حاجة للسلام، أولاً ليوجدوا كدولة، وثانياً ليواجهوا المهام الجسام التي تنتظرهم. الوقت لا يعمل لصالحهم؛ فكل يوم يمر من دون سلام يعقد أكثر مشاكلهم المزمنة ويطيل ليلهم وعذابهم. كل إغراء بتحويل عملية السلام إلى عملية حرب، كما يُطالب بذلك زعماء «حماس» الذين يفكرون خارج التاريخ، لن يقودهم إلا إلى نكبة ثانية، وكل مطالب تتعدى مطلب أن تكون فلسطين وطناً لشعبين والقدس عاصمة لدولتين انتحار سياسي.

[العفيف الأخضر، جريدة الحياة، العدد : (١٣٧٣١)]

فلسفة علمانية

إن الديمقراطية تستوجب التعددية الحزبية والفكرية وحرية المناقشة والتفاهم. واستخدام الرموز الدينية في النظام الديمقراطي يلغي مبدأ المنافسة المتساوية بين الأحزاب التي تمارس السياسة؛ لأن القواعد الدينية هي أمور يجب إطاعتها كما هي. فلو تم استخدامها لأمور العامة؛ تلغي بطبيعة الحال حرية المناقشة والتعددية الفكرية. هذا ما يعني نهاية الديمقراطية، وليست الديمقراطية هي المتضرر الوحيد من هذه العملية؛ بل إن الدين أيضاً سوف يتضرر من كونه أصبح مادة مفتوحة للنقاش. وبغاية السهولة سوف يلاحظ من لديه قليل من الاهتمام بالأمور الدولية مدى الضرر الذي يتعرض له ديننا في بعض الدول. استطاعت تركيا بفضل العلمانية فصل أمور الدولة عن الدين، وبذلك نجحت في حماية ديمقراطيتها من جهة، وحماية ديننا من أي ضرر من جهة أخرى. والتاريخ التركي مملوء بالأمثلة الخاصة بالأضرار التي ألحقها التطرف الديني بالحياة العامة عندما كان في السلطة. لقد توصلت تركيا ـ من تجاربها التاريخية ـ إلى أن تقييم العلاقات الدولية من وجهة النظر الدينية فقط لا يعطي نتيجة قوية، ولو كان عكس ذلك صحيحاً، لما انهارت الامبراطورية العثمانية التي كانت مركزاً للخلافة في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهي التي رفعت راية الإسلام بعزة وشرف في ثلاث قارات؛ لذا فإن الجمهورية التركية تنظر إلى العلاقات الدولية استناداً إلى الواقعية وإلى المصالح العليا. [السفير التركي في الكويت، جريدة الأنباء، العدد : (٨٧٤٥)]

أهكذا تحمون الدين؟!

تشير وثيقة أعدت حول العلاقات العسكرية بين إسرائيل وتركيا إلى أن حجم التعاون العسكري بين الدولتين زاد هذا العام بنسبة ٤٠٪ بالمقارنة بالعام الماضي، وأن جميع الاتفاقيات العسكرية الموقعة بين الدولتين تنفذ بالكامل، ولأول مرة في تاريخ العلاقات بين إسرائيل وتركيا ستجري القوات الجوية والبرية والبحرية مناورات مشتركة بهدف زيادة القدرة على المناورة. وتجدر الإشارة إلى أن التعاون العسكري بين الدولتين يشمل ثلاثة مستويات: الأول يشمل المناورات العسكرية ـ ومعظمها سرية ـ وتتم بحجم ومستوى لا شبيه لها بين جيش الدفاع الإسرائيلي وبين أي جيش في العالم، باستثناء جيش الولايات المتحدة الأمريكية في العديد من المجالات. وأما المستوى الثاني فهو مجال الصناعات العسكرية. وأما المستوى الثالث فهو المجال الاستراتيجي والذي يشمل أيضاً الاستعداد المشترك في مواجهة انتشار الصواريخ البالستية والتهديدات من دول معينة وخاصة إيران والعراق. [صحيفة هآرتس اليهودية ـ مترجم]

في أي دولة؟!

قرارات منع ارتداء الحجاب في تركيا تزداد ويتسع نطاقها يوماً بعد يوم، فبعدما كان الحظر يقتصر على قاعات المحاضرات والمختبرات، شمل هذا العام كامل الحرم الجامعي، والمستشفى الجامعي أيضاً والسكن الداخلي. ويجري قرار الحظر أيضاً على المدارس والمعاهد والجامعات الخاصة ودورات تعليم اللغات. وتمنع القرارات المحجبات من الحصول على رخصة قيادة بحجة محاربة «الرجعية» أي التيار الإسلامي. ويدعم هذه القرارات حملات توعية نفسية في المدارس والجامعات؛ حيث يتم جمع الطالبات في قاعات كبيرة لتحاول المديرة أو الاختصاصية النفسية إقناع الطالبات بأن الحجاب ليس واجباً دينياً، بل عادة قديمة وأنه من العبث أن يضيعوا مستقبلهم من أجل قطعة من القماش.

وذكرت طالبات أن كثيراً ما يصحب محاولات الإقناع هذه أسلوب التهديد والترغيب، إذ توعد من تخلع حجابها بالمساعدة أثناء الامتحانات، وتهدد من ترفض الانصياع للأوامر بتسليمها إلى قوات الأمن والشرطة.

[جريدة الحياة، العدد : (١٣٧٣٨)]

معاندة!!

ربما قرر المسؤولون تغيير اسم وزارة التجارة إلى وزارة التجارة للشؤون الدينية مسايرة مع تيار أسلمة الحياة الاجتماعية في الدولة من طب إسلامي إلى اقتصاد إسلامي إلى نعوت مزايدات ورياء ديني تنتهي آخر الأمر إلى دولة الإسلام السياسي. أما كفانا فتاوى دويلات الطبطبائي والبصيري والعرادة وغيرهم من رموز الإسلام السياسي الشعبي. حتى تخرج لنا وزارة التجارة، وهي المؤسسة الرسمية، بتقليعة الدروشة الدينية وزج الاجتهادات الفقهية المتخلفة إلى عالم التجارة والاقتصاد فتصدر فرمانها بمنع شهادات الادخار للبنوك الوطنية بناءاً على فتوى من دائرة الإفتاء بوزارة الأوقاف؟ منذ متى أصبحنا نرهن حياتنا الاقتصادية والسياسية لفتاوى مشايخ دائرة الأوقاف بعد فتاوى الأفراد المشرعين وجمعيات ولجان الإسلام السياسي؟ ولماذا انتقت وزارة التجارة تحديداً «شهادات الادخار» للبنوك كي تظهر لنا وجهها الديني، وكيف تتمسح بجلباب فقهاء وزارة الأوقاف؟ وماذا يحدث لو قال هؤلاء الفقهاء إن الفوائد البنكية حرام. وقد قالوا هذا بالفعل، هل ستمنع وزارة التجارة الدينية البنوك أو تحولها إلى نسخ بائسة من بيت التمويل، وليذهب اقتصاد الدولة والقطاع الخاص وكل إنشائيات الإصلاح الاقتصادي ودعم القطاع الخاص إلى الجحيم؟

[الكاتب الكويتي: حسن العيسى، صحيفة القبس الكويتية، العدد: (٩٨٠٨)]

والرقيب الأعلى سبحانه!!

لست مع الرقابة بمعناها الفج والشامل، وفي الوقت نفسه مع الانفتاح وإعطاء المُشاهِد الحرية في أن يرى ما يريد، لكن من ناحية مقابلة ينبغي أن تضع في اعتبارك التكوينات الخاصة بمجتمعك ومشكلاته وأوجه الصراع الموجودة فيه، ومدى ما يمكن أن يسهم وجود هذا العمل أو ذلك فيه بالسلب، خاصة إذا لم يكن عملاً عالي القيمة من الناحية الفنية. اختلفت مع أسامة أنور عكاشة وقلت له: هناك أفلام لا أستطيع أن أراها مع أولادي مع أنهم كبار(!!). وأنا أشك في أن أسامة يشاهد هذه الأفلام مع حفيدته، وهو مبدع عظيم معه حق في نسف الرقابة، وأنا أتمنى ذلك، لكن إلى أن تكتمل الظروف، لا بد أن تضع مجموعة من الاعتبارات لا القيود. موقفي أساء البعض فهمه، وهو باختصار قبول الرقابة في الحدود التي تحقق درجة من المواءمة السياسية، دون أن يتسبب ذلك في تكبيل حرية الإبداع. وأنا فخور بأن كل من أشرفوا على جهاز الرقابة في المجلس كانوا متحرري الأفق، وكانت الشكوى الدائمة من أن الرقابة متساهلة، وهناك الآن مشروع وافق عليه الوزير بإلغاء مسمى الرقابة وإنشاء جهاز جديد مستقل يكون اسمه: الإدارة المركزية للمصنفات الفنية.

[د. جابر عصفور، الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة في مصر، مجلة الأهرام العربي، العدد (١٨٥)]

وقذف في قلوبهم الرعب

عاد وزير إسرائيلي من أوروبا بالانطباع أن العداء المتصاعد لليهود في العالم، منذ انفجار انتفاضة الأقصى هو الأعلى درجة منذ الحرب العالمية الثانية. وقال وزير الشؤون اليهودية في حكومة إيهود باراك (ميخائيل ملكيئور): «إنه بدأ يلمس ظاهرة خطيرة لمواطنين يهود في عدة دول في الغرب يخشون من المشي والظهور بالقبعة الدينية اليهودية، ولا يشاركون في نشاطات يهودية ويترددون في تسجيل أولادهم في مدارس يهودية». وأضاف: «إن هناك خوفاً حقيقياً من اعتداءات إرهابية على اليهود وعلى المؤسسات اليهودية، وأن مئات الهجمات على يهود وأهداف يهودية وقعت في مختلف دول العالم، من فرنسا وحتى جنوب إفريقيا ومن أستراليا حتى كندا، بينها ٢٠٠ هجوم بالمتفجرات»، وقال: «المميز لهذه الاعتداءات أنها لم تقتصر على مواطنين محليين من قوى اليمين المتطرف أو اليسار المتطرف بل من مسلمين يحظون بتعاطف السكان المحليين. الأمر الذي يؤكد أن تلك ليست ظواهر هامشية، بل نوع من التضامن مع الفلسطينيين».

[صحيفة الشرق الأوسط، العدد: (٧٩٩٨)]

أشد الناس عداوة

١ ـ كشفت صحيفة هندية واسعة الانتشار وصول فريق أمني إسرائيلي إلى القسم الذي تسيطر عليه الهند من كشمير بدعوة من وزير الداخلية الهندي لال كريشنا أدفاني، وقالت صحيفة «ذي تايمز أوف إنديا» ـ الصادرة باللغة الإنجليزية من نيودلهي: «إن الفريق «الإسرائيلي» يرأسه مسؤول كبير في مكتب رئاسة الوزراء، ويتشكل من مسؤولين كبار في الشرطة وقيادات في الأمن والاستخبارات العسكرية الإسرائيلية»، وأشارت الصحيفة إلى أن الفريق الأمني «الإسرائيلي» يدرس جدوى الاحتياجات الهندية الأمنية في ولاية كشمير التي تواجه تصعيداً مسلحاً من قبل المقاتلين الكشميريين. [صحيفة السبيل الأردنية، العدد : (٣٥٢)]

٢ – كشف زعيم حركة «لشكر طيبة» الكشميرية المقاتلة (حافظ سعيد) أن أتباعه قتلوا ستة من رجال الكوماندوس الإسرائيليين في معارك عنيفة خاضتها الحركة أخيراً في كشمير الخاضعة للسيادة الهندية.

وأضاف أن مجموعة من الكوماندوس الإسرائيليين وصلت إلى الهند قبل ثلاثة أشهر تنفيذاً لاتفاق بين البلدين على مقاومة المجاهدين الكشميريين.

وحدد سعيد في لقائه ثلاثة أماكن يوجد فيها الكوماندوس الإسرائيليون وهي: العاصمة سريناغار، ومدينتا سابور وبدغام. ووصف المهام التي يضطلع بها الكوماندوس الإسرائيلي بأنها تدريبية وقتالية.

[صحيفة الحياة، العدد : (١٣٧١٣)

٣ – قالت مصادر أمنية جنوب إفريقية أن جهاز المخابرات الخارجية الإسرائيلي (الموساد) عزز وجوده هناك أخيراً، وعين عميلين ميدانيين في مدينة (كيب تاون) لمراقبة نشاطات الجماعات الأصولية في البلاد. وبهذه الخطوة، يرتفع عدد العملاء الذين يعملون لصالح «الموساد» في جنوب إفريقيا إلى سبعة، استقروا جميعهم في بيوت «آمنة» في الضواحي الغربية لكيب تاون، ويتلقون الدعم من خبراء مكتب جنوب إفريقيا الجديد في مقر «الموساد» بتل أبيب. ووجد عملاء «الموساد» في جنوب إفريقيا تعاونهم مع وكالة المخابرات الوطنية المسؤولة عن الأمن الداخلي ـ ذا قيمة.

[صحيفة الشرق الأوسط، العدد : (٧٩٧٦)]

في زحمة الأحداث

ذكرت الإذاعة اليوغسلافية من بلجراد أن مبعوثاً ليبياً سلم الرئيس اليوغسلافي الجديد فويسلاف كوشتونتسا مساعدة مالية قدرها مليون دولار أمريكي هدية من ليبيا إلى شعب صربيا. وذكرت الإذاعة أن مبعوثاً خاصاً للزعيم الليبي العقيد معمر القذافي هو أحد كبار المسؤولين في اللجنة الشعبية للعلاقات الدولية رمضان المانعي التقى الرئيس اليوغسلافي كوشتونتسا وسلمه شيكاً بمبلغ مليون دولار أمريكي مساعدة إنسانية إلى شعب صربيا. ولم تذكر الإذاعة نوع المساعدة الإنسانية التي منحتها القيادة الليبية إلى قيادة صربيا الجديدة ولا سببها. [جريدة الرياض، العدد : (١١٨٠٦)]

الصيادون للعقول

وافق مجلس الشيوخ الأمريكي على تشريع بزيادة ومضاعفة أعداد تأشيرات الدخول للعاملين الأجانب المهرة في مجال الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات، ويقضي القانون بزيادة تأشيرات الدخول المتاحة للعاملين في هذا المجال من ١٠٧ آلاف وخمسمائة تأشيرة سنوياً بموجب القانون الحالي إلى ١٩٥ ألف تأشيرة. [صحيفة البيان، الإماراتية، العدد : (٧٤١٤)]

والله لتفتحن روما

١ – «ليست إيطاليا بلاداً مهجورة بلا تاريخ ومن غير تقاليد عريقة، ثمة أضداد تتنافر ويستحيل الجمع بينها، إما أن تثبت أوروبا هويتها المسيحية، وإما أنها سائرة إلى الارتماء في حضن الإسلام، لا بد من أن نحصن أنفسنا ضد تعدد الزيجات، والتمييز ضد المرأة، والتطرف الإسلامي. اضربوا أخماسكم بأسداس قبل الإقدام على أي قرار أو خطوة في هذا المضمار!»

ليست هذه التصريحات ـ خلافاً لما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ـ من الدرر التي يجود بها من حين لآخر زعماء الأحزاب والحركات اليمينية المتطرفة في أوروبا، من أمثال الفرنسي لوبان أو النمسوي هايدير أو الإيطالي أومبرتو بوسي؛ بل هي من بنات أفكار أسقف مدينة بولونيا التي تحتضن أقدم جامعة في أوروبا. ومن اللافت أنها تأتي إبان الاحتفالات الضخمة التي تنظمها الكنيسة الكاثوليكية لمناسبة مرور ألفي عام على ميلاد السيد المسيح، تحت شعار الانفتاح والتآخي مع الديانات والمعتقدات الأخرى. قال الكاردينال مضيفاً: «إن لكل دولة أن تسمح بالدخول إلى أراضيها لمن تشاء، فليأت الأمريكيون اللاتينيون والفيليبينيون وجيراننا من إريتريا». التصريحات اللاهبة التي صدرت عن أسقف بولونيا لقيت أيضاً تجاوباً معها، حتى بين كبار المسؤولين في الفاتيكان، مثل الكاردينال أنجيلو سودانو الذي يقوم مقام وزير الخارجية، فضلاً عن استقطابها تأييداً واسعاً في أوساط المحافظين والأحزاب اليمينية؛ فقد رأى سيلفيو برلوسكوني أنها كلمات تستحق الاهتمام والاحترام، بينما أثنى زعماء الحلف الوطني وعصبة الشمال على شجاعة الكاردينال، واعتبروا أن الوقت قد أزف لكسر المحرمات وتسمية الأشياء بمسمياتها، وأن أحداً لن يتجاسر بعد اليوم على القول بأن الهجرة ظاهرة إيجابية، إشارة إلى التصريحات التي صدرت أخيراً عن مسؤولين كبار، بينهم رئيس الحكومة ورئيس جمعية الصناعيين، مشددة على حاجة إيطاليا إلى عشرات الآلاف من المهاجرين سنوياً للحفاظ على وتيرة النمو الاقتصادي وعلى التوازن بين الأعمار في التركيبة الاجتماعية. حتى الآن لم يصدر عن الفاتيكان أي تصويب أو إدانة للتصريحات التي صدرت عن أسقف بولونيا. ولكي يضمن الكاردينال بيفي أن تصريحاته الاستفزازية ستعقد ثمارها، ختمها بالعبارات التالية: «أنا لم أنزعج قط من فكرة الحروب الصليبية، أعرف أن كلامي سيساء فهمه، ولكن من واجبي أن أفصح عن شواغلي».

[صحيفة الحياة، العدد : (١٣٧١٧)]

٢ – نظمت «رابطة الشمال» الانفصالية في إيطاليا تظاهرات في مدينة ميلانو احتجاجاً على الوجود الإسلامي في مقاطعة لومبارديا شمال البلاد، شاركت فيها تنظيمات يمينية متطرفة. وتخللت التظاهرات خطابات حامية دعت إلى وقف هجرة المسلمين إلى إيطاليا بحجة الدفاع عن «الهوية الثقافية والدينية» التي يتهددها الاجتياح الإسلامي الذي بدأ يغزو البلاد. وشارك في إلقاء الخطابات عدد من المسؤولين في الرابطة التي يتزعمها أومبرتو بوسي، وممثلون عن التنظيمات الفاشية اليمينية، وعلى رأسها «الحركة الاجتماعية الإيطالية» (الفاشية الجديدة) التي يقودها الفاشي المخضرم بينو رواتي. وتزامنت التظاهرات مع سلسلة اعتداءات على عدد من المهاجرين العرب والمسلمين شهدتها مدن الشمال، ونفذ هذه الاعتداءات شبان يعرفون بـ «أصحاب القمصان الخضر» تابعون للرابطة، ووزع هؤلاء بيانات تندد بالوجود الإسلامي وتدعو إلى حملة صليبية جديدة للدفاع عن التقاليد المسيحية الكاثوليكية. ولاقت التظاهرات والاعتداءات العرقية التي قام بها أعضاء التنظيمات العنصرية تأييداً واسعاً في أوساط المحافظين والتحالف اليميني الذي يقوده رئيس الوزراء السابق سيلفيو بيرلوسكوني. وفي هذا الإطار صعدت التنظيمات اليمينية والانفصالية مساعيها للحؤول دون إكمال مشروع بناء مسجد جديد في مدينة لودي القريبة من ميلانو رغم أن السلطات البلدية المحلية وافقت على المشروع. وجاءت الحملة الجديدة بعد التصريحات التي أطلقها أسقف مدينة بولونيا الكاردينال جياكيمو بيفي.

[صحيفة الحياة، العدد : (١٣٧٢٥)]

الإسرائيليات في التفسير

أمل القصيمي

علم تفسير القرآن من العلوم المهمة التي يجب على الأمة تعلمها، وهو من أشرف العلوم الشرعية وأجلّها؛ فالشيء إنما يشرف بشرف موضوعه. وموضوع علم التفسير كلام الله وهو أشرف الكلام وأصدقه، وهو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم، وينبوع كل حكمة، وقد أوجب الله - سبحانه - على الأمة حفظ القرآن، كما أوجب عليهم فهمه وتدبّر معانيه، قال - تعالى - : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال - سبحانه - : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال - جل من قائل - : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. [محمد: ٢٤].

والتفسير المعتد به عند جمهور العلماء - سلفاً وخلفاً - ينقسم إلى قسمين:

الأول: التفسير بالمأثور:

ويعتمد على القرآن وصحيح السنة، والمنقول عن الصحابة - رضوان الله عليهم - والمنقول عن التابعين.

الثاني: التفسير بالرأي والاجتهاد: وينقسم إلى قسمين:

١ - التفسير المذموم المردود: وهو التفسير من غير تأهُّل له بالعلوم التي لا بد للمفسر منها، أو التفسير بالهوى والاستحسان، أو التفسير المؤيد لمذهب فاسد أو رأي باطل، وهذا اللون من التفسير كثيراً ما يشتمل على المرويات الواهية والباطلة.

٢ - التفسير الممدوح المقبول: وهو التفسير المبني على المعرفة الكافية بالعلوم اللغوية والشرعية والأصولية وعلم السنن والحديث، ولا يعارض نقلاً صحيحاً ولا عقلاً سليماً، مع مراقبة الله غاية المراقبة في كل ما يقول.

ومدار حديثنا عن النوع الأول وما يتصل به وهو التفسير بالمأثور؛ فكما علمنا أن التفسير بالمأثور يشمل التفسير بالقرآن والسنة بما صح عن النبي ﷺ؛ وليس لأحد أن يرفضه أو يتوقف بعد ثبوته، ثم تفاسير الصحابة، ثم التابعين وهي أكثر من أن تُحصى؛ ففيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع والإسرائيليات؛ فما هي الإسرائيليات؟

الإسرائيليات: «جمع إسرائيلية، نسبة إلى بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب - عليه السلام - وبنو إسرائيل: هم أبناء يعقوب ومن تناسلوا منهم فيما بعد»[1]. ولفظ الإسرائيليات

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد ابو شهبة، القاهرة، مكتبة السنة، ص ١٢.

وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أن المراد بهذا اللفظ عموم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية، ويُطلق لفظ الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني؛ فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه؛ وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين[1] (*).

أقسام الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى ثلاثة أقسام.. وهي:

القسم الأول: قسم علمنا صحته لموافقته القرآن وصحيح السنة: وفيه ورد قول الرسول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[2]. وهذا القسم صحيح، وفيما عندنا ما يغنينا عنه، ولكن يجوز ذكره وروايته للاستشهاد به ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم؛ وذلك مثل ما ذُكر في صاحب موسى - عليه السلام - وأنه الخضر كما ورد في الحديث الصحيح.

القسم الثاني: قسم علمنا كذبه؛ لأنه يعارض القرآن وصحيح السنة، وعندنا ما يخالفه، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته؛ ومثل ذلك: ما ذكروه في قصص الأنبياء من أخبار تطعن في عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كبعض أخبارهم في قصة يوسف، وداود، وسليمان، وكقصة الغرانيق.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا ولا ذاك.

فلا نؤمن به ولا نكذّبه؛ لاحتمال أن يكون حقاً فنكذّبه أو باطلاً فنصدّقه، ويجوز حكايته لحديث النبي ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم»[3]، وغالب هذا القسم مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ومن هذا: أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، ونوع البضع الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل، إلى غير ذلك مما أبهمه الله - تعالى - في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم[4].

والحق أن رواية الإسرائيلية شيء وإيرادها

---

(1) التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى، ج 1، ص 168، بتصرف.

(*) النصارى أيضاً ينسبون لبني إسرائيل بنص القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ إلى قوله - تعالى -: ﴿فَآمَنت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾[الصف: 6 - 14] فالذين آمنوا بعيسى من بني إسرائيل هم النصارى، والذين كفروا به منهم هم اليهود. - البيان -

(2) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل.

(3) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة؛ باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء».

(4) انظر: بحوث في أصول التفسير: محمد بن لطفي الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ص 71 - 73. و كتاب التفسير والمفسرون: الذهبي، ص 181 - 183، وكتاب: الإسرائيليات والموضوعات: لمحمد أبو شهبة، ص 106، 107.

في التفسير شيء آخر؛ فإيرادها في صدد تفسير آية تصديق لها وأي تصديق، ورسول الله ﷺ يقول: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[1][2].

قال ابن الملك في (مبارق الأزهار): «إنما نهى رسول الله ﷺ عن تصديقهم وتكذيبهم؛ لأنهم حرّفوا كتابهم، وما قالوه إن كان من جملة ما غيروه فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل، وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق».

مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير:

بدأ تعرّف المسلمين على هذه القصص في عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث كان هناك عدد من التابعين كانوا من أهل الكتاب قبل دخولهم الإسلام ومن العلماء بدينهم، فلما أسلموا كانوا كثيراً ما يُسألون عما ورد في كتبهم اليهودية والنصرانية مما يتصل ببعض قصص القرآن[3]، فكان الصحابي إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد نفسه ميالاً إلى السؤال عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرّض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الديني.

غير أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم أي شيء، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحاً للقصة وبياناً لما أجمله القرآن منها مع توقفهم فيما يُلقى إليهم؛ فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل الأمرين امتثالاً للحديث آنف الذكر. كما أنهم لم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن، كما لم يسألوهم عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعاً من العبث واللهو كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذي ضُرب به القتيل من البقرة.

أمّا التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، فظهرت في هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدّوا هذه الثغرات القائمة في التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى، فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان المتوفى سنة (١٥٠هـ)، ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات وأفرط في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردُّون قولاً.. واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بنقل هذه الأخبار التي

(١) سبق تخريجه.

(٢) بحوث في أصول التفسير، محمد الصباغ، ص٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٧.

أصبح الكثير منها نوعاً من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي[1].

سبب الاستكثار من الإسرائيليات:

لعل من المناسب إيراد مقالة ابن خلدون في مقدمته عن أسباب الاستكثار من المرويات الإسرائيلية؛ فإنه خير من كتب في هذا الموضوع.

قال ـ رحمه الله ـ: «وقد جمع المتقدمون في ذلك ـ يعني التفسير النقلي ـ وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود؛ والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنها أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من (حِمْيَر)، الذين أخذوا بدين اليهودية، فلمّا أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلّق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك، وهؤلاء مثل: «كعب الأحبار، ووهب ابن منبه، وعبد الله بن سلام» فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل، وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملؤوا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بَعُدَ صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتُلقيت بالقبول من يومئذ»[2].

ومن أسباب الإكثار من المرويات الإسرائيلية بالإضافة إلى ما ذُكر كثرة حذف الأسانيد، وغلبة الدخيل في أواخر القرن الثالث الهجري وما بعده، حيث ألف في التفسير خلق كثير، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال من غير عزوها إلى قائلها؛ فمن ثم دخل الدخيل أكثر من ذي قبل، والتبس الصحيح بالعليل، وصار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يُرجع إليهم في التفسير[3].

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين.

---

(١) انظر التفسير والمفسرون، للذهبي، ص ١٧٢ ـ ١٧٩. بتصرف.

(١) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، بيروت، دار الهلال، ١٩٨٦م، ص ٢٧٩.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات: محمد أبو شهبة، ص ٧٣.

نظرات دقيقة

د. عبد الكريم بكار

ركز الله ـ جل وعلا ـ في فطرة الإنسان حب التساؤل والتطلع إلى معرفة المجهول. وتاريخ الإنسانية حافل بالجهود التي يحاول الناس من خلالها الخروج من العماء و (اللاتكوّن). والإنسان إذ يحاول التعرف على الوسط الذي يعيش فيه يسعى إلى فهم ذاته وتيسير حركته واستثمار طاقاته، وهو في سبيل ذلك مطالب بأن يعرف الكثير الكثير من الحقائق، وذلك لا يتم إلا بامتلاك المنهج والأدوات الملائمة. إن مما هو مألوف أن نجد بعض الحقائق يبدي طواعية من غير حدود، حتى إذا حاولت القبض عليه واستيعابه تأبّى على التشكل على نحو ما نجده في المادة الهلامية. وهذا ما يخدع كثيراً من الناس؛ حيث يكون قبضهم ـ إذا يظنون أنهم قبضوا ـ على ما يشبه السراب.

ولعلّي أسلط الضوء على هذه المسألة المهمة من خلال النقاط الآتية :

١ - إدراك الإنسان للمحسوسات والمجسّمات أسهل بكثير من إدراكه للمعنويات والعقليات؛ فنحن نكاد لا نبذل جهداً يذكر في التعرف على لون ثوب أو مساحة غرفة أو وزن هاتف، أما إذا تحدثنا عن شجاعة شخص أو أثر الرخاء في حياة شعب، أو أثر اليتم في حياة طفل ومستقبله، فإننا سنختلف اختلافاً بيناً في ذلك؛ حيث يكون التعامل مع عناصر غير ملموسة، وبعضها غامض جداً يصعب الحدس به.

دعونا نقول : إن (الحقيقة) ليست ذات جوهر واحد، أو ذات طبقة واحدة، وإنما هي ذات طبقات عدة، بعضها فوق بعض، وكلما صرنا للبحث في طبقة أعمق احتجنا في إدراكها والتعامل معها إلى أسلوب جديد أو وسيلة جديدة، ووجدنا أنفسنا على أرض هشة؛ حيث يشتد النقص في وسائل المعرفة، كما يزداد الاعتماد على عناصر ذات طابع يكاد يكون شخصياً.

حين نرى (قلماً) فإننا نعرف سماته الظاهرة لأول وهلة؛ فإذا أردنا أن نعرف (ثمنه) وجدنا أنفسنا بحاجة إلى درجة من الخبرة التجارية وأسعار الأقلام في السوق؛ فإذا تجاوزنا ذلك إلى معرفة المواد التي صُنع منها القلم ومقدار كل منها والتقنية المستخدمة فيها وجدنا أنفسنا أمام معضلة كبرى، ووجدنا أن الاقتراب من ذلك يتطلب وجود مختبرات متطورة وتجارب كثيرة وخبرات متخصصة وراقية؛ ومع كل ذلك ففي الغالب تكون النتائج متواضعة، وإلا لأمكن اقتباس أسرار التقنية المتقدمة بسهولة. ونحن في كل هذا نتعامل مع شيء محسوس، لكننا تجاوزنا ما يوقفنا عليه النظر العابر إلى طبقات أعمق من الحقيقة.

٢ - في المسائل الصغيرة والمحدودة نستخدم الحواس والأخبار المتواترة والمستفيضة، ونصل إلى أحكام قطعية أو شبه قطعية، وذلك كحكمنا بأن زيداً من

الناس موجود معنا في هذه الحجرة، وكإيماننا بوجود بلد اسمه (الصين) وشخص مضى اسمه: حاتم الطائي أو الذهبي. ونحن لا نستخدم في إدراك هذا النوع من الحقائق والمعارف مقدمات أو عناصر ذهنية؛ ومن هنا حصلنا على معرفة يقينية أو شبه يقينية.

أما إذا أردنا الاقتراب من قضية أو حقيقة ذات بنية مركبة فإن الأمر سيكون مختلفاً جداً. وتكون البنية مركبة إذا ساهم في تشكلها عدد من الروافد المتباينة أوالمتقاربة؛ وذلك كما إذا أردنا الوقوف على ما جرى في معركة من المعارك، والآثار الرمزية والاجتماعية والاقتصادية التي نتجت عنها. في مثل هذه الحالة يكون من غير الممكن فهم هذه الحقيقة أو الحقائق المركبة على نحو مباشر؛ ولا بد من استخدام وسيط معرفي، يسميه بعض الباحثين اليوم بـ (الإشكالية). هذه الإشكالية مكونة من عدد من العناصر، أهمها معتقداتنا، بالإضافة إلى الخلفية الثقافية العامة أو ما كان يسمى بـ (الأهلية) ثم المعلومات المتوفرة حول القضية موضع البحث. فالطبيب الذي لا يؤمن بوجود (الجن) أو الذي لا يرى (الإصابة بالعين) سوف يُبعد كل ما يتعلق بهذين الأمرين عند التشخيص والعلاج لكل المرضى الذين يراجعونه، والذي خبرته في الاقتصاد معدومة يمكن أن يصدِّق من يقول له: إن ثروته يمكن أن تتضاعف كل سنة مائة مرة إذا هو دفع ماله إليه. والذي لا يعرف الاحتياطات التي تقوم بها الدول النووية نحو السلاح النووي فإنه يمكن إذا رأى قنبلة في صحراء أن يصدِّق من يقنعه بأنها قنبلة نووية، وهكذا. الإنسان وهو يستخدم هذا الوسيط المعرفي في استيعاب الواقع الموضوعي لا ينتهي في أكثر الأحيان إلا إلى نتائج ظنية؛ وذلك لأن صلابة الرأي نابعة من صلابة المقدمات التي ولَّدته.

وعند النظر في خلفياتنا الثقافية ومعلوماتنا حول القضايا التي نحاول فهمها - نجد أنها كثيراً ما تكون قاصرة وقابلة للجدل والنقد؛ وهذا ما يجعل تعاملنا مع القضايا المركبة والمعقدة منطوياً على نوع من (الاجتهاد) الذي يحتمل الخطأ والصواب.

٣ - كثيراً ما نشكو من نقص المعلومات التي تساعدنا على فهم بعض الأمور، وكثيراً ما نجد أنفسنا بلا حول ولا طول تجاه الوقوف على بعض الدوافع لبعض التصرفات، أو تجاه تقدير الآثار المترتبة عليه، أو تكوين صورة جيدة عن واقعة تاريخية معينة، وفي هذه الحالة نلجأ إلى (التفلسف)، وليس من المبالغة القول: إنه ما يمر على الواحد منا يوم دون أن يستخدم في كلامه وتأملاته نوعاً من التفلسف من أجل التغلب على ما نواجهه من نقص في عتادنا المعرفي.

نحن نستخدم (التعليل) في كثير من الأحيان من أجل جعل تصرفاتنا وأقوالنا تبدو منطقية ومنسجمة، ونستخدم (القياس) لسد الفراغات التي تركها الاستقراء الناقص، أو حيث يكون الاستقراء التام مستحيلاً، ونستخدم (التقنين) من أجل تسهيل التعامل مع الأفكار والأشياء والمواد. والسنن الواردة في القرآن الكريم والسنن النبوية تهدف إلى مساعدتنا على أخذ العبر والوصول إلى مستخلصات مركزة حول الماضي والمستقبل. حين نمارس (التحليل) فإننا نرمي إلى تفكيك المعطيات المعقدة بغية النفاذ إلى جوهرها، وإتاحة الفرصة لأدمغتنا كي تتعامل معها بكفاءة. وحين نتوقع حدوث بعض الأمور، ونهجس بالمستقبل فإننا نقوم بعملية استكشاف للعلاقات بين الأسباب والمسببات، ونفعل ذلك بغية إيجاد نوع من الاستمرارية الشعورية والظرفية، وتوفير منطقة عيش آمنة وملائمة لحركتنا.

إن كل هذه الممارسات الذهنية والمعرفية ما هي سوى طرق لترويض الحقائق، ومناهزة استيعابها، وهي لا تعدو أن تكون ضروباً من (المقاربة) لما نبتغيه. وهي جميعاً تعمل خارج منطقة اليقين والصواب القطعي. وفي هذه العمليات ـ التي أشرنا إليها ـ يقع الكثير من المجازفة والتعسف والتجاوز. وتقدُّم الوعي الإسلامي ـ ولا سيما على الصعيد الشعبي ـ ضعيف جداً في هذا الحقل؛ بل إن كثيراً من الصفوة من ذوي الثقافة العليا يسلكون مسلك العامة في بعض الأحيان حيال التعامل مع معطيات التفلسف والنظر العقلي. مع أن من الواضح أن (الفلسفة) لا تمنحنا الدقة، ولا تساعدنا على التحديد، وإنما تزيد في درجة شفافيتنا، وتساعدنا على رسم الاتجاهات والتعامل مع المسائل الكلية.

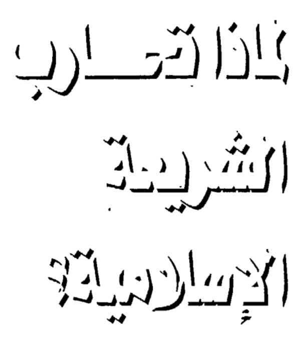
٤ – في البنية العميقة للمعرفة الإسلامية مرونة فكرية كبيرة، نحن اليوم في أمسِّ الحاجة إلى التشبع بها وتمثلِها في عمليات الاستنباط والاختلاف والتقويم المختلفة. ومن الملاحظ أن الفكر الحداثي الغربي يقوم اليوم على ركائز غاية في التطرف؛ فهو شديد التأرجح بين الشك المطلق واليقين المطلق؛ بين العقلانية المطلقة وبين جحود أي ثابت من الثوابت، وقد تأثر بهذا كثير من الرؤى الحضارية المعاصرة في بلاد المسلمين.

أما الرؤية الإسلامية في هذا المجال، فإنها تقوم على (الوسطية) المبصرة؛ فهناك اليقين، والظن القوي والظن الضعيف، والشك القوي والشك الضعيف. والاقتراب من الحقيقة متفاوت، كما أن التورط في الخطأ متنوع، وحين وضع الأصوليون قواعد تفسير النصوص لاحظوا هذا المعنى بدقة متناهية؛ ولذا ذهبوا إلى أن النص قد يكون ظني الدلالة، فيقبل آنذاك التأويل والفهم المتعدد.

ولاحظوا ـ على سبيل المثال ـ أن الأمر قد لا يفيد الوجوب، بل قد ينصرف ـ عند وجود قرينة ـ إلى الإرشاد أو الندب أو الإباحة، كما أن النهي قد يفيد مجرد الكراهة، وليس الحرمة. العلاقة بين المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات في كثير من الآداب الغربية تميل اليوم إلى (التصلب) حيث يحاول كثيرون هناك إضفاء معنى التلازم والاطراد على الارتباط القائم بين حدث وآخر.

وقد بات كثيرون لدينا يستخدمون عبارات الجزم والتأكيد فيما تأبى طبيعته ذلك. وقد كان من أدب علماء المسلمين أن يقولوا عقب بسط آرائهم واستنتاجاتهم: «والله أعلم» ليشعروا القارئ باحتمالية ما ذهبوا إليه وعدم استحواذه على اليقين. وكان من لطيف ما قرروه قولهم: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب» ولو أنهم قالوا: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا صواب يحتمل الخطأ» لما أبعدوا النجعة؛ حيث يرى بعض الأصوليين أن كل مجتهد مصيب. ومن أدب المسلم وصفاء اعتقاده أن يقول إذا تحدث عن شيء مستقبلي: «إن شاء الله» و«بإذن الله» ليذكِّر السامعين أن الأمر كله لله، وليشعرهم بوجود علاقة لينة بين ما نراه أسباباً، وما نراه مسببات. إن كل ما نصل إليه من مقولات وطروحات يظل أغلبياً يحتمل الكثير من الشذوذ، كما يحتمل الوهم والغلط؛ وما ذلك إلا لأن إمكانات التجريب في عالم الفكر والشأن الإنساني عامة محدودة ومعقدة؛ مما يجعل كل براهيننا على ما نقوله ذات وزن نسبي ومدلولات ترجيحية، ليس أكثر. وإن من أهم سمات الرجل العقلاني أنه لا يستمسك بآراء وأفكار ليس لديه ما يكفي من البراهين عليها.





د. محمد يحيى

تواترت في السنوات الأخيرة الهجمات من مصادر متنوعة وبأساليب وحجج عديدة على الشريعة الإسلامية؛ بحيث أصبح لا يمر يوم دون أن نقرأ في بلد عربي أو آخر مقالة أو نسمع حديثاً أو نشاهد إعلاناً عن كتاب يهاجم أو ينتقد الشريعة أو يطالب بتعديل أو محو أو إلغاء فيها. وليست هذه مبالغة. والمسوِّغات التي تقدم عديدة.

البعض يقول إن الشريعة الإسلامية أو بعض أحكامها كانت السبب وراء ما يسمى كذباً بالتطرف أو الإرهاب الإسلامي أو الأصولية أو السلفية أو ما شابه ذلك من أسماء. وهؤلاء يبنون على هذه المقدمة الفاسدة نتيجة أكثر فساداً، وهي ضرورة تعديل وتغيير وإلغاء هذه الأحكام المزعوم أنها تروِّج للتطرف والإرهاب، وهي أحكام لا يحددها إلا هؤلاء، ويدرجون تحتها عادة كل ما لا يروق لتوجههم العلماني.

والبعض يهاجم الشريعة من منطلقات علمانية صريحة معلنة، لكن هؤلاء قلة ولا توجد مشكلة معهم؛ لأنهم يعلنون جهراً وبلا خداع مفارقتهم للصف الإسلامي، لكن الغالبية من ذلك التيار تتستر وراء شعارات براقة وجذابة؛ وذات أصل في الوسط الفكري والشرعي الإسلامي كي تتوسل بها لتحقيق أغراضها.

وهكذا أصبح مألوفاً في السنوات الأخيرة أن نسمع ونرى طوفاناً من الدعوات حول ضرورة الاجتهاد في الشريعة لمواكبة العصر ومتغيراته، وضرورة التحديث والمعاصرة. ويتبحر البعض في هذه الدعاوى ليواجهنا طوفان آخر حول تطوير الشريعة وتعديلها تحقيقاً لمقاصدها، وحول تغليب الأصول العامة على الفرعية، والأحكام الشاملة على الجزئية، وحول إنزال الشرع على الواقع (وليس تغيير الواقع بالشرع!)، وحول فهم الشريعة وتفسيرها انطلاقاً من العصر، وليس من فهم أهل العصور الغابرة وتفسيرهم، وحول الاستنارة والعقلانية (المبهمة التعريف) في التعامل مع أحكام الشريعة.

ومؤخراً أخذنا نسمع عن الطابع «المدني» وحتى «العلماني» و «الوضعي» للشريعة، وأنها لا تفترق عن أي نظام قانوني وضعي من حيث أنها تترك أوسع المساحات للمشرعين كي ينطلقوا فيها لوضع ما يشاؤون من تقنينات غير مستدلين إلا بأحكام العقل العام والمصلحة العامة كما تتحدد في كل عصر أو في كل مكان، أو وفق كل ظروف اجتماعية وثقافية على حدة.

وكل من هذه الدعاوى يحتاج إلى المساحة الواسعة لتفنيده وتوضيح أبعاده، لكن ما يجمع ويوحد بينها هو «مسكوت عنه» (حسب التعبيرات العلمانية المنتشرة) عامٌّ يتعلق بالهدف الأشمل والسياق الأوسع لها. إن القضية ـ ببساطة والتي قلَّ أن ينتبه إليها أحد (على الأقل خشية التعرض للاتهام بأنه مؤمن «بنظرية المؤامرة»، وهي تهمة أصبحت تحمل معنى الجهل أو الغباء أو الاستسهال الفكري) ـ هي أن اليهود (وسمِّهم ما شئت باليهودية العالمية، أو الصهيونية الدولية، أو المحافل والمنظمات السرية والعلنية التي تلف لفَّهم) لا يريدون أن توجد في العالم أي شريعة أو نظام قانوني يمكن أن يزعم أنه إلهي الوضع سوى شريعتهم. هذه هي الحقيقة بلا مراء ولا لف

أو دوران، وبكل تجرد.

إن أهم ما يقيم عليه اليهود شتى مزاعمهم بدءاً من أنهم شعب الله المختار، إلى أحقيتهم بأرض فلسطين، إلى تميزهم عن سائر العالمين ـ هو أنهم أصحاب شرع أو قانون أنزله الله عليهم مكتوباً في الألواح من السماء مباشرة، وقام أحبارهم بتفسيره ووضع أركانه وتفصيله.

إنهم يدَّعون تميزهم عن المسيحية بحجة عدم وجود شريعة فيها؛ بل إن حركات «الإصلاح الديني» في المسيحية (الغربية بالذات) التي توالت منذ القرن السادس عشر وحتى الآن، وكان في القرون الأخيرة للتيارات العلمانية والماسونية التي يحركها اليهود الدور الأساس والفاعل فيها ـ أسهمت إلى حد حاسم وكبير في الإطاحة بما تبقى في المسيحية من بعض الرسوم والأحكام المحدودة جداً، والتي كان يمكن وصفها بالشريعة.

ومن هنا لا يعود أمام اليهود من منافس ـ في زعم الوضع الإلهي للشريعة ـ سوى الإسلام، ولهذا فليس من الغريب أن تتكاثف في الفترة الأخيرة ـ ومع الهجمة العاتية على الإسلام من جانب الغرب والصهيونية ـ دعوات هدم الشريعة وتعطيلها، وبث البلبلة والشكوك حولها. وليس من الغريب كذلك بل من الطبيعي والمنطقي أن تتخذ هذه العملية أساليب الخداع والمواربة والتمويه أدوات أساسية لها، وأن تجتذب الكثير من العملاء إلى الجهلة المخدوعين.

ليس هناك أفضل لهدم الشريعة من استخدام مصطلحات لها أصل في الشريعة (الاجتهاد، المقاصد الشرعية، الأولويات الشرعية، الأصول والفروع، الأصل في الأشياء الإباحة، إلخ) ثم تفريغ هذه المصطلحات من معانيها ومضامينها، وفصلها عن سياقها وضوابطها الأصولية (شريطة أن يحدث ذلك في هدوء! وبلا تعرض للنقد) ثم تحويلها إلى مجرد مصطلحات فكرية عامة مجردة، وأخيراً إعادة ملئها بمضامين ومفاهيم علمانية متغربة وضعية، وإطلاقها وسط الفكر الإسلامي لتعمل عملها في الهدم والزعزعة وهي تلبس الرداء الإسلامي القديم، وتحتفظ بأصداء معانيها في الفقه الإسلامي بينما هي في الباطن وحسب استخدام مستعمليها وفهمهم علمانية الجوهر.

ومع اطِّراد هذه العملية تتحول الشريعة الإسلامية (وربما بدون أن يشعر أحد) إلى كَمٍّ من الأحكام المقلقلة والمشكوك فيها؛ بحيث يسهل التخلص منها، كما يترسخ الفهم لها باعتبارها نظاماً وضعياً (أو «مدنياً» كما يسمونه على سبيل التخفيف!) يتبدل ويتغير ويتكيف ويتمشى مع شتى الأنظمة ولا سيما العلمانية الغربية بقيمها. ولن يعود من الممكن الرجوع إلى الشريعة الأصلية؛ لأن موجة التحطيم والهدم (وكذلك تحت المسميات الجذابة نفسها) تكون قد امتدت إلى كبار الفقهاء (هم رجال ونحن رجال!) وإلى الأصول الشرعية (الدعوة إلى أنواع من «الفقه الجديد»)، وهذا هو المخطط أو الهدف اليهودي لهدم الشريعة الإسلامية حتى لا يتبقى في العالم نظام يستطيع الزعم بأنه إلهي الوضع سوى شريعتهم التي هي في حقيقتها أشد الأنظمة وأكثرها وضعاً وتحريفاً في التاريخ.

إن هذا التصور قد يبدو مغالياً في التخوف ومصادراً لحركة التفكير والاجتهاد الفقهي الطبيعي التي يجب أن تحدث باستمرار لتجديد الفقه، ولكن الواقع المعاش يدل على خطورة ما يحدث عندما نجد على سبيل المثال أن ممارسة «الاجتهاد» أصبحت تسير في اتجاه واحد فقط هو لَيُّ عنق الشريعة الإسلامية لتصبح متمشية مع المذاهب الوضعية العلمانية كما يتجلى في العديد من قوانين الأحوال الشخصية التي وضعت مؤخراً (أو ما تزال تنتظر) في بعض البلدان العربية، وعندما نجد أن غالبية الدعاة والممارسين الجدد لما يسمونه بالاجتهاد هم من العلمانيين الأقحاح على امتداد الساحة العربية ممن لم يعرف عنهم اشتغال بالفقه الإسلامي فضلاً على أن يحملوا هَمَّ هذا الدين.

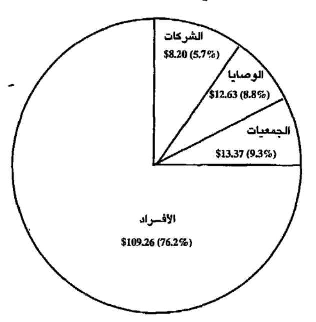
إن القضية تتطلب وعياً ومتابعة بحقيقة ما يجري بتجاوز الظواهر ليصل إلى الدوافع والمضامين الكامنة وراءها. ولا أشك في أن دراسة عملية علمنة الشريعة وهز ثوابتها وخلخلة مفاهيمها ستكشف عن أن الهدف الصهيوني في الإبقاء على شريعة واحدة فقط في العالم يزعم لها الأصل الإلهي هو الهدف الأصيل والدافع الأول وراء هذه التحركات والدعوات.

نظرات في العمل التطوعي

نوري بشير مبارك

العمل الخيري في بلاد الغرب يقدم الكثير والكثير لأداء هذا الدور الإنساني في خدمة قطاعات المجتمعات الغربية؛ بينما العمل الخيري في كثير من البلدان الإسلامية يعاني العجز والضمور؛ مع أن دوافع فعل الخير في أمتنا وديننا يفترض أن تكون أكبر بكثير مما هو في العالم الغربي؛ لأننا حينما نفعل الخير ننتظر الجزاء الأخروي من الله، ولكن العجب أن عملهم الخيري أكثر فاعلية منا وهذا هو الدليل. - البيان -

لقد بلغ إجمالي المساهمات التطوعية (نقدية وعينية) في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٩٧م (١٤٣,٤٦) بليون دولار موزعة حسب مصادر التمويل الآتي:



المصدر: مجلة العطاء الأمريكي ١٩٩٨: الجمعية الأمريكية لجمع التبرعات AAFRC Trust for Philanthropy

إن المطلع على هذه الأرقام العالية إما أنه لن يصدقها أو أنه سيتشكك فيها على اعتبار أن واقع العمل التطوعي في البلاد الإسلامية يعاني الكثير، ولا يعتقد المرء أنه سيصل إلى مصاف التجارب الغربية أو إنجازاتها على وجه الخصوص، علماً بأن العالم الإسلامي يمتلك المقومات والإمكانيات التي تؤهله بأن يتخطى ما تم ذكره. وأعني بذلك الموروث الإسلامي الحضاري الذي يقدم النماذج الكفيلة بالنهوض بالبشرية جمعاء، والارتقاء بها لتحقيق الرفاهية والتنمية لبني البشر.

إن الأسباب المؤدية إلى هذه المساهمات أصبحت من البدهيات المعروفة ألا وهو قانون الإعفاء الضريبي. ولكننا لسنا بصدد تحليل الأسباب والمسببات، ولكن ما يعنينا في هذا الصدد هو الآتي:

على الجانب الحكومي والرسمي هناك أداة قد غفل عنها صناع القرار يمكن أن تسهم بشكل فاعل في عمليات التنمية، هذه الأداة هي العمل التطوعي؛ وذلك إن تم توظيفه بشكل عملي بعيد عن نظرة الشك والريبة التي يثيرها بعضهم خصوصاً على الجانب الأمني للبلاد؛ فبنظرة إلى واقع المركز المالي لكثير من الدول النامية وعلى الأخص الغنية منها (فما بال الفقيرة إذن) نجد أن هذه الدول تعاني من

تضخم في جانب المصروفات العسكرية والتسلح، هذا على حساب الجوانب الأخرى وعلى الأخص الجوانب التنموية الاجتماعية؛ فنجد أن هناك تقليصاً في بنود ميزانية الدولة للصرف على أنظمة التسلح، وهو ما انعكس على الجانب التعليمي والاجتماعي على حد سواء، وأحدث تقهقراً في مستوى الفرد أدى إلى هبوط في المستوى الاجتماعي للمجتمع كله، وهذا بطبيعة الحال زاد من فرص بروز الأمراض الاجتماعية مثل ارتفاع في معدلات الفقر والجريمة والفساد الأخلاقي ... إلخ.

وعلى الجانب الاقتصادي والتجاري - حتى الشركات والمؤسسات التجارية - لم تستوعب الجوانب التجارية التسويقية لهذا العمل وأثره الفاعل في زيادة الربحية. المثال الآتي قد يقرب الفكرة قليلاً : قامت شركة (IBM) للكمبيوتر بالتبرع لإحدى المناطق التعليمية في الولايات المتحدة الأمريكية بتجهيز جميع المدارس فيها بأجهزة الكمبيوتر الشخصية، وهذا قد ضمن للشركة عقود الصيانة وخلو الساحة من المنافسة مع الشركات الأخرى إلى جانب السمعة والمكانة الاجتماعية في نفوس الطلبة والأهالي والمسؤولين في تلك المقاطعة، كما حقق نوعاً من الولاء لدى كل هذه الأطراف انعكس على نسبة في المبيعات في تلك المنطقة. إن القطاع التجاري في معظم عالمنا الإسلامي غائب عن هذه المعاني الاجتماعية ذات الأبعاد التجارية.

أما على الجانب الاجتماعي فالحديث يطول؛ فالمؤسسات التطوعية هي الرائدة في هذا المجال، والأمثلة كثيرة ومتعددة؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر أطباء بلا حدود، نقابات العمال والطلبة والمحامين والأطباء إلخ، ولا يخفى على أحد هذه الأيام دور كل هذه المؤسسات وأثرها في تغيير كثير من المواقف. إن المتتبع للشأن الاجتماعي في كثير من الدول يجد أن المؤسسات التطوعية هي ذات السبق في التصدي لكثير من الأمراض الاجتماعية التي باتت تؤرق الدول والحكومات. فخذ على سبيل المثال مشكلة المخدرات وسبل علاجها، الشباب والفراغ، الفساد الأخلاقي، محاربة بعض العادات والتقاليد القديمة السيئة، القضايا الأسرية، الديمقراطية، حقوق الإنسان، البيئة، السلام، والكثير الكثير من الشؤون الإنسانية الأخرى التي لا تعد ولا تحصى.

إن مؤسسات العمل التطوعي يمكن أن تلعب دور الشريك الفاعل للحكومات في مجال التنمية الاجتماعية، وإن خاصية التحرك السريع وسرعة اتخاذ القرار والبعد عن الروتين والبيروقراطية لَتُعَدُّ من أهم الخصائص التي تميز هذا القطاع وتجعله المرشح الأول للقيام بالدور التنموي المطلوب، ولكن مع الأسف الشديد فإن هذا الجانب قد تم إغفاله بشكل كبير في منظومة العالم الإسلامي لأسباب منها المعقول، والكثير منها عبارة عن شكوك وهواجس يثيرها من لا يتفق مع توجه هذه المؤسسات، أو لأسباب منها بعض الضغوط الدولية مثل دعم الإرهاب والتطرف.

إن الفائدة التي ستجنيها الحكومات من جراء مشاركة المنظمات التطوعية في المجال الاجتماعي سيتيح المجال لتلك الحكومات بأن يتم تركيزها على الجوانب المهمة الأخرى مثل أمن البلاد الداخلي والخارجي والنمو الاقتصادي والتجاري.

وما أود التركيز عليه هو أن مشاركة المواطن في مجال التنمية الاجتماعية - وذلك من خلال منظمات القطاع التطوعي - أصبحت من الضروريات التي يفرضها الواقع؛ فالدولة منفردة لا تستطيع القيام بهذه الأعباء، ولهذا فإن المشاركة المجتمعية باتت من المسلَّمات التي تفرضها معطيات النظام العالمي الجديد الذي ألغى مفهوم الدولة ذات الهيمنة على كل المجالات - التي يجب أن تقوم بكل الواجبات.

الجهاد

د. عثمان جمعة ضميرية

إن كلمة «الجهاد» مصطلح إسلامي، أو حقيقة شرعية ذات معنىً محدّد، يستعملها الفقهاء وسائر علماء الإسلام، كما يستعملون غيرها من الكلمات التي تؤدي معناها أو جزءاً منه، كالقتال والحرب والغزو... وقد واجهت فريضة الجهاد كثيراً من الشبهات والتشويه، كما عملت دوائر كثيرة داخلية وخارجية على إضعافها في نفوس المسلمين أو حصرها في مجال ضيِّق، ولهذا كان من الضرورة أن نعود بالأمر إلى نصابه، وأن نزيح ما علق بهذا المصطلح من شوائب، وأن نتعرف عليه في مصادرنا الإسلامية الأصيلة، دون أن يكون عجزنا أو ضعفنا مسوّغاً لتحريف الكَلِم عن مواضعه، وبالله التوفيق.

– ١ –

أصل اشتقاق هذا المصطلح هو حروف: الجيم والهاء والدال. (والجَهْد): أصله المشقة. ثم يحمل عليه ما يقاربه من المعاني. وقيل: هو المبالغة والغاية.

(والجُهْد): الوسع والطاقة. وجَهَده: حمّله فوق طاقته. وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة. فأما في المشقة فيقال: الجَهْد ـ بالفتح ـ لا غير. وقيل بالضمّ والفتح في كلٍّ منهما، والجهاد والمجاهدة مصدران لقولك: جاهدت العدوَّ، إذا قابلتَه في تحمُّل الجَهْد، أو بذل كلّ واحدٍ منكما جُهْده. ثم غلب استعماله في الشرع على قتال الكفار خاصة. بينما هو في اللغة أعمُّ من هذا المعنى الفقهي[(١)].

– ٢ –

وجاءت كلمة «الجهاد» في القرآن الكريم والسنة النبوية بمعانٍ أربعة:

أ – الجهاد بالنفس: وهو جهاد الكفار، بالخروج للقتال ومباشرته بالنفس، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة تعزّ على الحصر.

ب – الجهاد بالكلمة أو القول: ويشمل مجاهدة الكفار والمنافقين بالحجة والبرهان والبيان، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: جاهدهم بهذا القرآن.

ج – الجهاد بالعمل: ببذل الجهد في عمل الخير ليكون نفعه عائداً على صاحبه بالاستقامة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

د – الجهاد بالمال: ويكون بإنفاق المال في السلاح والإعداد، وبإنفاقه على غيره ممن يجاهد، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وقد جمع النبي ﷺ أنواع الجهاد في سياق واحد فقال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[(٢)]. وفسّر الجهاد لمن سأله عنه فقال: «أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم»[(٣)].

– ٣ –

كما أن النصوص الشرعية دلَّت أيضاً على مستويات الجهاد أو مراتبه، وهي: مجاهدة النفس، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة العدو الظاهر، و[illegible]

(١) انظر هذه المعاني بالتفصيل في: «الصحاح»: ٢/٤٦٠، «لسان العرب»: ٣/١٣٣ ـ ١٣٥، «مقاييس اللغة»: ١/٤٨٦، «النهاية في غريب الحديث»: ١/٣١٩، «مفردات ألفاظ القرآن» ص (١٠١)، «تفسير البغوي»: ٤/٧٩، «معاني القرآن» للفراء: ١/٤٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود: ٣/٣٦٦، والنسائي [illegible] ابن حبان ص (٣٩٠) [illegible] ٢/٨١ ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد: ٤/١١٤، وعبد الرزاق، ١١/١٢٧، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/٤٨، وإسناده صحيح.

ثلاثتها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾ [الحج: ٧٨]، وفي الحديث: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[١]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [النساء: ٩٥].

ـ ٤ ـ

وفي اصطلاح الفقهاء: عرّفه بعضهم بأنه: «بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة أو مُعاونةً بمالٍ أو رأيٍ، أو تكثير سواد أو غير ذلك». أو هو: «بذل الجهد في قتال الكفار»، وعرّفه بعضهم بأنه: «الدعاءُ إلى الدين الحقّ، والقتالُ مع مَنْ امتنع ولم يقبلْه إما بالنفس أو بالمال». وهي مع غيرها من التعريفات متلاقية من حيث المعنى والنتيجة.

وقد نصَّ الفقهاء في غالبية كتبهم على أن الجهاد يطلق أيضاً ـ كما جاء في المعنى الشرعي بالقرآن والسنة ـ على مجاهدة النفس والشيطان والفُسَّاق والمنافقين؛ ولكنه عند الإطلاق ينصرف إلى قتال الكفار لإعلاء كلمة الله. ولهذا قال العلأمة ابن رشد الجدُّ: «كلُّ من أتعب نفسه في ذات الله فقد جاهد في سبيله؛ إلا أن الجهاد في سبيل الله إذا أُطلق فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون»[٢].

ويحسن التأكيد مرة أخرى: أن هذا اللفظ لفظ إسلاميٌّ لم يعرف أنه ورد في أيِّ نصٍّ جاهلي، لا بمعنى الحرب والقتال ولا بغيرهما. وهو لا يضاف إلى أي لفظ آخر في الاستعمال الاصطلاحي؛ فليس هناك جهاد مقدس، وإنما هو الجهاد، فضلاً عن أن يكون هناك جهاد غير مقدّس . فالجهاد لفظ ديني خالص لا يستعمل إلا إذا كانت الشروط الواردة في الشريعة قد استوفيت حتى تكون الحرب مشروعة؛ فعندئذ تكون جهاداً. كذلك لا يقال: جهاد مشروع؛ لأنه ليس عندنا جهاد غير مشروع[٣].

ـ ٥ ـ

ومما يتصل بالجهاد من مصطلحات: القتال، والحرب، والرباط، والغزو. أما القتل فهو في الأصل إزالة الروح عن الجسد كالموت، وقد جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة بعضها يعني العمليات القتالية أو الحربية، ولكن في بضع آيات فقط، ولم تأخذ صفة المصطلح العام المشتهر.

وأما الحرب فهي تعني المقاتلة والمنازلة والتباعد والبغضاء. وقد جاءت في القرآن الكريم في ستة مواضع بمعنى الكفر، وبمعنى القتال. والرباط: جاءت في القرآن والسنة بمعنى ملازمة الثغور والإقامة على جهاد العدو بالحرب. والغزو أيضاً: جاءت في الحديث بمعنى قصد العدو للقتال.

وعند الموازنة بين هذه المصطلحات نجد أن الإسلام قد أعلى من مكانة الجهاد حتى في استعماله مصطلحاً شائعاً دون غيره، ولعل ذلك بسبب ما تثيره تلك الكلمات في النفوس وما يشوبها أحياناً من إسقاطات بخلاف كلمة الجهاد[٤].

ـ ٦ ـ

وإذا كان الجهاد بمعناه العام الذي يشمل كلّ جهد لمجاهدة النفس والشيطان مشروعاً منذ المرحلة المكية؛ فإن الجهاد بمعنى قتال الأعداء حتى يسلموا أو يعطوا الجزية إنما جاء تشريعه متدرجاً تحقيقاً للحكمة الربانية في مواجهة الواقع الذي عاصره النبي ﷺ وأصحابه بأحكام مرحلية، تواجَه كلُّ مرحلة بما تتطلبها وبما يتفق مع قدرة المسلمين وعلاقتهم بالأعداء؛ [illegible]

(١) الترمذي: ٥/٢٥٠، وابن حبان برقم (٢٥) والحاكم: ١/١١، والبغوي: ١٠/٣٥٣ وإسناده صحيح.

(٢) «المقدمات المهدات» لابن رشد: ١/٣٤٢. وراجع: «أحكام القرآن» للجصاص: ٣/١١٨، «حاشية ابن عابدين» ٤/١٢١، «كشف القناع» ٣/٢٨، «شرح السنة»: ١٠/٣٤٥.

(٣) انظر: «الجهاد والحقوق الدولية» للأستاذ [illegible]

(٤) انظر بالتفصيل: «أصول العلاقات الدولية»، عثمان جمعة ضميرية: ٢/٩٠٨ ـ ٩٢٩.



الأمر بالجهاد مرتباً متدرجاً وفق خطوات الإعداد التربوي لهذه الأمة التي حمّلها الله ـ تعالى ـ مسؤولية إبلاغ هذا الدين للعالمين. فقد بدأ نزول الوحي على النبي ﷺ، ثم أمره الله ـ تعالى ـ بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة بالتي هي أحسن، فكان القتال محظوراً قبل الهجرة، ثم أذن الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة وتأسيس المجتمع الجديد وأمره بالصبر والكفّ، ثم فرض القتال إذا كانت البداية من الكفار، دفعاً لعدوانهم، وكان قبلها مباشرة مأذوناً فيه فحسب، ثم أمر الله ـ تعالى ـ بقتال المشركين في بعض الأحوال والأزمنة. وأخيراً جاء الأمر بالقتال للمشركين كافة. فكانت هذه هي المرحلة الأخيرة التي استقرَّ عليها أمر الجهاد. وصار أهل الأرض عندئذ ثلاثة أقسام هي: مسلمٌ مؤمن بالنبي ﷺ، ومسالم له آمن ـ أهل ذمة ـ وخائف محاربٌ[1].

ـ ٧ ـ

وقد أجمع علماء المسلمين منذ العصور الأولى على أن الجهاد فريضة مُحْكَمَةٌ يكفر جاحدها، وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة، والنصوص في ذلك كثيرة متضافرة. ولكن وقع الخلاف ـ بعد ذلك ـ في نوع هذه الفرضية: هل هي فرض عين على كل مكلّف، أم فرض كفاية يطلب من مجموع المكلفين القيام به، فإذا قام به بعضهم سقط التكليف عن الباقين؟ والحال لا يخلو من أحد افتراضين:

(أحدهما): ألاَّ يكون النفير عاماً، وفي هذه الحال يكون الجهاد فرض كفاية يقوم به بعض المكلفين، والباقون في سعة من تركه. وتحصل الكفاية بأن يشحن إمام المسلمين أو رئيسهم الثغور بجماعة يكافئون مَنْ بإزائهم من الكفار، أو أن يدخل الإمام دار الكفر بنفسه أو بجيش يؤمِّر عليه نائباً عنه. وذهب بعض التابعين إلى أن الجهاد فرض عَيْنٍ مطلقاً على كل مسلم، وقال آخرون: هو فرض عين على من يكون بجانب الكفار.

(ثانيهما): أن يكون النفير عاماً؛ وهنا يجب على كل قادر مستطيع؛ لأن دفع الكفار لا يحصل إلا بهم جميعاً؛ فالقادر يباشر الجهاد بنفسه، وغير القادر على الجهاد بنفسه يخرج لتكثير سواد المسلمين ويجاهد بماله. ونصَّ العلماء على أن الجهاد يتعيّن ـ فرض عين ـ في الأحوال الآتية:

أ ـ أن يهجم العدو فجاة على بلدة معيّنة من بلاد المسلمين، أو أن يحيط بها ويدخلها، فيجب الجهاد عيناً على أهل تلك البلدة وعلى من يكون قريباً منهم إن لم يكن بأهلها كفاية.

ب ـ أن يعيِّن ولي الأمر قوماً يستنفرهم للجهاد، فيصبح في حقهم فرضاً عينياً إلا مَنْ له عذر قاطع.

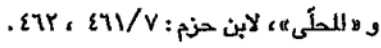
ج ـ إذا التقى الزحفان وتقابل الصفَّان: حَرُمَ على من حضر الانصرافُ والفرار، وتعيّن عليه المقام والثبات؛ إذ قد تعيّن عليه الجهاد، إلا أن يكون متحرِّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة.

وبهذا التفصيل الموجز يظهر حكم الجهاد في كثير من الحالات والأحوال المعاصرة، ويظهر أيضاً تقصير المسلمين عامة وتخاذلهم عن القيام بواجبهم، وقد ذكر العلماء أن امرأة لو سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها ولو جاء ذلك على أموال بيت مال المسلمين. كما يجدر الإشارة هنا إلى أن العلماء قالوا: لا يأثم من عزم على الخروج للجهاد في الأحوال الواجبة ولكنه لم يخرج لعدم خروج الناس وتكاسلهم أو قعود الحاكم عن ذلك، أو منعه من الخروج. والله أعلم[2].

ـ ٨ ـ

وأما غاية الجهاد فقد حدّدها الإسلام بإعلاء كلمة الله، أو في سبيل الله؛ فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءاً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل

(١) انظر: «زاد المعاد»، لابن القيم: ٣/١٦٠، «المبسوط»، للسرخسي: ١٠/٢، ٣، «تفسير القرطبي»: ٣/٣٨، «في ظلال القرآن»: ١/١٨٥، ١٨٦و ٣/١٤٣٩ وما بعدها.



(٢) انظر: «المغني»، لابن قدامة: ٨/٣٤٠ ـ ٣٤٦، و«القوانين الفقهية»، لابن ...، و«المحلّى»، لابن حزم: ٧/٤٦١، ٤٦٢.

لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل»[1].

والأصل في ذلك: أن القاعدة الأساسية التي ينبغي أن نذكرها دائماً هي أن الإسلام هو قاعدة الحياة البشرية، وهو ضرورة إنسانية فطرية، وبذلك أصبح الإسلام ديناً عاماً للبشرية كلها، ختم الله به جميع الدعوات وجعله مهيمناً عليها وناسخاً لها، فلا يقبل الله من الناس ديناً غيره، ومن حق البشرية أن تستمع لهذا المنهج وأن تتبيّنه دون أن يقف أحد في طريقها يصدُّها عنه ويثير الشبهات حوله، ولا بدَّ أن تُترك البشرية بعدها في حرية تامة لاعتناقه إذا أرادته دون إكراه، وإن لم تفعل فهي تخضع لنظامه العام وتسالمه بعقد الذمة وأداء الجزية، وينشأ عن هذا أن واجب الجماعة المسلمة هو تحطيم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها؛ ليكون الدين كله لله، بمعنى استعلاء الدين ورفع كلمة الله وتبليغها، لا بمعنى إكراه أحد على الدخول في الدين إذ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ومن هنا حدّد الإسلام غاية الجهاد بأن يكون في سبيل الله، دون أن يشوب هذا المقصد غاية أخرى من حب الغلبة المجردة، أو الشهرة أو الظهور والتسلط أو الإفساد. وبهذا يفترق الجهاد عن الحروب المعروفة اليوم التي تدفع إليها العصبية العنصرية والمصالح المادية والقومية ونحوها[2].

— ٩ —

وهذه الغاية للجهاد تحدد لنا الأسباب التي يجاهد المسلم من أجلها، وهي كلها مما ينضوي تحت شعار وكلمة «في سبيل الله»، وهي:

أ – نشر الدعوة الإسلامية وتأمين حريتها، والتخلية بينها وبين من يريد اعتناقها ليكون الدين كله لله. وهذا لا يعني ـ كما تقدم ـ الإكراه على العقيدة، فلا يجوز الخلط بين هذا وذاك، وينبغي التفرقة بين الدخول في الإسلام: عقيدةً وإيماناً، وبين الخضوع للإسلام بالتزام نظامه القانوني العام.

ب – الدفاع لردّ أيّ اعتداء يقع على المسلمين أو يتوقع وقوعه عليهم في ديارهم أو نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم. وهي أيضاً مسألة أجمع عليها العلماء قاطبة.

ج – حماية دار الإسلام وبلاد المسلمين وإنقاذ المستضعفين من المسلمين في أي دولة كانوا؛ لأن بلاد المسلمين بلدة واحدة في حكم الإسلام والمسلمون جميعاً إخوة.

د – المحافظة على العهود والمواثيق، ودرء الفتنة ومنع البغي في الداخل والخارج[3].

— ١٠ —

والجهاد في سبيل الله قد يكون دفعاً للأعداء عند هجومهم على المسلمين أو عند الاعتداء عليهم وقد يكون ابتداءً طلباً للأعداء وهجوماً بعد الدعوة والإنذار. وقد ذهب بعض المعاصرين إلى أن الإسلام لا يبيح جهاد الطلب والابتداء (الهجوم) وإنما يبيح فقط الجهاد رداً على عدوانهم على المسلمين، واحتجوا على ذلك ببعض الآيات الكريمة التي اقتطعوها من سياقها لتعطي المعنى الذي يريدون، وببعض النصوص التي جاءت تواجه مرحلة معينة من مراحل تشريع الجهاد، وببعض القواعد الشرعية وأحكام القتال في منع قتل الأطفال والنساء... وهذا كله لا يساعد على ما ذهبوا إليه؛ فقد انعقد الإجماع على أن الجهاد عند العدوان فرض عين، ويبقى فرض كفاية فيما عدا هذه الحالات؛ وقد أجمع العلماء على فرضية الجهاد فرض كفاية ما لم يكن عدوان. وهذا يعني أن الجهاد مشروع في هذه الحالات وليس ممنوعاً. كما أنه من الناحية الواقعية هناك حرب مشبوبة على الإسلام والمسلمين من كل الأعداء بصورة من الصور؛ والأدلة على هذا كثيرة متضافرة[4].

— ١١ —

ومما يتصل بهذا: شبهة يثيرها المغرضون بهدف تشويه صورة الجهاد في النفوس، وعند رد هذه الشبهة يصل الأمر ببعضهم إلى حدّ إسقاط فريضة الجهاد، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري: ٦/٢٧، ومسلم: ٣/١٥١٢.

(٢) انظر: «منهج الإسلام في الحرب والسلام»، عثمان جمعة ضميرية، ص (١٣١ ـ ١٣٣).

(٣) انظر: «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية»، د. محمد خير هيكل: ١/٥٨٣ وما بعدها، «أهمية الجهاد»، د. علي العلياني، ص (١٥٨)، «أصول العلاقات الدولية»، د. عثمان جمعة ضميرية: ١/٩٣٦ ـ ٩٦٩.

(٤) انظر: «أصول العلاقات الدولية»: ٢/٩٧٠ ـ ٩٧٨، «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية»: ١/٥٠٧ وما بعدها.

الشبهة هي أن الإسلام لم ينتشر إلا بالقوة والسيف. بمعنى إكراه الناس على العقيدة.

وهذا الزعم لا يتفق مع النصوص الإسلامية كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكقوله في رسم الصورة الصحيحة للدعوة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]... إلخ، كما أن العقائد لا يمكن أن يؤثِّر فيها الإكراه. ومن حيث الواقع العملي: نجد أن الإسلام قد انتشر في كثير من أصقاع العالم دون أن يكون هناك قوة عسكرية أو قتال. ولذلك قام عقلاء الأوروبيين والمسيحيين يفنِّدون هذه الشبهة ويردون عليها كما فعله توماس كارليل في كتابه عن «البطولة وتقديس الأبطال» والمستشرقة الإيطالية لورا فاغليري... وغيرهما.

أما إن كان المراد بانتشار الإسلام بالسيف: أن الجهاد له دور في فتح البلاد وضمها إلى دار الإسلام، وإخضاع الناس لنظام الإسلام دون إكراه على العقيدة.. فهذا أمر صحيح ولا غبار عليه، وهو أمر مشروع بحكم الإسلام. والعجب أن هؤلاء النصارى الذين يثيرون هذه الشبهة ينسون أن كتبهم تبيح التدمير والقتال وتقول: «ما جئت لألقي على العالم سلاماً..» وأن الحروب بين النصارى المخالفين لهم في المذهب استمرت قروناً ولا تزال حتى وقتنا هذا!![1].

– ١٢ –

وفي ختام التعريف بهذا المصطلح الشريف لا بد من الإشارة إلى بعض الأفهام المغلوطة من باب الموازنة والمقارنة.

● فبعض الفرق أو الاتجاهات كالصوفية جعلت الجهاد محصوراً في مجاهدة النفس؛ إذ إنه هو الجهاد الأكبر، واستدلوا على ذلك بكلام لبعض السلف ظنوه حديثاً نبوياً، وحتى ولو كان صحيحاً لكان معناه: أن الإنسان ينبغي أن يجاهد نفسه ويتغلب عليها ليكون ذلك سبيلاً للتغلب على العدو الخارجي. أما مفهومهم لهذا الأثر ولموضوع التفريق بين الجهاد الأكبر والأصغر؛ فإنه يؤدي إلى إسقاط فريضة الجهاد وإنزالها عن مكانتها العليا في دين الإسلام.

● وأما بعض الجماعات المنحرفة عن الإسلام والخارجة عنه كالقاديانية والبابية والبهائية فإنها أسقطت فريضة الجهاد كي تقرّ عيون أسيادها من المستعمرين الإنجليز وعامة الصليبيين، وفي هذا يقول القادياني: «اليوم ألغي حكم الجهاد بالسيف، ولا جهاد بعد هذا اليوم؛ فمن يرفع بعد ذلك السلاح على الكفار ويسمي نفسه غازياً يكون مخالفاً لرسول الله الذي أعلن قبل ثلاثة عشر قرناً بإلغاء الجهاد في زمن المسيح الموعود...» وإن فرقة القاديانية لا ترى الجهاد بالسيف ولا تنتظره ولا تستحلّه.

● وأما البابية التي أسسها علي محمد الشيرازي وأعلن نفسه بأنه: (باب المهدي) فتقول: «إن البشارة الأولى التي منحت من أم الكتاب في الظهور الأعظم لجميع أهل العالم: محو حكم الجهاد من الكتاب»، وقال الباب: «حُرِّم عليكم حمل آلات الحرب». وقال عبد البهاء عن أبيه: «محا آية السيف ونسخ حكم الجهاد»[2].

● وأما المنظمات الدولية كعُصبة الأمم وهيئة الأمم فلها موقفها من الحروب ومنعها، ووجوب اللجوء إلى التحكيم الدولي ونشر السلام العالمي ـ كما تزعم ـ ومنع الفتح وكسب الإقليم عن هذا الطريق، ونزع السلاح، وهذا كله تطويق لفريضة الجهاد، وإخضاع العالم الإسلامي لسيطرة الدولة أو الدول الكبرى التي تمتلك هي أضخم ترسانة أسلحة، وتمدُّ يدها هنا وهناك لبسط النفوذ وإرهاب العالم بتلك الحجج الواهية السابقة.

● وأما في المصادر الكتابية (أهل الكتاب) فلا نجد فيها مصطلح الجهاد، وإنما نجد عندها إحالة إلى مادة «لعب» و «ألعاب»!![3]، ويقسمونها إلى قسمين: فردية إظهاراً للقوة وتمريناً للجسد، وكان اليهود لا يستنكفون عنها؛ كالركض والسعي والمقاليع ـ أداة لرمي الحجارة ـ والقسم الثاني: عمومية، ولم يكن مرغوباً فيها عند العبرانيين... وأما في واقعهم المعاصر ـ وغير المعاصر ـ فإنهم هم الذين كانوا يثيرون الحروب والعداوات بين الناس، ولا يتقيدون بشيء من المبادئ الأخلاقية في حروبهم، ولم يعرفوا الرحمة فيها، إلا ما استفادوه بعد حروبهم الصليبية من المسلمين، ثم نسبوه لأنفسهم تحت اسم مبادئ الفروسية... والواقع التاريخي شاهد صادق على ذلك.

---

(١) انظر: «منهج الإسلام في الحرب والسلام» ص (١٣٤ ـ ١٤٢).

(٢) انظر: «أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية»، د. علي بن نفيع العلياني، ص (٤٩٩).

(٣) انظر: «قاموس الكتاب المقدس»، تأليف نخبة من اللاهوتيين، ص (٢٧٦، ٨١٧).

وقفات مع: قراءة سياسية لبيعة العقبة

د. محمد بن صامل السلمي(*)

لقد اطلعت على العدد (١٥٤) من مجلة (البيان) فوجدته حافلاً بالدراسات والموضوعات المفيدة، وإني أشكركم وجميع إخوانكم في مجلة البيان على اهتمامكم وحرصكم الدائم على الارتقاء بمستوى المجلة موضوعات وإخراجاً.

وفيما قرأت موضوع: «قراءة سياسية لنصوص بيعة العقبة» من إعداد عبد الحكيم الصادق، والباحث قد بذل جهداً يشكر عليه، لكن طغت عليه المصطلحات المعاصرة، وأسقط دلالة هذه المصطلحات على حوادث السيرة النبوية؛ وهذا أمر فيه خطورة ومجانبة للمنهج العلمي.

يقول الباحث: «بعد رجوع النبي ﷺ من الجولة السياسية لمدينة الطائف... ولقائه مع ممثلي الأمم من النبيين... قام بعد ذلك بتعديل منهج التغيير؛ حيث اعتمد العمل من خلال مؤسسات المجتمع الجاهلي وأعمدته...» إلخ.

وهذا الكلام خطير جداً ليس في استخدام المصطلحات فقط، ولكن من حيث التقرير والاستنتاج الذي حمل عليه استخدام المصطلحات المعاصرة وقياس الحال عليها؛ فكيف يتصور أن النبي ﷺ اعتمد العمل من خلال مؤسسات المجتمع الجاهلي؟! وهل يسوغ للمسلمين قياساً

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة

على هذا القول العمل من خلال البرلمانات والمحاكم القانونية، والإعلام الكفري، والأحزاب، ... إلخ وهي مؤسسات المجتمع الجاهلي؟!

انظر إلى ألفاظ أخرى مثل قوله في ص ٣٠: «إقامة الجماعة السياسية لضبط جدلية النظام والحركة» وقوله ص ٣١: «فالرسول ﷺ يرى ضرورة السلطة والتنظيم كضرورة الماء للكائن الحي»، وهذه مبالغة، وقوله في العمود الثاني من ص ٣١: «لقد كان رسول الله مدركاً تمام الإدراك للدور الذي تلعبه السلطة».

وذكر في البعد السياسي لبيعة العقبة أن الهدف عند الأنصار من البيعة هو إقامة الدولة (ص٣٣) والذي صرح به الأنصار وحرصوا عليه هو إقامة الدين ولهم الجنة على ذلك، ولم يعدهم رسول الله ﷺ بغير الجنة، ففرحوا وقالوا: «ربح البيع؛ لا نقيل ولا نستقيل»، وإقامة الدولة وسيلة من وسائل إقامة الدين.

وقد كرر هذا وقريباً منه في دوافع البيعة، فجعل من دوافعها الدافع السياسي، وعلل ذلك بتعليلات لا أرى أنها تصل إلى درجة أن تكون دافعاً للبيعة؛ فالبيعة للرسول ﷺ كانت مقصداً شرعياً وليست بهدف سياسي، لكن مما صنعه الله لرسوله - كما قالت عائشة رضي الله عنها - قتل كثير من زعماء الأوس والخزرج في حرب بعاث إذ هيأ الأمر لرسول الله في المدينة؛ حيث بذهاب الزعماء الذين يعارضون الدعوة في العادة تهيأ الأمر لأهل المدينة فقبلوا الحق وآمنوا برسول الله ﷺ، وما ذكره الباحث من وجود دافع عسكري ودافع اجتماعي لبيعة العقبة غير واضح، ولا يوجد في نصوص البيعة وأخبارها ما يدل عليه، والبيعة كانت ذات هدف ديني وتصديقاً لرسول الله ﷺ والتزاماً بما يأمر به وينهى عنه، وبواعثها ودوافعها كذلك؛ فليس منها مساومات واقتسام مصالح دنيوية، بل هي بيعة على الإيمان وما يوجبه عليهم، وحماية لرسول الله ﷺ وجهاد معه بما شرع الله.

هذه ملاحظاتي على المقالة، وأرجو أن تقبلوها بصدر رحب؛ ولكم تحياتي وتقديري.

مفهوم العبادة ومقاصدها في الإسلام

عمر إدريس الرماش

العبادة محبة وخضوع وإخلاص:

لقد خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان وأوجده في هذا الكون من أجل عمارة الأرض وعبادته وتقواه كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وعبادة الله تستوجب الحب والخضوع، وحب الله لا يصدق إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه مصداقاً لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهكذا فإن العبادة الحقة تقوم على الخضوع لله وإخلاص المحبة له وعدم الشرك به. يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ويقول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(١). والإخلاص في العبادة هو جعلها لله وحده وترك الرياء فيها. الإخلاص في العمل هو أداؤه متقناً بأمانة وصدق مراقبة. قال الإمام الجنيد: «الإخلاص تصفية العمل من الكدورات»، ومن هنا عرَّف العلماء الإخلاص بأنه اتقان العبادة والعمل وإحسانهما كأن العابد أو العامل يرى ربه وهو يعبده، فإن لم يكن العبد يرى ربه فإن ربه يراه. وهكذا فإن عبادة الله تحرر الإنسان من وساطة الوسطاء مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] كما أنها تحرر الإنسان من الشكليات، وتستوجب إخلاص النية كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وكما قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(٢). كما أن عبادة الله تحرر الإنسان من العنت والحرج والعسر حسبما جاء به الإسلام مقارنة مع الأديان الأخرى؛ فلا حرج إذن ولا تكليف فوق طاقة الإنسان مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وهكذا فإن بديل الوضوء بالماء التيمم، وبديل الصلاة مع الوقوف عند العجز أن يصلي المرء قاعداً أو مضطجعاً، وكما يفطر الصائم في المرض أو السفر، وتقصر الصلاة الرباعية في السفر من أربع إلى ركعتين.

(١، ٢) أخرجه البخاري وغيره، انظر صحيح البخاري (١) كتاب بدء الوحي، (١) باب: كيف كان بدء الوحي.



أنواع العبادات في الإسلام:

إن العبادة في الإسلام شاملة لكل أمور الدين والدنيا، وقد قال رسول الله ﷺ في أحد أحاديثه النبوية بأن «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1] وعبادة الله تتطلب النية الصادقة والإخلاص في العمل والاستقامة. وتتمثل أنواع العبادات فيما يلي:

- عبادات يؤديها المرء بجسده كالصلاة والوضوء والطهارة والصوم.
- عبادات يؤديها المرء بماله كالزكاة والصدقات.
- عبادات بدنية ومالية كالجهاد والحج.
- عبادات هي عبارة عن أعمال بشرية عادية كالزراعة والتجارة والأعمال الوظيفية إلا أنها يجب أن يقصد بها إرضاء الله تعالى.
- عبادات عقلية وفكرية كالتأمل في مخلوقات الله الذي يؤدي إلى تقوية الإيمان وتعميقه واليقين في عظمة الله وقدرته. قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

واجب التقيد بالشرع في العبادات:

إن العبادة تتطلب التقيد بالشرع وأوامر الله ونواهيه، وعدم الوقوع في البدع والضلالات وتحليل الحرام أو تحريم الحلال مما يؤدي إلى الشرك وإحباط العمل. قال الله - تعالى -: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وقد ذكر القرآن الكريم أن بعض أهم انحرافات الأديان كانت بسبب الغلو في الدين والخروج عن تعاليمه والابتداع، قال - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال - تعالى -: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

كما أن بعض المسلمين انحرفوا بالعبادة وذلك في التمسح بالأضرحة والقبور، وإضفاء صفات القدسية على الأشخاص، وهي أمور مردودة وباطلة مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

النوافل عبادات:

إن العبادة في الإسلام تشمل الفرائض والنوافل، والنوافل هي ما زاد على الفريضة وهي الاستزادة من التقرب إلى الله والوصول إلى محبته وإرضائه، لكن يجب ألاَّ تكون على حساب الواجبات حتى تنال القبول عند الله والأجر الكبير. يقول الرسول ﷺ في الحديث القدسي عن الله - عز وجل -: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، انظر صحيح البخاري (٢) كتاب الإيمان، (١٦) باب الحياء من الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم، ح (١٧١٨).

(٣) أخرجه أحمد، (٦، ٢٥٦).



عندما يغيب الهدف

طاهر بن أحمد الزهراني

عندما يغيب الهدف فإنها تمر السنون الطويلة على الإنسان دون تحقيق أمر منشود، ولا أقصد بالهدف هنا الهدف الدنيوي كصفقة تجارية أو النجاح في الدراسة لا؛ فهذا نصيبنا منه كثير جداً، ولا تجد أحداً إلا عنده هدف أو أهداف دنيوية يسعى وراءها، وربما لو نظرت إلى أهدافه الأخروية لم تجد شيئاً مع أنها أسهل من بعض الأهداف الدنيئة أو الدنيوية، وأنا لا أقول لا تفكر في الدنيا، بل فكِّر، وخذ ما يكفيك، ولكن لا تكن شغلك الشاغل الذي ينسيك أعمالك (الدينية).

أنواع الأهداف:

١ – هدف يومي: مثل: قراءة جزء من القرآن أو سماع شريط.

٢ – هدف أسبوعي: مثل: حضور درس أسبوعي، أو صيام الإثنين والخميس.

٣ – هدف شهري: مثل: قراءة كتاب، أو صيام الأيام البيض.

٤ – هدف سنوي: مثل: ضبط وإتقان أحد العلوم، أو قراءة كتب مطولة (مثل: التفسير أو التاريخ أو الحديث كفتح الباري أو الحج).

٥ – هدف عمري: رضا الله عز وجل.

هذه بعض الأمثلة للأهداف، ولكل إنسان أهدافه الخاصة التي يراها.

أسباب عدم وضع الأهداف:

١ – الغفلة وعدم محاسبة النفس. ٢ – قرين السوء.

٣ – الانشغال بالأشياء التافهة الحقيرة، فيضحك على نفسه ويظن أنها أهداف عالية وسامية.

٤ – الإفراط في الأهداف الدنيوية (حب الدنيا). ٥ – طول الأمل.

كيف تكوّن هدفاً؟

١ – عليك بالمحاسبة والنظر إلى نفسك.

٢ – بذكر الله، والثناء عليه، وتذكر ما أعده ـ جل وعلا ـ لعباده المؤمنين. ٣ – عليك بالقرين الصالح.

٤ – كن ذا همة عالية، ونفس رفيعة عن دنايا الأمور.

٥ – ابدأ في وضع الأهداف، وعليك باستشارة أهل الرأي والمشورة.

٦ – اطلب من الله ـ عز وجل ـ أن يوفقك ويفتح لك أبواب فضله؛ فإنه جواد كريم، وبالإجابة جدير؛ فهو القائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] . إن الإنسان صاحب الأهداف المركزة هو الفائز بلا شك. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. فإذا رأى ذلك المسكين هذه الجوائز قال: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]. اللهم اجعلنا من عبادك الفائزين في الدنيا والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

نحو تميز أخلاقي

خالد بن محمد الصغير

إنه شابٌ أحبه الجميع، الكل يكن له المودة والإعزاز، لم تكد عيني تقع عليه حتى أحسست بكثير من الارتياح والاستئناس، والطمأنينة والانشراح، وامتلأت عيني منه بالإجلال والمحبة، وتساءلت: ما السر وراء ذلك التميز؟ لا بد أنه يحمل مثاليةً ما، فما هي تلك المثالية؟

نعم! لقد عرفه الجميع بجميل السجايا، وحلو الصفات. إنه دائم الابتسامة، حسن العشرة والمعاملة، سريع الاستجابة لنداء الله إذا ما صدح المؤذن للصلاة، وأجمل أوقاته وأعذبها إذا ترنم بكتاب الله تالياً له بكل طمأنينة وخشوع، وأزكى لحظاته إذا شرع في مناجاة الله ـ عز وجل ـ والتقرب إليه صلاة ودعاءاً، ذكراً وتفكراً، طلباً للعلم وتأملاً، وهو مع ذلك كله مناصحٌ لإخوانه، ذو عمل دؤوب، لا يفتر من بذل معروف، أو مساهمة في خير، أو طلب لفائدة، أو اغتنام لبِرٍّ وفضيلة، يسابق في الخيرات، ويشمخ لأعالي الهمم، من نصرة لدينه، ودعوة إلى سبيل مولاه سبحانه وبحمده. حقاً: إنه مثالٌ فريد في عالم الأخلاق، ولبنة راسخة بناءةٌ في بنيان المجتمع، وصرح الخير، وقلعة الدين. وهو بتلك المثالية ليس نسجاً من الخيال، ولا أسطورة من التاريخ، إننا بحاجة ماسة إلى المزيد والمزيد من تلك اللبنات البناءة نحو تميز أخلاقي!!

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

نجاح عبد القادر سرور

إلى الأقصى.. إلى الأقصى   نرُصّ صفوفَنا رصّا
لِنقتلَ أهلَ صهيونِ   ولا نُبقي لهم شخصا

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

إليه نبيُّنا أسرى   وصلى ليلةَ الإسْرا
لَسوْف نعانقُ النصرا   ونطردُ ذلك اللّصا

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

به الفاروق قد نَزَلا   ليغرس بالتُّقَى أمَلا
فلن نرضى به بَدلا   ولن نرضى به نقْصا

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

صلاح الدين نادانا   سلاحي كان إيمانا
وتوحيداً وقرآنا   به الرحمن قد وصّى

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

غزلتُ حروفه قلبا   حفظتُ مكانه قُربا
فإن له هنا حُبّا   وفي قرآننا نصّا

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

إلى المحراب يا جيشُ   وغيرَ الله لا تخشوا
فلن يحلو لنا العيشُ   سوى في عودة الأقصى

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

فَطيروا نحوه جُندا   يَروْن دماءَهم شهْدا
هَلُمّوا مِن ذُرى صيْدا   ومن مِصرِ.. ومن حمِصا

إلى الأقصى.. إلى الأقصى

الشَّهْرُ الكَرِيمْ

محمد بن أحمد الخزمري

شَدَت البلابلُ في سَماءِ حَياتي   فاسْتَمْطَرَتْ قلَمي وحبرَ دَواتي
هَامَتْ بِضَيف منْ ضياءَ وَجْهُهُ   وأكُفُّهُ بَحْرٌ منَ البَرَكَات
رَكَضَتْ خُيُولُ النَّصْرِ فيه، يُعِزُّهَا   صِدْقُ التُّقى وَطَهارةُ الصَّلَوَاتِ
رَفَّتْ حَمَائمُهُ على أرْوَاحنا   نُوَراً ليُخْرجَها منَ الظُّلُمَاتِ
مِنْهُ تَرَقْرَقَ نَهْرُ كُلّ فَضيلَة   فينا ليُغْرِقَ زَوْرَقَ الشَّهَوَاتِ
ضَاءَتْ بِطلْعَته النُّفُوسُ، فَأورَقَتْ   أَغْصَانُها ومَشَتْ بِدَرْبِ نَجَاةَ
اخْضَرَّتْ القَفْرَاءُ حَولَ مَعينه   وَسَقَى الصَّديَ بِها نَدَى الآياتَ
نِعَمٌ هُوَ انْسَكَبتْ.. فإنْ رُمْتَ اسْمَهُ   فاجْمَعْ حُرُوفَ أوائلِ الأبْياتِ!

نتوءات وشواحين الوراء

منى السيف

في غمرة الخوض في أحداث القدس الأخيرة وملاحقة نتوءاته وتفاصيله تنهض تساؤلات شتى عن موقف المثقف الداعي للتطبيع مع (إسرائيل)، حيث إن نفراً من «المناضلين» القدامى المتقاعدين يصرون على إعادة عقارب الساعة إلى الوراء وتجنيد خبراتهم السابقة في توزيع «الوطنية» على هذا وحرمان ذاك منها، ووصف ذاك بالأيديولوجي المنغلق والآخر بالعقائدي الجامد(!) محاولين عبثاً البحث عن بارقة تعزز مزاعمهم التي ما زالت تخبط خبط عشواء في حقل الحراك العربي الثقافي فتسممه وتدفعه برعونة هستيرية قلَّ نظيرها إلى الحائط الشاهق الأصم بلا دليل ولا هادي له؛ في حين أن حسماً قاطعاً لهذا الأمر يتحقق يومياً على أرض الواقع بمرأى ومسمع من العالم؛ بحيث يغدو التعاطي مع (إسرائيل)والتعامل معها وفق نظريات «التطبيع» و «الأمر الواقع» مسوغاً لـ (إسرائيل) في إزهاق المزيد من أرواح الناس لأنه «من أمن العقوبة أساء الأدب».

والمفهوم من التطبيع (لغوياً) هو إقامة علاقة طبيعية بين شيئين أو كيانين متوافقين ومنسجمين، على ما يشترط لذلك ـ بداهة ـ من تسليم كل منهما بنهج الآخر وسياساته ومراميه؛ فكيف يكون هذا والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] فغياب المرجعية الدينية عند كثير من المثقفين العرب هو ما جعلهم يتخبطون في مواقفهم ويجرون الأمة إلى أنفاق مظلمة مسدودة.

إن من ينادي بالحوار مع الكيان الصهيوني بعد كل ذلك إنما يمهد للمزيد من الوحشية والبطش لإخواننا الفلسطينيين مع موافقته لها على الاحتلال والتهديد والقوة والتشريد والتفكيك بل والمحو لهم.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

مناجاة أطلال

فهد بن علي العبودي

أرقتُ بلَيْل حَالك الظلمات ... أنوحُ على مَجْد هَوى وبُناة

بَكَيْتُ ـ وهلْ يَشفي البَكاءُ رفيقهُ ـ؟ ... زَمَانَ العُلا والعزِّ والوثبات

أقلِّبُ طَرْفي لا أرى غير أمةٍ ... تَئنُّ، وأخرَى في هَوىً وسُبَات

اُنَاجي بلَيْلي ـ إذ عَدمتُ مُناجياً ... مِنَ القومِ ـ أطْلالاً وبَعْضَ رُفَات

أُسَائلُ أطلالَ المعالي عن العُلا ... فَتَبْكي وتُبْكيني مِنَ الحَسَرات

تُخَبِّرُني عَما مَضى بتَلَهُّف ... وتُنْبئُني عما جَرَى بشَكَاة

تقولُ: هيَ العَلْيَاءُ أمْسَتْ طُلُولُها ... تَئنُّ، وأمْسَى أهْلُهَا بشَتَات

أحنُّ إلى أيَّام عَمْرو وخالد ... رعى اللهُ ما ولَّى من السَّنَوات

تقول: ـ وقد ضَاقَتْ من العَيْشِ في الدُّنَى ـ ... أسَائلُ ربي أن تَحِينَ وَفَاتي

رُوَيْدَك يا أطْلالُ كَدَّرْت خَاطري ... وأجريت دَمْعي فارتوتْ وجناتي

وأطْرقَت الأطلالُ بَعْدَ سَمَاعها ... حَديثي، وَهَزَّتْ قَلْبَهَا كلمَاتي

وَقَالَتْ: لَعَلَّ الله يَكْشفُ كَرْبَنَا ... وَيَجْلُو ظَلامَ الغَيِّ والشَّهَوَات

لَعَلَّ شُمُوسَ النَّصْرِ تُشْرقُ في غد ... فَتَطْمسُ لَيْلَ الذُّل والنَّكَبَات

وَبَيْنَا نُنَاجي بَعْضَنَا إذ بدا لَنَا ... سَنَا الفَجْرِ أجْلَى وَحْشَةَ الظُّلُمَات

فَقُلْتُ لها قَبْلَ الوَدَاع تفاؤلاً: ... سَتُصْبحُ حَقاً في غد رغباتي

المسجد.. والمسرح.. وتبادل الأدوار

إبراهيم بن عبد العزيز أبا الخيل

قال لي صاحبي وهو يحاورني: أهناك فرق بين المسجد والمسرح؟ فقلت له: وهل هناك علاقة بينهما حتى ننشد ذلك الفرق؟ وقبل أن أجيب طرح عليّ سؤالاً غريباً، فقال لي: وهل هناك عملية لتبادل الأدوار بينهما، يعني المسجد والمسرح؟ أثار صاحبي هذا في نفسي علامات استفهام كبيرة بإثارته أسئلة خطيرة؛ فهل هناك حقاً علاقة بين المسجد والمسرح؟ وهل هناك أيضاً عملية لتبادل الأدوار؟ اختلفت مع صاحبي كثيراً في طرحه لمثل هذه القضية، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك حينما تهكمت عليه بسخرية، وعزفت عن الدخول معه في حوار يتطرق لمثل ذلك، وعلى طريقة: (ما بني على باطل فهو باطل). ولكن ثمة شيء قد حدث أعادني لمناقشة مثل هذا الموضوع وجعلني أرتب أوراقي وأجمع قواي وأدلي بدلوي؛ فقد تعلمنا في تجربتنا المدرسية الأولى ـ وذلك عندما كنا أطفالاً ـ أن هناك أدواراً للمسجد أرسى من خلالها دعائم التربية؛ فقوَّم ما اعوج، وأصلح ما فسد، فلم يقتصر دوره في كونه موقعاً للصلاة؛ بل كان مدرسة للعلم ومنبراً للثقافة وميداناً للسياسة؛ اجتمع فيه المسلمون لأداء الصلاة وقراءة القرآن، فكان موقعاً للعبادة ومكاناً للقاء العبد مع ربه، والتقوا فيه لدراسة السيرة والتاريخ فاصبح مدرسة للعلم ومنبراً للثقافة، واجتمع المسلمون فيه للقاء قائدهم وهو يتحدث لهم عن الجهاد، ويرسم معهم السياسة العامة لدولتهم، فكان ميداناً للسياسة، ولم يهتم بالغني دون الفقير، أو الكبير دون الصغير، فكانوا كلهم سواسية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أين نحن اليوم من هذا وقد همش دور المسجد ليقتصر على أداء الصلاة فقط؟ تلك هي أسئلة ما زلت أبحث لها عن إجابة.

ولأنها سُنَّة الحياة هكذا دارت عجلة الأيام، فارتفعت أقوام وانتكست أعلام، وأصبح هناك من يربط بين المسجد والإرهاب، وبين المسرح والمحراب، فبرز من ينادي بإتاحة الفرصة للمسرح ليأخذ دوره في هذه الحياة، ونسي أو تناسى ما بعد الممات؛ وكأن هذه الحياة انتهت بشهادة الوفاة، أين نحن من الاستعداد للقبور، والبعث والنشور؛ فقد رفع بعضهم رايته وحاول الوصول إلى غايته، فأنشئت مسارح للأطفال وكأنهم في حاجتها؛ فكانت الخطوة الأولى للاختلاط.

إن ما يقدم في هذا المسرح هو أبعد ما يكون عن أسس التربية السليمة التي كان المسجد يقوم بها، فتذكرت حينها صاحبي وعملية تبادل الأدوار، لقد تحدث بعضهم عن المسرح أنه مدرسة لتربية النشء يتعلمون فيه العادات الأصيلة والأشياء الجميلة، ولكن الحقيقة تقول عكس ذلك، وليس من رأى كمن سمع والتجربة خير برهان.

إننا أحوج ما نكون وأكثر من أي وقت مضى لإحياء دور المسجد، ومنحه الفرصة التي طال انتظارها ليعود مدرسة للعلم يتخرج منها أجيال تحمل على عاتقها هموم الإسلام والمسلمين.

صرخة على عتبة الدخول

عبد الله سالم الغامدي

رسالة إلى كل عيد يفكر في المجيء إلينا...

ما عدت أعرف معنى العيد يا عيدُ ... أو عاد يطربني لحن وتغريدُ

قد كنتَ يا عيد بالأفراح تأسرنا ... واليوم يأسرنا قتل وتشريد

قد كنتَ يا عيد في أمن تقابلنا ... واليوم ساومنا في الأمن رعديد

أوطان أمتنا صارت ممزقة ... مقطوعة الوصل لا وجهٌ ولا جِيدُ

مسلوبة المال لا جند فتحرسها ... مهتوكة العرض والقناص مرصود

ممدودة الكف للأعداء تطلبهم ... عزاً وجذعهم في الشر ممدود

أواه يا عيد هذا وجه أمتنا ... قد أبدعت فيه يا عيد التجاعيد

ونحن يا عيد في ذل نعاقره ... ونشرب الكاس لا عزم وتجديد

جراح أمتنا يا عيد قد كثرت ... وعزمها من جبال الوهم مقدود

أواه يا عيد من همٍّ يقطعني ... فالقلب منصهر والجمر موقود

عذراً أيا عيد مما كنت تسمعه ... لو كنتَ تبصره ضاقت بك البيد

بريد القراء

* أرسل بعض الإخوة يستفسرون عن كيفية التواصل مع المجلة بالمشاركات، ونقول لهؤلاء الإخوة الأفاضل: إن الباب مفتوح لجميع من أراد المشاركة في جميع أبواب المجلة ما دامت الكتابة ملتزمة بمنهج أهل السنة والجماعة، مع مراعاة القواعد العلمية في الكتابة كعزو النقول، وترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث، والكتابة بخط واضح وعلى وجه واحد من الورقة، وإرفاق وسيلة تواصل مع المشارك: «عنوان بريدي - بريد إلكتروني - فاكس - هاتف».

* الأخ: عبد الحميد عبد العزيز المنصور: أرسل يشكر المجلة على التطوير الأخير فيها، ويسأل عن موقع المجلة على شبكة الإنترنت، وهل صدر ملف تعظيم الرسول ﷺ في كتاب؟ أما الموقع فيوجد موقع مؤقت الآن على شبكة نسيج، ويُعد الآن موقع شامل لكل أنشطة المنتدى الإسلامي بما فيه مجلة البيان، ونرجو أن يرى النور قريباً بإذن الله. أما الملف فلم يصدر حتى الآن في كتاب، نشكر الأخ على حرصه واهتمامه جزاه الله خيراً.

* الأخ: أحمد بن سعود المزني: أرسل ملاحظة حول القصيدة التي نشرت عن الشيخ ابن باز وعبارة: (بمناسبة مرور عام على وفاته)، ويذكر أن هذا ليس من هدي السلف، ونحن نوافقه على ذلك، وهو خطأ غير مقصود نسأل الله المغفرة، كما أرسل ملاحظة حول إحدى فقرات مرصد الأحداث، والتي يأخذ عليها ذكرها لتفاصيل الفساد في العالم الغربي، ونشكر الأخ الكريم على غيرته وتواصله، بارك الله فيه وجزاه خيراً.

* الإخوة: د. محمد خليل جيجك، جلال راغون، محمد إكيج: نرجو التكرم بموافاة المجلة بعناوين المراسلة الخاصة بكم، مع خالص التقدير.

* الإخوة والأخوات: د. محمد بن ظافر الشهري، د. عبد الرزاق حمود الزهراني، د. محمد السيد البلاسي، مشبب القحطاني، حفيظ بن عجب الدوسري، محمد شلال الحناحنة، يوسف عبد الله السالم، أحمد عطية الزهراني، عبد الحميد سالم الجهني، مبارك عبد الله المحيميد، سليمان عز الدين سليمان، فتحي الجندي، محمد بن أحمد الخزمري، حسين حسن عبده، سعيد يوسف أبو عزيز، علي يحيى القحطاني، رياض عقيل بونهي، محمد علي البدوي، صالح علي العمري، خالد الربيعة، أكرم مبارك الحضرمي، متوكل فياما، زينب عبد الله السعود: وصلتنا مشاركاتكم، ونشكر لكم هذا التواصل الكريم، ونفيدكم بأن مشاركاتكم مجازة للنشر، مع تمنياتنا بدوام التواصل.

* الإخوة والأخوات: عبد الله إبراهيم جراد، محمد فال بن سيدي، عبد اللطيف الكبري الألوري، هشام محمود، عبد الله عزام المطيري، سعد عبد الرحمن النفيسة، ماجد الحجيلي، مصطفى موسى الهوساوي، عبد الرحمن عبد الله الشريف، علي بحري اليامي، مسعد عبده، عبد الرحمن الهادي العمري، يوسف بن عبد الله، أحمد الحازمي، شهاب أحمد الظفيري، مشعل ركابي الظفيري، عبد الله حسن شقبيل، أيمن إبراهيم شحاتة، عبد الله سالم الغامدي، عبد الله موسى بيلا، محمد صالح السويد، صالح سعيد المريسي، عباس شعيب حسن، عيسى الخماشي، إبراهيم المشني الغامدي، بلال سالم، عبد الله سليمان النفيسة، عبد الله غزاي البراق، أبشر خليف علمي، مها آل عمرو: سعدنا بتواصلكم الكريم، بارك الله فيكم ومشاركاتكم مجازة للنشر في المنتدى إن شاء الله.



هوى الخلاف أم خلاف الهوى؟!

وليد بن خالد الجهني

الخلاف سنة بشرية يعكس في حقيقته اختلاف الطبائع والنفسيات وتفاوت المدارك والتصورات؛ ومع ذلك فإن التعامل مع السنَّة البشرية يجب أن يكون بعيداً عن التسليم المطلق أو المواجهة المطلقة؛ فالنفس مجبولة على خصال من الشر، كما أنها مجبولة على خصال من الخير، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].

والتسليم بهذه الحقيقة غير التسليم لها؛ فالتسليم لهذه الخصال بدعوى الواقعية مهلك ولا شك، كما أن إنكارها والتعالي على فهمها في اتجاهات الآخرين وتسويغ فعالهم هو جنوح إلى عالم الخيال أو المثال.

ويبقى بعد هذا وذاك أن المسؤولية الشرعية تقع على ما يملكه الإنسان من التجرد لله من شوائب الهوى، وحظوظ النفس، لا على ما لا يملكه من طبيعة التنشئة واختلاف المدارك، وفرق كبير بين الأمرين.

الخلاف رحمة باعتبار، وبلاء ونقمة باعتبارات أخرى، ويبقى وجود الهوى أو عدمه العامل الأساس لقلبه من الرحمة إلى النقمة أو العكس؛ فانتفاء الهوى حتى مع بقاء الخلاف يلقي بظلال الود ويزيح معاني التطرف في التعامل مع المخالف، ويبقى الأمر في أشد الظروف في دائرة: «إخواننا بغوا علينا» كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والمتأمل في ساحة العمل الإسلامي يلاحظ بوضوح أن بلايا الخلاف الواقع ورزاياه في أحوال كثيرة ليست في ذات الخلاف الناشئ عن اختلاف المدارك والتصورات والخلفيات بقدر ما هي في شطحات

الهوى المصاحبة لهذا الخلاف التي تخرج به عن دائرة العقل والدين! إن جمع الأمة على عقل واحد يبقى أمنية مغرقة في الخيال، ولكن جمع الأمة على أدبيات واحدة يبقى غاية لا بد من أن تنال بإذن الله تعالى.

والواقع المؤسف أن خلطاً واسعاً يجري بين الخلاف الذي تبقى ساحته هي الآراء والأفكار بل والتطبيقات الفرعية القابلة للاجتهاد، وبين الاختلاف الذي لا يقتات إلا صفاء القلوب، وسلامة الصدور، وطهارة الألسن.

فالخطاب الإسلامي يجب أن يتوجه من نبذ الخلاف إلى نبذ الهوى في الخلاف أو خلاف الهوى، وهذا بدوره سوف يؤدي إلى توسيع دائرة المتفق عليه على حساب دائرة المختلف فيه، ثم بعد هذا يبقى أن هناك فرقاً بين الخلاف في الآراء والخلاف في الأداء.

فليس كل خلاف في التنظير يجب أن يتحول إلى خلاف في التطبيق؛ فساحة التنظير أوسع من ساحة التطبيق، ومرونة الآراء أرحب من مرونة الأداء، وتبقى قضايا التنوع والراجح والمرجوح والفاضل والمفضول، والحسن والأحسن، أيسر من أن تترجم إلى مفاصلة عملية بين حدين متضادين! فالتطاوع في الأعمال لا يعني التطابق في الأذهان وإلا لما نِيلَ التطاوع[1] وإن طال الزمان.

وعلى كل حال فستبقى هنالك ثوابت لا تقبل التطاوع؛ لأن التطاوع فيها نوع من التنازل والتراجع، وليست المشكلة في خفاء هذا بقدر ما هي في التباس الثوابت بالمتغيرات؛ فالشريحة الكبرى من الصحوة لا تعاني من التنازل عن ثوابتها، بحجم المعاناة من المفاصلة على أمور ليست من الثوابت أو كبريات القضايا في شيء، وفي كلٍّ شر.

ويبقى الجهل والهوى هو المحضن الخبيث لتفريخ بيض الخلاف في الأقوال اعتداداً وغروراً وخوضاً في الأعراض وتمادياً في الإعراض، وفي الأعمال هجراً وصدوداً وإيقافاً لعجلة الخير، ودفعاً لعجلة الشر.

وأخيراً فإن أحادية التفكير وتسطيح الأمور وإرجاع القضايا إلى بُعْدٍ واحد أمر مرفوض ولا شك؛ ولكن يبقى أن في الأمور تبايناً، ولكل أمر ثقله، ولكل رأس أُسّه.

---

(١) لفظة التطاوع مأخوذة من وصيته ﷺ لأبي موسى ومعاذ - رضي الله عنهما - لما بعثهما إلى اليمن بأن يتطاوعا ولا يختلفا، البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ١٦٤، ح/ ٣٠٣٨.

